الأب الغائب

يوسف إدريس



الأب الغائب

تأليف
يوسف إدريس



الأب الغائب

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٧٤٨ ٢

المحتويات

ملحوظة هامشية جِدًّا

هذه الكتب التي أصدرتُها منذ بدأت كتابة باب «من مفكرة يوسف إدريس» في الأهرام كل يوم إثنين، ألقَتْ عليَّ شخصيًّا وعلى الحركة الثقافية والفنية المصرية والعربية سؤالًا لا يزال إلى اليوم مطروحًا، ولا زلتُ أُواجَه بالتساؤل في كل مكان: لماذا قلَّلتَ كثيرًا من إنتاجك القصصي والمسرحي، وكدتَ تتفرَّغ لكتابة المفكرة؟ صحيح إنها هامة — هكذا يقول المتحدث أو المتسائل — وتتناول أخطر القضايا الثقافية والسياسية والاجتماعية في حياتنا، ولكننا نضنُّ بكاتب القصة (وهنا يُضْفُون عليَّ ألقابًا لا أعتقد أني أستحقها)، نضنُّ بهذا الكاتب أن يُنفق جهده في هذا الجانب الصحفي، المفكِّرة، ولا يتفرَّغ كليةً لقصصه ولمسرحه.

والحقيقة أنني كثيرًا ما أُجيب السائل «بأي كلام»، فحين تتكرَّر نفس الأسئلة والتساؤلات مئات المرات، وأكون مضطرًّا لنفس الإجابات، تُصبح المسألة ليست مملةً فقط، ولكن لا فائدة البتَّةَ منها.

وغالبًا، وفي أعقاب كل محادثة كهذه، أتأمَّل المسألة فأجد أنها مسألة هزلية تمامًا، ولا بد لو غيرنا الزاوية قليلًا أن تتحوَّل إلى «نكتة» تُميت من الضحك. فالمتسائل يَعترف أن القضايا التي أتناولها تُعتبَر «أهم قضايا حياتنا في الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع …» باختصار أهم قضايا «الوجود» المصري والعربي، فهو إذن لا يَستنكرها، إنما يَستنكر أن تكون مكتوبة على هيئة مفكِّرة، ولا زلت أذكر تلك الخطابات التي جاءتْني ولا تزال تَجيئني من أرجاء وطننا العربي ومن العرب المقيمين في أوروبا وأمريكا، بل ومن أجانب، تُسائلني وتُعاتبني بنفس الطريقة، وهو عتاب مُضحِك! لأن أحد النقاد قد أرسل لي مرة تعليقًا على مفكِّرة «غطاء الفانوس» يقول: لو أنك بدلًا من كتابة رأس الموضوع هكذا: «من مفكرة يوسف إدريس» كتبت قصة قصيرة بقلم يوسف إدريس، لظَفرنا بقصة قصيرة من

أبدع ما يكون. بل إنه ذكَر أن العكس يحدث لبعض الكُتَّاب غيري، فيكتبون: «قصة بقلم فلان»، وهي في الحقيقة مقالة.

وأعتقد أن القضية، ما دامت قد وصلت إلى هذا الحد، قد أصبحتُ في حاجة إلى معالجتها بحزم.

أيها القراء الطيبون، ما أكتبُه تحت عنوان «من مفكرتي» هو نوع جديد من الكتابة لم يأخذ حظَّه من الشيوع أو الاعتراف في بلادنا العربية، التي تُقسِّم الكتابة تقسيمًا إرهابيًّا متعسفًا، فهي إمَّا قصة قصيرة أو رواية أو مسرحية أو مقالة.

صعب جِدًّا في ظل هذا التقسيم الإرهابي أن أقول إنَّ هناك نوعًا خامسًا يَجمع كل خصائص هذه العائلات الفنية، ويُسمُّونه مفكرات أو انطباعات، أو يُغالي بعضُهم حتى ويُسميه الشكل الحديث جِدًّا للقصة القصيرة في عالم اليوم، فهو يجذب القارئ من أول كلمة، وفيه دراما داخلية وموسيقى لغوية تركيبية، وخيط فني قصصي أكثر إحكامًا ربما من الخيوط الفنية التي تجدها في القصص القصيرة.

وإذا كانت مكانة أي فن ودرجة رُقيِّه تُقاس أوَّلًا بمقدار فاعليته، وليس بمقدار انتشاره، فقد يكون الانتشار راجعًا لأسباب لا علاقة لها بفنية العمل؛ فإني أقولها بصراحة إن هذا الشكل الذي أكتب به ما أُسمِّيه أو يُسمِّيه الأهرام من مفكرة د. يوسف إدريس، شكل فني خالص لا علاقة له البتَّة بشكل المقالة القديمة، كما كان يَكتبها العقَّاد أو المازني أو طه حسين، أو الكُتَّاب المعاصرون الذين يجلسون إلى مكاتبهم وفي نيَّتهم كتابة «مقالة» أو مقال، بمعنى عمل عقلاني له مقدماته ونتائجه العقلانية المدروسة بعناية لتؤدِّي إلى «إقناع» القارئ في النهاية بصحة رأي الكاتب.

هذه مقالات «رأي» وليست أعمالًا فنية.

والفرق بين مقالة الرأي والعمل الفني الذي أكتبه، هو الفرق بين أي موضوع تقرؤه في هذا الكتاب وبين هذا الموضوع نفسه لو كُتب على هيئة مقالة رأي، لها مقدمة ومدخل ووسط وعرض ونتيجة.

المسألة في الحقيقة ليست موضوعي البتَّة، وإنما هي موضوع ناقد خلَّاق جريء يتفحَّص الكتب التي أخرجتُها منذ بدأت كتابة المفكرة؛ وهي: «من مفكرة د. يوسف إدريس» جزء أول وثانٍ، و«الإرادة»، و«جبرتي الستينات»، و«عن عمد اسمع تسمع»، و«بصراحة غير مُطلَقة»، و«اكتشاف قارة»، و«م. د. م»، و«عزف منفرد»، و«خلو البال» …

إذا نظَرَ ذلك الناقد الذي أرجوه بتجرُّد أو بجرأة، وبرؤية تستكشف وتكتشف وتخلق، كما لا بد لأي ناقد حقيقي أن يفعل، فسوف يَطلع علينا برأي — كما ذكره الشاعر الكبير فاروق شوشة في أمسية ثقافية — رأي فيه مفاجأة لنا جميعًا، لكم ولي.

ي. إ.

كلمتان للرئيس وللمعارضة

في عقلي وضميري كلمتان، أرجو أن يُعينني الله على قولهما. كان ممكنًا أن أتفادى هذا الموضوع الشائك، وأذهب أتحدَّث عن موضوع من المواضيع التي تَشغل بال رجل الشارع المصري (بالمناسبة هذا التعبير فيما أعتقد لم يَعُد له وجود؛ إذ إن الشارع المصري نفسه لم يعد له وجود، أقصد الأرصفة التي يَمشي أو مفروض أن يمشي عليها رجل الشارع، إنها لا توجد إن وُجدت، إلا في منطقة وسط البلد، ولا توجد إلا مزدحمة خانقة يتضارَب الناس رجالًا ونساءً وأطفالًا وصبيةً في سبيل أن يَنفذ كل منهم من ذلك المُخْتَنق البشري الذي يتكدَّس فيه المارة).

كان ممكنًا أن أتناول مشكلة من مشاكل حياتنا اليومية وأُشَرِّق وأُغَرِّب، كان ممكنًا أن أتناول مشكلة عربية وصلَت إلى نقطة بالغة الحرج، كالهجوم الإيراني على العراق وتقاعُس العرب أجمعين (لولا مصر) عن مساعَدة العراق عسكريًّا. وأنا هنا أتوقَّف حائرًا أتساءل فيما يُشبه الفجيعة: أين كلُّ هذا العتاد العسكري الذي تشتريه الدول العربية بمليارات المليارات من الدولارات، وتُكدِّسه في مخازنها، أو تُعطيه فارغ الذخيرة لجيوشها، وهو سلاح قطعًا لن يُستعمل ضد إسرائيل، وإلا لكان قد استُعمل من زمان بعيد، وبالطبع لن يُستعمل ضد أمريكا أو المصالح الغربية، صاحبته وموزِّدته ورابحة آلاف المليارات من ورائه، ففيم إذن تكديس هذا السلاح إلا للاستِعمال الداخلي؛ أي التمكين للحكم في الداخل، وضرب شعوب تلك الدول أو الصراع المسلح حول السلطة كما حدَثَ في اليمن. هو سلاح إذن استُجلِبَ للمحافَظة على الحكم من المحكومين وليس أبدًا للاستعمال ضد عدوٍّ خارجي معاذ الله، أو حتى لنجدة دولة عربية أنهكتها حرب خمس سنوات تُساوي كل الحروب التي خاضتها كل الدول العربية مُجتمعة بما في ذلك حروبنا الأربع نحن في مصر، وراح

ضحيتها لا أقول عددًا من المسلمين على كلا الجانبين، ولكن عددًا من العراقيِّين العرب أكثر بكثير مما فقَدْنا في أي حرب ضد إسرائيل، أو حتى في كلِّ الحروب ضد إسرائيل.

هذه البلاد العربية التي يتكدَّس فيها السلاح تكديسًا، وعلى أحدث طراز، هذه الطائرات التي تَحفل بها أسلحة الطيران في جميع الدول العربية، وهي لو ساهمت كل دولة ببضعة أسراب لأصبحَت قوة سلاح الطيران العراقي من القُدرة والبطش بحيث تُجبَر إيران على عقد الصلح.

ولكن إيران تتوغَّل داخل الأراضي العربية العراقية، صحيحٌ أنه ليس توغُّلًا خطيرًا.

ومن المُمكن للعراق وحده أن يَجتثَّه ويقضي على الهجوم، ولكن أين هي معاهَدات الدفاع العربي المشتركة، أين هي المساعدات العسكرية العينية التي كان لا بد لكل عربي أن يُساهم بها في المعركة؟ فالعراق لا يُدافع عن أرضه فقط، ولكنه كما يقول العراقيون بحق، يَحمي جبهة العرب الشرقية من هجمة فارسية شَرِسة تتسربَلُ بمعطف الدين، والدين منها بَراء؛ فالدين لم يأمر المسلمين بقتل المسلمين أو احتلال أرضهم، لم يأمُر بإعدام كلِّ مَن يُشتبه في أمره، حتى لقد قُدِّر عدد مَن أعدمهم حكم رافسانجاني وعلي خاميني بما لا يقلُّ عن سبعمائة وخمسين ألف إيراني منذ قيام الثورة. تلك الثورة التي حين قامَت استبشرنا خيرًا، وقُلنا أخيرًا ها قد أُتيحَت لأمة الإسلام فرصة من ذهب للحكم بشريعة الإسلام وسماحة الإسلام وعدالة الإسلام، وإعطاء نموذج لحكم المسلمين يفوق في رقيِّه وتحضُّره كل أنواع الحكم الغربية برأسماليتها واشتراكيتها. وكانت خيبة أملنا مروِّعة؛ فقد انقلب الحكم الإسلامي إلى سلخانة بشرية تجتثُّ رءوس المعارضين، وتجتث رءوسَ بعضها البعضُ، وأصبح «بني صدر»، أول رئيس لجمهورية إسلامية، عدوَّ تلك الجمهورية رقم واحد. باختصار فُجعنا في كل الأحلام التي بَنيناها على حكم إسلامي حق، تمامًا مثلما فُجعنا في حكم نميري حين لجأ إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وإقامة الحد، وقطع يد سارق القروش، كستار لسَرقة ونهب الملايين ومن ألدِّ أعدائنا، نمطًا لأسوأ نوع من الحكم الفاسد العميل لإسرائيل بتهريبه قبائل الفلاشا؛ لتكون عونًا لإسرائيل على ضربنا نحن.

لا أُريد أن أطيل في مأساة إيران أو مأساة السودان، ولكن أعود إلى الموضوع وأقول: كيف تَسكُت الدول العربية والأرض العربية في العراق تُغزى وتُحتل، ولا أحد يُحرِّك ساكنًا، ولولا المساعدات العسكرية الرهيبة التي تُقدِّمها مصر للعراق الشقيق لربما اختلَّ التوازُن في القوى، حتى إن تلك المساعَدات كانت تُقدَّم في عصر الرئيس السادات، ذلك الذي انعقد مؤتَمر في بغداد نفسها؛ ليتَّهمه بما شاء له الرؤساء والملوك العرب من تُهَم، ويُقاطِعوا

مصر ويفرضوا عليها حصارًا اقتصاديًّا سياسيًّا ثقافيًّا لم يَحدُث طوال تاريخ الأمة العربية. أقول ...

كنت أريد أن أطرق واحدًا من تلك الموضوعات الساخنة التي تَحفل بها الساحة من حولنا، على الأقل موقفنا من المناورات الأمريكية القائمة على حُدودنا في خليج سرت، وعدم احتجاجنا — على أقل الفروض — عليها، مجرَّد احتجاج حتى لو كان المقصود بها ليبيا ونظام حكمها، فليبيا أرض عربية غنية ذات شعب مَحدود العدد، ونحن حُماتها الطبيعيُّون مهما أسرفت القيادة الليبية في معاداتنا وطرد عمالنا.

أقول ...

كنتُ أريد أن أتناول موضوعًا من هذه المواضيع.

ولكني لم أستطع.

فالنظر إلى الخريطة الداخلية المصرية طوال الأسابيع الماضية أورثني حسرةً لم أجد بُدًّا معها من أن أقول الكلمتَين اللتَين فرَضَتا نفسيهما على عقلي وقلبي وقلمي.

وأُولى تلك الكلمات إلى الرئيس حسني مبارك.

لقد لمحتُ في تصريحاته ومؤتمراته وأحاديثه المحدودة لهجةَ ضيق شديد بما تقوم به المعارضة من تهييج للرأي العام؛ فكلُّ صحيفة معارضة عبارة عن نقْد شديد واتهامات موجَّهة إلى بعض أجهزة الحكم وإلى سياسته، من أول كلمة إلى آخر كلمة.

والرئيس إنسان، يَضيق بالنقد مثل أي إنسان آخر، وقطعًا لو كان إبراهيم شكري أو خالد محيي الدين أو فؤاد سراج الدين أو عمر التلمساني في موقفِه وجاءته صحُف المعارضة في الصباح وقرأ كل هذا الذي يُكتَب فيها لانتابته حالة غضب؛ فالواحد مِنَّا يغضب إذا وُجه إليه أو لعمله نقد على مستوى محدود جِدًّا، فما بالك والنقد لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أوردها من أول أي خطأ في محافظة قنا إلى مجاري الإسكندرية. وصحيح أن كثيرًا من الانتقادات لها ما يُبرِّرها، ومعظمها صحيح في حدِّ ذاته، ولكن «منظر» الصحيفة المعارضة يَبدو مغيظًا لأي رئيس أو حاكم. وقد كانت الحكومة المصرية — كما قال بحق الأستاذ مصطفى أمين — سيئة الحظ خلال الشهور الثلاثة الماضية؛ فقد توالت الحوادث والنكبات بطريقة وكأنما دبرها شيطان رجيم، فمن أول الغارة على تونس إلى خطفِ الباخرة الإيطالية، إلى خطفِ الطائرة المصرية، إلى حادث سليمان خاطر، إلى وفاته، كله وراء بعضِه البعض، وكله مجال بارح لأشد أنواع النقد والانتقاد. ثم جاءت حكاية شقيق رئيس مجلس الشعب وبقية عصابة النقْد لتُضيف حطبًا جديدًا إلى النار الموقَدة، مما جعل المعارضة تعيش «أمجد» أيامِ نَقدِها ومعارضتها.

وغضب الرئيس، ولم تخلُ غضبته من لهجة تهديد لهؤلاء الذين في رأيه «يُريدون أن يُفشِلوا التجربة الديمقراطية ويُصبح بعدها الخيار مخيفًا مخيفًا.»

وللرئيس، وقد حدَث هذا كله، واستغلَّته صحف المعارضة إلى آخر قطرةٍ إثارةً ونقدًا، أن يغضب.

ولكني لست مع الرئيس في غضبه.

فمعظم الأحداث التي تدينها المعارضة ليسَت من صُنعِه، ولا بعلمه، وتمَّت من أجهزة كان يثق فيها وخانَت ثقته، فلماذا يَحمل الرئيس خطايا غيره وكأنه المسيح يُريد أن يحمل خطايا كل رجالات الحكم، وهذا شيء لا يستطيع بشر واحد أن يتحمَّله. لماذا لا يُحاسَب كلُّ مخطئ على خطئه، ويُدان، مثلما حدث في قضية عصابة النقد. إنَّ الحكم الذي صدر بالأشغال الشاقة على أربعة من كبار رجال المال، والقضية المقدَّمة الآن للمحكمة وفيها كبار رجال الصناعة بتهمة اختلاس خمسة ملايين ونصف من الجنيهات، هذه الجرائم لا علاقة لها بالرئيس من قريب أو بعيد؛ فالرئيس لا يستطيع أن يأمُر الناس جميعًا أن يكونوا شرفاء، فيكونوا شرفاء. إن الضعف البشري كامن في النفوس، كل النفوس، بعضُها يستطيع أن يَقوى عليه، وبعضها يستجيب لهذا الضعف ويُوسوِسُ له شيطان الثروة والرشوة واستغلال النفوذ ويُجرم، فماذا يُغضب الرئيس في أن تَكشِف المعارضة عن هذا، وفي أن يُقدَّم هؤلاء المجرمون للمحاكم ويُحكم عليهم؟ بالعكس، إن ما حدث ويحدث ليس دليل ضعف الحكم، بل أكبر دليل على قوَّته واقتداره ونظافة قيادته، إنه سند للرئيس، وليس سهمًا موجَّهًا ضده. إن المعارضة هنا تعمل كما لو كانت مُفتِّشًا عامًّا للشعب المصري، تبحث وتُنقِّب عن أوجُهِ الفساد والأمكنة المُستَتِرة للبعض منه وتَكشفُها للناس، وأيضًا، وهذا هو الأهم، تكشفها للرئيس وأجهزة القضاء المَعنية؛ بمعنى أنَّ المعارَضة هنا وسيلة تنظيف وكشف للمَساوئ المخبوءة، حتى لو أخذت تلك الوسائل شكل التَّشهير، فهي لا قدَّرَ الله لا تُشهِّر بمؤسسة الرئاسة، ولكنها تُشهِّر بأناس يَستحقُّون التشهير فعلًا، وإذا ثبَت أن تشهيرَها كاذب فإنها تُقدَّم للمحاكمة ويُحكَم على بعضها بالإدانة والغرامة.

وهذه هي العملية الديمقراطية كما يجب، وكما لا بد أن تكون عليه. نفْس العملية التي دفعَت هيزلستين وزير الدفاع البريطاني — وهو عضو بارز في الحزب المحافظ الحاكم — إلى كشفِ صفقة وستلاند ومعارضتُه رئيسةَ وزرائه معارضة بالغة العنف. إن كشف هذه العملية، ومن عضو وزارة حاكمة، أفاد الشعب البريطاني بأَسرِه؛ فقد كان فرصة هائلة لكشف الحقيقة عن هذه الصفقة المستورة التي كانت تُدبَّر في الخفاء، وبالتالي كان

الطريقة الوحيدة لمعرفة الحق والحقيقة وإطلاع الناس والمساهِمين على ما فيه خير لهم وخير لبريطانيا.

أجل، تلك هي العملية الديمقراطية التي اقتضَت وجود حكومة ومعارضة، حتى لا ينفرد أيٌّ من الطرفين بالحكم ويعيث فيه فسادًا دون أن يجد أحدًا يعترضه أو يُقدِّم أدلة على سوء أو خطأ قصده.

وكنتُ أرجو من الرئيس أن يكون أول من يفرح بهذا الجهاز المُفتِّش الكاشف، جهاز المعارضة؛ لأنه يسعى معه إلى تنظيف الحكم، وإلى أن يكون النظام نظام طهارة وقدوة ووسيلة توجُّه إلى الأحسن والأكمل والأكثر تقدُّمًا وشرفًا.

الكلمة الثانية أُريد أن أوجهها إلى المعارضة.

لقد تتبعتُ كل عدد من كل جريدة معارضة صدرَت إلى الآن، وحضرتُ كثيرًا من الندوات التي قامت بها الأحزاب، ولي عدة ملاحظات أرجو أن يتَّسع صدر إخواننا المعارضين لها.

للآن لا تزال صحف المعارضة صحفَ إثارة مشاكل وقضايا ونقْدٍ لأشخاص في الحكم أو خارجه. والحزب المعارض لا يقوم لمجرَّد أن يَنقُد الحكومة في تصرفاتها أو رجال الحكم أو الأجهزة في مناصبهم وحتى في تصرفاتهم الشخصية.

هذا جانبٌ واحد من جوانب المعارضة، لعلَّه أتفه جانب.

أمَّا الجانب الأهم فهو أن الحزب المعارض يقومُ ليُعطي «رؤية» مختلفة عن رؤية الحكومة لحل مشاكل الشَّعب، رؤية مُتكامِلة منظرة، مدعومة بالإحصاءات والدراسات والأرقام؛ بحيث حين تقرؤها جماهير الشعب تَقتنِع بها وتُفضِّل برنامج ذلك الحزب عن البرنامج الذي تُنفِّذه الحكومة أو تتبناه. بهذه الطريقة، وبهذه الطريقة وحدها، يصل الحزب المعارض إلى الحكم بناءً على برنامجه وليس بناءً على أشخاصه، بناءً على ما يُقدِّمه من حلول لمشاكل شعبنا وليس بناءً على ما يكيله من نقد إلى الأجهزة الحاكمة الحالية؛ فالنقد مهما عَلا أو انخفض نقد، ولكن الأهم من النقد هو تقديم «المسطرة» التي يقيس بها الشعب تصرفات الحكومة، ويقول هو — الشعب — هذا خطأ وهذا صواب. بمعنى أن دور المعارضة أن تُعلِّم الشعب وسيلة أخرى لرؤية المشاكل وللتَّفكير في حلها.

ولقد كنتُ أفرح حين أقرأ في الأهالي مثلًا رؤيةً ناقدة خلاقة لمُشكلة التعليم في مصر، وكنت أفرح وأنا أقرأ في الوفد تاريخ الوفد مع الجامعة العربية ومع الوحدة

العربية، فهذه كلها أشياء طمَسها التاريخ. وأنا أفرح الآن بجريدة الأحرار؛ لأنها تُعيد فتح ملفات الجاسوسية الإسرائيلية تجاه مصر والبلاد العربية. وكذلك «الشَّعب»، هذه البحوث الاقتصادية التي كان قد بدأها عادل حسين، ومقالات أستاذنا الكبير فتحي رضوان التي تُوسِّع من آفاق المواطن المصري، بل وأحيانًا تخرج عن واقعنا لتُطلِعه على رؤية لعالَمنا العربي والإسلامي، جديدة أيضًا، ومعلِّمة، ومفيدة.

ولكن هذا كله لا يكفي. إن الأحزاب ليست جرائد ومقالات وأخبارًا مثيرة. الأحزاب أسلوب الشعب لحكم الشعب بواسطة برامج تتقدَّم بها الأحزاب وتُبرز بها برامج الحكم القادم، الأحزاب مدرسة يتعلم فيها الشعب كيف يزاول السياسة، وكيف يفكر سياسة، وكيف يَحكُم سياسيًّا وليس إثاريًّا أو تشنيعيًّا على عمل أو جريمة. الأحزاب هدفها باستمرار تحليل الحادث الفردي للوصول به إلى الظاهرة العامة، وبهذا يَرتفِع من حادث فردي إلى رؤية سياسية تُعلم الشعب كيف يرفع حتى مشاكله اليومية إلى المستوى السياسي الذي بدونه لا يكون ثمَّة حل.

ولست في مجال محاضَرة — عفوًا — أُلقيها على الأحزاب السياسية في مصر عن كيف تكون الأحزاب، ولكنَّها مجرد كلمة أقولها للمعارضة؛ لأن لي رؤيتي الخاصة للوضع في مصر، وهو أننا نمر بمرحلة في تاريخنا من أدقِّ المراحل وأحرجها، ونكاد نكون مَمسوكين من «زمارة رقبتنا»، وللخروج من هذا المأزق الوجودي الخطير، لا أجد مخرجًا آخر إلا بأن تضع المعارضة يدها في يد الرئيس مبارك. فالرجل إلى الآن، يَعتقِد أن الاستقرار، حتى ولو هناك بعض التجاوزات، هو الطريقة الوحيدة للخروج من المأزق، في حين أني أرى أن الاستقرار الحقيقي لا يتمُّ إلا باجتثاث جذور الفساد، وتغيير المُفسِدين، ليكون الاستقرار حينذاك على نظافة، وعند هذا فقط يلتئمُ الجرح، وتتمُّ شفاء أزمات واختناقات وجودنا.

أجل، لنضَع جميعًا يدَنا في يدِ الرئيس؛ فلقد قرأت مقالة أخيرة للأستاذ حسن دوح، وقد كان زعيم الجامعة ونحن طلبة، وكان من الإخوان المسلمين، وكنا نُزوِّغ من المحاضرات في كلية الطب ونعبر النيل لنذهب نستمع إلى خطبه في الجامعة وفي كلية الهندسة. هذا الزعيم السابق للطلبة الذي يقول عن نفسه إنه تجاوز الستين ولم يَعُد له من مطمح في الحياة لا منصب ولا جاه ولا طموحات فردية كثيرة أو صغيرة، كتب مقالًا دعا فيه إلى أن نلتفَّ حول مبارك؛ فالبديل عنه مخيف مخيف، وأنا مع الأستاذ دوح في هذا قلبًا وقالبًا.

وأعتقد أننا كلما التفَفْنا حوله — لا أقول إننا سنَكفُّ عن النقد ولا حتَّى عن الإثارة — ولكن سنأخذ ذلك الرئيس العفَّ اليد الوطني المُخلص إلى جانِبنا ضد الفساد والمُفسدين.

ليكن مبارك سلاحنا لمُقاوَمة الفساد وإخراجنا من عنق الزجاجة، ولن يحدث هذا إلا إذا أحسَّ وتأكَّد أننا معه ولَسْنا ضدَّه، وأننا كلنا في مركب واحد، إذا غرقَ غرقنا وإذا غرقنا غرق، وبهذا تطمئنُّ مِنَّا القلوب، قلبه وقلوبنا، ونتكاتَف معه من أجل إنقاذ أنفسنا؛ فنحن حقيقةً وصدقًا في خطر ماحق، والمخرَجُ صعب، وهو لا يُمكن أن يَحدث بمعزل عن تكاتُف حقيقي صلب بين عناصر المعارضة الوطنية الصادقة وبين ذلك الرئيس الذي أعتقد أنه لا يقلُّ صدقًا أو وطنيةً عن أيٍّ مِنَّا، كل الفارق أن يده هي التي في النار، وأن الضغوط عليه ثقيلة وخانقة ولا يجب أن نُضيف إلى ضغوطه ضغوطًا من عندنا، بل يجب أن نُوجِّه ضغوطنا إلى من يَضغطون عليه ومن يَنصِبون له الشراك ومن يودُّون التخلُّص منه ليخلوَ لهم جو التبعية والعمالة بل والخيانة.

لكي نعيش الحاضر لا بد أن نعرف المستقبل

كنت منذ عام أو أكثر كتبتُ سلسلةَ مقالاتٍ أُحاول أن أشخِّص فيها سر «عدم خلو البال المصري»، وكان الاستِنتاج الأكبر الذي وصلت إليه أن كثيرًا من الارتباكات السائدة في حياتنا، على المستوى العام، وعلى المستوى الفردي، على مستوى الحكومة، وعلى مُستوى المعارضة، يَكمن في تخوُّفنا أو بالأصح عدم تأكُّدنا من المستقبل، وقلتُ في تلك المقالات إن الإنسان كما أنه كائن له تاريخ وواعٍ بتاريخه هذا، فإن أحد خصائصه المهمَّة الخطيرة أنه كائن يعي أيضًا أنَّ له مُستقبلًا، بل إنه ليعيش الحاضر، ويعود يَستوحي التاريخ ويذاكره خدمةً للمُستقبل، لتحديد ذلك المستقبل ونوعه ودوره فيه، بل حتى إنه لا يَعيش الحاضر، لكل ما قد يَبدو أنه مجرد وجود في الحاضر، إلا من أجل التمكين لمستقبله.

بمعنى أنه لا يُمكن لأمَّة أن تُرتِّب حياتها على أساس وجودها اليوم فقط، وإنما كلها في الغالب تعمل لدنياها وكأنها ستعيش أبدًا، بينما هي تعمل وكأنها ستموت غدًا لآخرتها فقط وليست لدنياها.

ولقد أسعدني أنني لم أكن وحدي الذي فكَّرتُ وأُفكِّر في هذا كله؛ ففي حديث الأستاذ محمد حسنين هيكل لجريدة أخبار اليوم ذكَرَ ما سمَّاه المشروع القومي العام؛ بمعنى أننا صحيح لدينا تعدُّد أحزاب وحريات ديمقراطية لا بأس بها، ولكن الأمم لا تقوم بهذا، وإنما تقوم الأمم، حكومةً ومعارضةً وأحزابًا ومستقلين وجماهير عادية بهدف قومي عام تَسعى لتحقيقه ويُشكِّل بالنسبة لتفكيرها على المستوى الفردي والجماعي ما أسمَيتُه ب «المستقبل» والسعي لتَصوُّر وتأكيد العمل من أجل هذا المستقبل. إذا اتَّفقنا جميعًا على تصور واحد، وإن يكن مختلفًا في جزئياته وتكتيكاته وطرق الوصول إليه، إذا اتَّفَقنا على ما يُمكن أن

نصنعه بمُستقبَلنا «العام» وتبيَّنت لنا خطوطه ولو العريضة جِدًّا، لأمكَنَ لكل مِنَّا كفرد، ولكلٍّ حزب كحزب، ولكلٍّ جهاز كدولة، أن يطمئنَّ إلى أنه يَسير في طريق معروف سلفًا إلى أين يُؤدِّي، ونهايته أيضًا تكاد تكون معروفة.

وربما من أجل افتقارنا إلى هذا التصوُّر العام لُمستقبَلِنا، يرتبك حاضرنا ويشتد بنا الارتباك، ولا نَستطيع أن نُفرِّق بين ما هو تكتيكي وما هو إستراتيجي، بين ما هو مُلحٌّ وما يُمكن تأجيله. سؤالًا مشروعًا تمامًا؛ فنحن مثلًا كلنا نعرف أن علينا ديونًا، متى نُسدِّدها، وكيف، وهل يأتي اليوم الذي نتوقف فيه عن الاقتراض وعن الاعتماد على المعونات أم أنه لن يأتي أبدًا؟!

مشكلة الديون هذه جزئية واحدة من جزئيات رؤيتنا الشاملة إلى المستقبل، أو بالتعبير الهيكلي المشروع القومي العام.

ذلك لأنه توجد جزئيات أخرى كثيرة جِدًّا؛ فجانب المشاريع الكبرى والطرق والكباري والخدمات، وهي كلها موجَّهة لخدمة المصريين الذين يَحيون اليوم أو على الأكثر في الغد القريب، ولكن مصر كدولة ستَحيا ربما للآلاف من السنين المقبلة، فلنتواضع ولنَقُل على الأقل للمائة عام المقبلة، فهل ما تقوم به من خدمات الآن، وهي جليلة ما في ذلك شك، كافٍ لكي نرى من خلاله مستقبل مصر، أي مستقبل أولادنا وأحفادنا وكيف يكون.

إني هنا أؤكد أن كل مشاريع الخدمات في مصر — مهما بلغت ضخامتها — لا يمكن أن تُطمِئنَ المواطن أو الحزب أو الجهاز على مستقبلنا؛ فهي مشاريع لخدمة الحاضر، ونحن لا يُمكن أن نبني الحاضر على أسس سليمة إلا إذا كُنَّا نرى المستقبل بوضوحٍ تامٍّ، أو على الأقل بشبه وضوح.

ونفعل هذا رغم أن كل الأحداث، خاصة الأخيرة منها، تهيب بنا أن قد آن الأوان ليجتمع شمل المصريين حول رؤية للمستقبل، وكيف يكون؛ إذ بدون هذا سوف نظل نتخبط، ونحيا يومًا بيوم، و«طقَّة» بـ «طقَّة»، وتظل أفعالنا ليست مبنية على خطة كبرى نُنفذها على خطوات، وإنما مجرد ردود أفعال، إمَّا أن نُحاول اتهام الآخرين بأنهم وراءها وإمَّا أن نحاول تجاهلها، وإمَّا أن ننشغل في مشكلة فرعية تُصبح وكأنها مشكلة الساعة، ونفعل هذا حكومة ومعارضة.

ولأضرب مثلًا:

في الأسبوعين الماضيين ناقش مجلس الشعب استجوابًا قدمه الأستاذ يس سراج الدين عن «هبوط» مستوى برامج التليفزيون، وعن حكاية القناة الثالثة، وعن غياب المُعارَضة عن الشاشة الصغيرة وميكرفون الإذاعة.

ولسوء الحظ قُدم الاستجواب والمعركة مستمرة بين المعارضة والشارع المصري من جهة وبين مصداقية بعض الأجهزة الحكومية والإعلامية من جهة أخرى. وكان حريًّا بدلًا من أن نظلَّ لمدة يومين كاملين نستمع إلى آراء ما أنزل الله بها من سلطان حول القناة الثالثة وماهية المواد التي تُقدَّم فيها، وحول وصول نجوم المعارَضة إلى الشاشة الصغيرة أو حتى الكبيرة، كان حريًّا أن يتحوَّل مجلس الشعب إلى قاعة لا حزب أغلبية فيها ولا مُعارَضة، وإنما إلى مؤتمر وطني كبير تناقش فيه فلسفة إعلامِنا بالدرجة الأولى.

فوزارة الإعلام منذ أن تولَّاها المرحوم صلاح سالم في أول الثورة إلى أن تولاها الوزير صفوت الشريف، ومرَّ عليها الدكتور عبد القادر حاتم والمرحوم جمال العطيفي والأستاذ محمد فائق والأستاذ محمد حسن الزيات، جميعًا وإلى الآن، يُنفِّذون فلسفة إعلامية واحدة، تلكَ التي تَمنح أو تَمنع الأخبار حسب ما تراه الدولة ومصلحتها، وحسب ما يَشتمُّون من اتجاهات رئيس الدولة، ابتداءً من الرئيس جمال عبد الناصر إلى الرئيس حسني مبارك.

حدثت تغيُّرات كبيرة في الأربعة والثلاثين عامًا الماضية، ولكن بقيت فلسفة الإعلام المصري كما هي لم تتغير، لا لعيبٍ في هذا الوزير أو ذاك، ولا لأن هذا أكثر تبحُّرًا في العلوم الإعلامية من ذاك، وإنما لأن التوجيه واحد والتوجُّه واحد.

وكان حريًّا بنا، وبالذات منذ أن تولى الرئيس مبارك الحكم، وأصبح تعدُّد الأحزاب واقعًا ملموسًا، وأصبحت صحف المعارضة تنشر كل ما يعنُّ لها وما لا تستطيع حتى أن تُذيعه المحطات الأجنبية، كان حريًّا بنا أن نبدأ نُفكر في فلسفة جديدة للإعلام القومي «أو الحكومي إن شئت»، فلسفة جديدة لأن الخبر الذي لا يُذيعه التليفزيون أو تنشره «الصحف القومية» تنشره صحف المعارضة بأعرض بُنطِ ويحتلُّ مساحة من اهتمام الرأي العام أكثر بكثير مما لو كانت الصحف القومية قد نشرته بكل الحقيقة والموضوعية؛ ذلك لأن الرأي العام يتصوَّر أن مجرد عدم نشره في الجريدة القومية معناه أو وراء هذا «التعتيم» الإعلامي ما وراءه، وأن الحقيقة أدهى وأمر، في حين أن من المُمكن ألا يكون هذا هو الوضع.

ولكنها «الفلسفة» التي تعتبر أن نشر أي خبر فيه مساس بأي جهاز من أجهزة الدولة خطيئة كبرى، تلك الفلسفة التي تؤدِّي بالدولة نفسها إلى أن تَركب رأسها ولا تستجيب لضغط الجماهير و«تُغيِّر»، أو توقف الموظَّف المتهم أو تأمُر بتكوين لجنة لتقصي الحقائق في قضايا أصبحَت محل شك عام. وكأنها تتصرف باستمرار على أنها حكومة متهمة وعلى أن الاتهام حقيقي ومن واجبها أن تتستَّر عليه. في حين أن حكومة كالحكومة المصرية مترامية الأطراف، فيها الفاسد وفيها الشريف النظيف، فيها المُرتشي وفيها الذي يترفَّع عن

أي هوى، ومن المحال أن يكون كل موظفيها أو كل أجهزتها يقوم عليها ملائكة لا يُخطئون ولا يقترفون أي إثم.

كان مفروضًا أن تتحوَّل قاعة مجلس الشعب، لا إلى مباراة «براديفير» بين المعارضة والحكومة، ولكن إلى مؤتمر قومي عام، يناقش بهدوء شديد وبكلمات مُعَدَّة، وبمعلومات «فلسفة» الإعلام الذي تُسيطِر عليه الدولة سواء كان إذاعة أم صحافة أم تليفزيونًا تجاه أوضاعنا الجديدة في ظل التعدُّد الحزبي والإعلامي؛ فالخطأ ليس خطأ الفلسفة التي قام بها وعليها الجهاز، والذي تغيرت العصور وتراكمت الطبقات الجيولوجية بعضها فوق بعض من حكم اشتراكي شامل، إلى منابر، إلى حزبية وتعدُّد، من مصر كلها قطاع عام، إلى مصر وقد أصبح قطاعها الخاص هو الغالب، من مصر لا تَستورد وإنما تنتج من الإبرة إلى الصاروخ إلى مصر تستورد الإبر والمسامير وتستعير من أمريكا الصواريخ. أيُمكِن أن يحدث هذا كله ويظلَّ الإعلام هو الإعلام، وتظل فلسفته هي نفس الفلسفة؟!

مستحيل.

ولا يزال الأمر أيضًا مستحيلًا.

فلا بد من تغيير فلسفة إعلامنا لتتلاءَم مع أوضاعنا الجديدة ويُصبح الوزير أو المسئول الذي يخرج عن تلك الفلسفة هو المخطئ وهو الواجب محاسبتُه، أمَّا الآن فالحساب لا بد أن يكون للفلسفة التي يحكم على أساسها الوزير والتقاليد التي جرَت عليها أجهزة الإعلام منذ قيام الوزارة الأولى إلى الآن.

هذه الفلسفة الإعلامية الجديدة لا يُمكن أن تتشكَّل هي الأخرى وتتبلور إلا في ظل رؤية واضحة للمستقبل، أو هدف عظيم نَحلُم به للمستقبل أو للمشروع القومي العام؛ إذ إن تحديد ذلك الهدف، وتحديد إلى أين نحن سائرون، سيُحدِّد لنا بالضرورة والتأكيد كيف نسير الآن وكيف نَمضي، ليس فقط في أجهزة إعلامنا، ولكن في قطاعنا العام، في تسليحنا، في ديونِنا وكيف نُسدِّدها أو كيف نشترك مع الآخرين المديونين، وتكون — على غرار دول عدم الانحياز — ما أسميتُه في مفكرة سابقة منظمة الدول المديونية أو اختصارًا «م. د. م».

أخذنا مثلًا من الإعلام، والآن نأخذ مثلًا آخر، ويا له من مثل عجيب. فبعيدًا عن الأمثلة الحسَّاسة الأخرى التي تساقطَت فوق رءوسنا طوال الأشهر الثلاثة الماضية، لنأخذ مثلًا قريبًا جِدًّا؛ حكاية الصيادلة والصيدليات.

كانت مصلحة الضرائب تُحاسب الصيادلة بخصم ٢٪ من ثمن الدواء من المنبع، والمنبع كان كله — إلا فيما ندر — شركات قطاع عام تُنتج الأدوية وشركات استثمار مشتركة، وكانت جميع تلك الشركات تُورد ما تحصل عليه من ضرائب إلى وزارة الخزانة.

ظل هذا يحدث منذ سنة ١٩٧١ إلى هذا العام، حين فجأة قرَّر الدكتور صلاح حامد إلغاء هذا النظام، واتِّباع نظام مأموري الضرائب الذين يَذهبون لكل صيدلية ويُفتِّشون على مبيعاتها ويُقدِّرون — جزافًا بالطبع — فليس معقولًا أن يُرابط في كل أجزخانة مأمور ضرائب ليل نهار لحصْر ما تبيعه الصيدلية مِن أدوية، وما ينتج عن هذا البيع من أرباح. يَعني أوَّلًا هو نظام غير قابل للتنفيذ العملي إلا لو عيَّنَّا مائة ألف مأمور ضرائب خصيصًا للأجزخانات.

وثانيًا: ليس من المعقول أن يظلَّ نظامٌ ساريًا لمدة خمسة عشر عامًا ثم يعنُّ لوزير المالية أن يُصدر قرارًا يُغيِّر به النظام فجأة فيربك الدنيا كلها، وأول ما يربك هم الصيادلة المرتبكين بهذه الكارثة التي تتهدَّدهم بالتقدير الجزافي، يَجتمعون ويُقرِّرون العمل ثماني ساعات فقط في اليوم وإغلاق الصيدليات من الساعة السادسة مساء، بينما عيادات الأطباء تبدأ عملها في السادسة مساءً، وكل مريض يخرج من عند الطبيب بروشتة يريد صرفها فإذا بالأجزخانات كلها مغقلة، والمفتوح فقط هو الأجزخانات الليلية، وهي الأخرى فارغة تقريبًا من كل الأدوية الهامة التي يحتاجها المريض خاصةً في الحالات الحادة.

وفي مدينة كالقاهرة، مقدارها عشرة ملايين نسمة، لا تَفتح فيها ليلًا إلا أقل من سبع أجزاخانات مُتباعِدة تباعُد الزهرة عن المُشترِي.

أبعدَ هذا ارتباك في التخطيط والتنفيذ؟

ألا يدل هذا على أن الوزراء مشغولو البال بطريقة لا تُتيح لهم التفكير العلمي لحل المشاكل.

أنا أفهم أن يعتقد وزير المالية أن التقديرات الحالية للضرائب على الأدوية غير كافية، وأنه لا بد من رَفعِها، وهذا حقه. ولكن الذي ليس من حقه أبدًا هو أن يصدر قرارًا من جانبه وحده بهذا النظام. كان لا بد من دراسة الموضوع من جميع نواحيه والاتفاق مع نقابة الصيادلة وإيجاد حل عادل للمشكلة.

أمَّا هذه القرارات غير المدروسة، فقد أدَّت إلى مأساة لم يكن ضحيَّتها الوزير ولا الصيدلي، ولكن كان ضحيَّتها آلاف المرضى المساكين الذين يَجوبون القاهرة من أقصاها إلى أقصاها بحثًا عن دواءِ ربو ناقص أو دواء مسكِّن لمغْصٍ مُروِّع، وأغلبهم من الفقراء الذين لا يملكون ما يستطيعون أن يَدخُلوا به مستشفى من مُستشفيات الانفتاح وقضاء ليلة تُكلِّفهم فوق المائة جنيه من أجل الحصول على الدواء. أمَّا مسألة صيدليات المستشفيات العامة الحكومية، فقلبي مع الصديق الكبير الدكتور حلمي الحديدي، الذي وجد نفسه

— هو المسئول عن صحَّة الشعب ودوائه — بين مطرقة الدكتور صلاح حامد وسِندان إخواننا الصيادلة الذين فاجأَتهم مطرقته ولم يكن أمامهم من خيار إلا بأن يَستغيثوا بالرأي العام، ويا لها من استغاثة ضحيَّتُها هم المرضى المساكين.

موضوع الضرائب هذا سواء على الصيادلة أو الأطباء، أو المحامين أو غيرهم، ذلك الموضوع الذي يصرخ منه الجميع ما عدا تجار المخدِّرات الذين يربحون الملايين والذين تكفَّلت الدولة بمساعدتهم بمنع الصيدليات من صرف المُهدِّئات حتى تَدفعهم دفعًا إلى الأفيون والحشيش والمشروبات.

مواضيع خطيرة جِدًّا كهذه تتعلَّق بصحة المواطنين، ومدى الترابط القومي بين فئات الشعب ومدى رِضى الشعب عن حكومته وحكمه، تُتَّخذ فيها القرارات هكذا عشوائية، كالقرارات الاقتصادية، مع أنها كلُّها لا بد أن تدخل في صميم رؤية الحاضر على ضوء المستقبل، ورؤية المستقبل على ضوء الحاضر، والتجهيز للحاضر والمستقبل بدراسات سريعة عاجلة تأخذ في الاعتبار كافة الأطراف وتتبين كافة المحاذير.

وإذا كانت القرارات الاقتصادية العشوائية قد أضرَّت ببعض تجار العملة وبعض ملاك الدولار.

فالقرارات الضريبية العشوائية تضرُّ ملايين المواطنين الفقراء الذين يئنُّون حتى مطلع الصباح.

إني أرجو من الصديق الكبير الدكتور حلمي الحديدي أن يُسارع فورًا إلى التوسُّط بين نقابة الصيادلة ووزير المالية لإنهاء هذا الوضع الذي تجأر منه الجماهير. لقد رأيتُ بعيني أكثر من مائة وخمسين مريضًا أمام صيدلية الإسعاف وحدها، وبعضهم في حالة من الإعياء لا يُمكن أن يتحمَّل الإنسان أن يرى حيوانًا يعاني منها.

أرجو أن يَفصل هذا ويفضَّ المشكلة؛ فالموضوع أخطر بكثير مما يتصوَّر الجالسون على كراسي الوزراء، والشعب قد بلغ به التعب الزبى، فلا تتركون له حتى حق الدواء؟!

غير أن الحديث عن المستقبل لم ينته بعد، فهو موضوع حياتنا اليوم وغدًا، حياتنا أو موتنا.

المساحة الحرجة

ظللتُ لا أعرف لماذا كنتُ من صغري أحبُّ التجمُّعات البشرية، كحُبي للأشخاص الأفراد، وأعشق وجودي بينها وإحساسي بها، في الأفراح، والموالد، والأعياد، وحتى في المآتم والجنازات والقهاوي، أحب أن أكون واحدًا من كلٍّ كبير، حلوَ الروح، المرح فيه بحر، أو بحيرة مقدسة كبيرة، ينعم الجميع بالاستحمام فيها؛ إذ هو مرح «عام» وليس مرحًا فرديًّا خاصًّا محدود الأثر.

ظللت لا أعرف لماذا كنتُ، إلى عهد قريب، أحب تلك التجمعات، والآن أصبحت أضيق بها، إلى أن وجدتُ الإجابة في مهرجان جرش.

والحقيقة أني كنت قد سمعت عن المهرجان كثيرًا، وقرأتُ الكثير مما كُتب عنه، ولكني لا أعرف لماذا أيضًا أصبحتُ أشك في كل مدح مبالغ فيه على صفحات جرائدنا العربية، أشم دائمًا رائحة شيء ما ورائه، ولم أكن أتصور أنه سيُقدَّر لي أن أرى المهرجان رأي العين، ولكن هذا ما حدث. فلقد تلقيت دعوة ملحَّة خاصة من الأستاذ محمد الخطيب وزير الإعلام والثقافة الأردني لحضور المهرجان، وكنتُ قد زرتُ الأردن في العام الماضي، زيارة خاطفة، لحضور المؤتمر الوطني الفلسطيني، وكانت تلك أول مرة أرى فيها هذا البلد العربي، ورغم أنَّنا كُنَّا مقيمين في منطقة الفنادق في عمان مُحاطين بالأسلاك الشائكة والحرس المدجَّج حتى داخل الفنادق، تحوُّطًا من أيِّ محاولات إرهابية، رغم هذا، إلا أن اللَّمحة الخاطفة التي رمقت بها الأردن جعلتْني أُلبِّي الدعوة، فأنا أريد مما رأيته وشاهدته أن أعرف عن هذا البلد الشقيق أكثر وأكثر؛ إذ في الحقيقة تلك اللمحة كانت قد بهرَتني تمامًا إذ لم أكن أتصوَّر الأردن هكذا أبدًا، أو بالأصح ما صارت إليه الأردن.

المهم …

كانت المفاجأة الكُبرى بالنسبة لي حين قابلنا وزير الثقافة والإعلام الأردني في المطار أن أجده هو بنفسه، الصديق القديم محمد الخطيب، رفيق أيام الرعب في الجزائر، حين ذهبتُ مع مجموعة من الصحفيين المصريين لتغطية أخبار الخلاف الخطير الذي نشأ بين مجموعة بن خدة ومجموعة بن بيللا عشية حصول الجزائر على استقلالها. كان الأستاذ محمد الخطيب معنا، مندوبًا عن وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية التي كان يعمل بها آنذاك، ومعًا، وبصحبة الزملاء حمدي فؤاد عن الأهرام، وفوميل لبيب عن دار الهلال، ومحمد العزبي عن الجمهورية، ورشاد أدهم عن صوت العرب (بطل الساحة في ذلك الوقت) — حوالي عام ١٩٦٢م — عِشنا أيَّامًا من الهول والإفلاس والخطورة لا تُنسى؛ ذلك أننا وصلنا بلدًا لا دولة فيه، وليس فيه حكومة ولا شرطة، ولا قانون بالمرة؛ إذ كان الصراع حول من يحكم وكيف يحكم قد ترَكَ البلد فارغًا تمامًا، وكان الفرنسيون الذين كانوا يُمسكون بكل شيء، قد فعلوا، مثلما فعل مرشدو القناة بعد تأميمها، وتركوا الجزائر كلهم فجأة وعادوا إلى فرنسا، حتى إن التليفونات نفسها كانت لا تجد من يُحصِّل ثمن مُكالماتها، وأذكر أني كنتُ أفتح الخط على جريدة الجمهورية وأُملي صفحة كاملة من الجريدة حديثًا كان أو تحليلًا قد يستغرق إملاؤه ساعتَين دون أن أجد من يُحاسبني، وكذلك كان يفعل الزملاء.

وكم من نوادر وحكايات حدثت خلال الأربعين يومًا التي أمضيناها هناك، تقريبًا بلا أي نقود معنا؛ إذ كانت التحويلات أيضًا مشلولة، ولولا أننا كُنَّا نأكل مع سفيرنا علي خشبة — واحد من أعظم سفرائنا في الخارج — ذلك الذي كان ذاهبًا في مهمَّة قتالية، مصحوبًا بـ «بودي جاردز»، لولا أننا كُنَّا نأكل عنده ومعه ويُقرضنا مصروف جيب، لهلكنا جوعًا، وقد تقطَّعت بنا كل سبل الاتصال بمصر.

فوجئت بالوزير محمد الخطيب هو نفسه محمد الخطيب زميلنا في رحلة الهول، وفوجئت به يُذكِّرني بأشياء حدثت في تلك الرحلة لا يتَّسع المجال لذكرها هنا، رغم مدلولاتها الخطيرة؛ إذ كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أُزاول فيها عملًا صحفيًّا حقيقيًّا، وكما يقولون «أُغطي» أخبارًا وأحداثًا وأدخل في منافسات ومسابقات.

وفرحت للمفاجأة حقًّا، فما كنت أبدًا أتوقعها، ثلاثة وعشرون عامًا جعلت من المراسل الشاب لوكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية، رئيسًا لوكالة أنباء الأردن (باترا) ثم وزيرًا. يا له من مشوار!

والغريب في الأمر أن الوزير اعترَفَ لي بكل أمانة أنه تسلَّم وزارة الإعلام والثقافة والسياحة حديثًا — حين كنتُ في أمريكا — على إثر استقالة الوزيرة ذات الموقف؛ السيدة ليلى شرف، وأنها هي، ولَجْنة المهرجان العليا — التي ترأسها الملكة — التي قامت بتنظيم كل كبيرة وصغيرة من شئون المهرجان وبرامجه.

وهكذا وجدتُ نفسي «مُضطرًّا» لمشاهدة المهرجان؛ ذلك أني في الحقيقة كنت ذاهبًا لرؤية الأردن نفسها، وليس لحضور أفراح ومهرجانات، ولكني أشكر الظروف التي «اضطرتني» لحضور المهرجان، وأشكر الوزير الصديق على دعوتي؛ فبعد حفلة الافتتاح الرسمية التي قام بها جلالة الملك حسين والملكة نور، والتي استغربتُ فيها لأن الملك والملكة قد وقَفا أكثر من ثلاثة أرباع الساعة والوفود والفِرَق المشتركة في المهرجان تمرُّ أمامهما، وهكذا اضطر المدعوون — وأنا بالطبع منهم — إلى الوقوف على أقدامهم طوال ذلك الوقت. إنَّ الملك يريد أن يُحيِّي الفن والفنانين تحية احترام عميق لماهية الفن والثقافة حتى — وبالذات — لو كانت ثقافة شعبية أو تلقائية، أعجبتني اللفتة تمامًا.

وبدأت ليالي المهرجان …

وفجأة وجدت الطفل الذي فيَّ يستيقظ و«يتفرج» و«يشارك»، الطفل الذي كان يسهر في ليالي المولد ويُساهم في حلقات الذكر وينبهر بمن يبتلعون النار ويدخلون السيوف في بطنهم، الطفل الذي كان يتصوَّر الغوازي وهنَّ يرقصن ويغنين كائنات خرافية كأنهنَّ جان ولسْنَ بشرًا، اللفُّ والفرجة والضحكة والخفقة والأنوار، حتى ولو كانت بكلوبات، تَخلب الألباب، الطفل في مولد الحسين والسيدة والشيخ الشبراوي، الطفل في التيفولي في الدانمارك حتى لو كان قد أصبح في الثلاثين وهو يَركب القطارات المندفعة، والصواريخ المنطلقة في دائرة لعنان السماء، الطفل ولو كان في الأربعين والخمسين في «ديزني لاند» يَخلع عنه فجأة كل الأقنعة الناضجة المجعَّدة الكئيبة، ويرتدُّ نقيًّا كالبللور، صافيًا كجدول حياة خالية رقراقة، الطفل الذي يحب الجموع كما يحب الوجوه الجميلة، الذي يحب أن يسمع، بل ويشارك ولو بصوت خافت، في الأغاني والموسيقى.

وجدتُ هذا الطفل يَنفض عن نفسه الملابس الشتوية الكبيرة الثقيلة، ويَنزع عنه كل أغطيته ويكاد مع الفرحة يطير، ومع الدقة يَرقص، ومع كل شيء وكل حدث يتوقف، ويستمتع ويُحب.

ذلك الطفل الذي كان قد خُيِّل إليَّ أنه انتهى من زمن ومات لأنه كبر ونضج وتضخم عقله بطريقة ابتلعت بها كل تلقائيته، واندفاعه، وفرحته المستمرة بالحياة، وجدته يعود!

ولكن العقل أيضًا وجدته، ويا للدهشة مع التلقائية والفُرجة والطفولة يستيقظ، بل ولأول مرة يجد «مُتعة» في التفكير والتأمل.

وجاءت الفكرة هادرةً كالمياه المندفعة من السد العالي.

إننا في مصر لا بد أن نصنع شيئًا يُعيد لنا حُبَّنا للحياة.

إنني أمُر في قاهرتنا الحبيبة في الشارع أو في السيارة فأجد ملامحنا منقبضة، حتى ملامح الشبان والفتَيات قاسية تعاني من الضيق.

ذلك أننا وكأنما استيقظنا ذات صباح فوجدنا أنفسنا قد وُضعنا في مأزق حياة، ووجود لا أعتقد أن شعبًا قبلنا ولا شعبًا بعدنا سيوضع فيه؛ ذلك أننا استيقظنا لنجد أننا تضاعَفْنا في فترة لا تزيد عن الربع قرن أربع مرات، في بلاد ورقعة زراعية ومأهولة لا تتَّسع إلا بالكثير لاثني عشر مليون إنسان، أصبح فيها الآن ربما أكثر من خمسين مليونًا من السكان.

هذه المرة ليسَت المشكلة مشكلة فقر وغِنى، مشكلة طبقية أو سياسية، ولكنها مشكلة لم تخطر لآدم سميث مفكر الرأسمالية أو كارل ماركس مفكر الاشتراكية على بال، مشكلة وجود بشري مكثف تكثيفًا هائلًا بحيث يجعل من نفس ذلك الوجود جحيمًا بشريًّا لا يُطاق. إن الإنسان إنسان لأنه «نوع» والنبات والحشرات هكذا لأنها «كم»، والإنسان أبدًا لا يستطيع أن يحيا، بل أن يَسعد ويُزاول كل وظائفه العليا كإنسان إلا وهو يحيا كنوع إنساني، والنوع الإنساني أحد مُتطلباته ليس الطعام فقط أو الأوكسيجين، ولكن «المساحة» أو بالأدق الحد الأدنى من المساحة اللازمة لحركة وتنفُّس ووجود الكائن البشري الحي. وأعتقد أن علماء الجغرافيا البشرية والعلوم الاجتماعية لا بد يُدركون أن هناك «مساحة حرجة» لازمة لوجود كل إنسان على حِدَة ليتكوَّن مجتمع ما، فإذا تضخم العدد بحيث تجاوز هذه المساحة الحرجة، ووصل إلى مرحلة من التلاصُق والتكثُّف غير بشرية بالمرة، لا بد أن تحدث لهذا الكائن البشري تغيرات وأمزجة واتجاهات وتطرُّفات وأنواع من الخبل والهوس والجنون الخفي، على المستوى الفردي والجماعي، لم يعرفها الناس من قبل.

وذلك هو المأزق البشري الخطير الذي نحن عليه الآن.

لأمر ما عنَّ للعقلية الجماعية المصرية أن تتكاثَر وتتكثَّف، دفاعًا مغلوطًا عن النفس ربما، سرطانًا جماعيًّا ربما، جشعًا لحياةٍ لا متعة فيها إلا الطعام والجنس ربما، لا أعرف، والغريب أن أحدًا من علمائنا لا يعرف أيضًا، بل لم تُحاول جامعاتنا أن تدرس هذه الظاهرة، وفيما عدا ذلك الكتاب العظيم الذي كتبه الدكتور جمال حمدان والذي اصطحبتُ

جزءه الرابع الخاص بالسكَّان في مصر معي في رحلة سابقة، وهي دراسة رغم تفرُّده وعبقريتها، إلا أن جمال حمدان يقف أيضًا وهو العالم الفذُّ الكبير، يتساءل حائرًا عن سرِّ هذا الانفجار البشري المصري.

أمَّا السر فنَتركه لبحث علمائنا، إن أتاح لهم ازدحامهم هم الآخرين أن يَبحثوا، أمَّا نتائج هذا الانفجار وما يَفعله فينا وبنا، فتلك أمور لا بد أن نعي بها تمامًا وإلا هلكنا. أجل، أقولها بملء صوتي هلكنا؛ فكثير، بل أقول: معظم ما نشكو منه، مرجعه إلى هذا التضخم السرطاني الهائل في عدد السكان والأفواه، ولولا أننا شعب عريق الحضارة تُشكِّل المادة الحضارية جزءًا أساسيًّا من تكوين أبسط فلَّاحيه وأميِّيه، لكانت قد حدثت لنا أهوال وأهوال. إن معظم الدعاوى والغوغائية السطحية والسلوك الغريب في مدرَّجات الكرة، وحفلات الغناء، والشارع، والنادي، ووسائل المواصلات، كلها راجعة إلى «التلاصُق» الجسدي الذي تعدَّى المسافة الحركة واعتدى على التفرُّد البشري الواجب ليكون الإنسان أو الإنسانة بشرًا سويًّا، وفي مثل ذلك الجو غير العاقل وغير البشري، فأي دعوى حتى لو كانت ضدنا ستجد الاستجابة؛ فالناس من فرط ازدحامها أصبحت تَكره بعضها لله في لله، وتكره وجودَها معًا، وقد ضاق ذلك الوجود إلى حد الاختناق، تتوق إلى مكان أو فرصة تُزاول فيه تفرُّدها وإنسانيتها ونوعيتها البشرية فلا تجد.

أقول نترك دراسة الظاهرة أسبابها وملامحها، وماذا يمكن أن تفعله لنخرج من هذا المأزق الخطير تمامًا، للعلماء وللمُتخصِّصين ونعود للمهرجان.

هنا الازدحام أيضًا موجود، هذا حقيقي، ولكنه ازدحام إنساني وليس تكدُّسًا بشريًّا، البنات والأولاد والأطفال والجدات والرجال والشباب والشابات، خمسة عشر ألفًا أو يَزيدُون، كل ليلة تزدحم بهم ساحة تقلُّ كثيرًا عن ساحة ملعب كرة، ولكن أحدًا لا يصطدم بأحد، وشابًّا لا يعاكس أبدًا فتاة، والأطفال أطفال فعلًا وليسوا شياطين صغارًا، والعُروض كثيرة ومتنوعة، من أربعين دولة وحوالَي مائة وأربعين عرضًا من ليالي المهرجان العشرين، وما أروع لحظة اللقاء بين الفن والناس وبين الناس والفن، ما أروع لحظة التفرُّج والتمسرُح التي أصررتُ عليها في نظريتي المسرحية، هنا الناس جزء من الفُرجة والممثلون والموسيقيون والراقصون جزء من الجمهور، والجميع في حالة عظيمة من النشوة، هنا الجميع أطفالٌ إلى درجة البراءة المحضة، وكبار إلى درجة التصرف المُتحضِّر غير المندفع أو المجنون، هنا الجميع في ساحة واحدة ومُزدحمون، ولكن بقيَ لكلٍّ منهم الحد الدنى من

المسافة والمساحة الواجبة أن تتوافَر للإنسان طفلًا كان أو شيخًا ليتنفَّس ويحيا، ويتحرَّك، ويُحب، وينفعل، وينبهر. المزمار الصعيدي والطبلة بجوار الفرقة القومية للفنون الشعبية بجوار الفرقة الأمريكية والباليه الإنجليزي وفرقة الرقص الروسي، والأنوار ساطعة والتِّلال المحيطة بالوادي تَحفل بالنور، النور الصادر حتى من كل عينَين متطلعتَين، هنا الحياة تبدو جميلة جِدًّا جديرة بأن تحيا، والبشر يبدون جميلين جِدًّا جديرين بالحياة وبالفن وبالحب وبالحرية وبالاستقلال وبكل ما يجعل الإنسان إنسانًا، بل وحتى سوبر مان.

والسبب!

أنَّ عدد الناس هنا إذا قُورنوا بمساحة الأرض المأهولة معقول تمامًا، هنا الشارع عريض فسيح جديد وليس حارةً أصبحت تتكدس بالبشر والعربات والخناقات، هنا أُطلق سراح الإنسان ليتحرَّك، فنحن في القاهرة سجناء شوارعنا وبيوتنا ونوادينا، ووسائل مواصلاتنا وانتقالاتنا، سجناء فعلًا لا قولًا، سجناء لأننا لا نستطيع الحركة كما نريد، فنتكدَّس وندبُّها فولًا وطعميةً، وبلا حركة نتْخَن ونتْخَن، ولا رياضة فردية ولا جماعية ولا مكان للسير أو التمشي، بَشَر بَشَر بَشَر، طوفان من البشر، ضللتُ مرة طريقي ودخلت حيًّا لا أعرفه، كدت أُصاب بالذعر من العدد المُخيف من الناس المزدحمين في شارع واحد من حي واحد من مدينة واحدة من مدننا، يا إلهي! ماذا حدث وماذا نفعل، فنحن بهذه الطريقة، وبهذا الكم، لا نحيا، ولا نفرح، ولا نبتهج، ولا نحتفل، ولا نقيم مهرجانات إنسانية حلوة، ولا نفعل إلا أن نستلقي أمام التليفزيون مُستسلِمين لمُتعة سلبية تمامًا، نتفرج على إلكترونات ترسم صورًا وقصصًا، بينما الحياة الحقة هي ما «يُزاولها» الإنسان وليس ما «يتفرَّج» عليها، وكان ازدحامنا وصل إلى درجة التوقُّف أن نحيا، بل حتى أن نُوجد، فوجودك دائمًا مجروح ومُقتحم بوجود لصيق آخر لا تَملِك له دفعًا.

محروسة أنت يا مصر هذا صحيح، ولكن شعبك يَخنُقُك ويختنق بك، وحتى دعاواه مهما تسربلت بثوب من العلم أو الدين فهي دعاوى اختناق بشري وازدحام وجود، وما هكذا تكون الدعاوى أو توجد؛ فالدعاوى يُطلقها البشر لبشر، فإذا كان الطالِقون يَحيون في علبة تونة، فإنها دعاوى اختناق يُرسلونها لمختنقين.

إني مُتأكِّد أن مصر ستَجتاز تلك الأزمة، لا أعرف كيف، ولكني أعرف أن هذا الشعب المجيد قد مرَّ بأزمات وجود طاحنة، مجاعات أكل فيها ما لا يُؤكَل، حتى بعضه أكل بعضَه، وولاة كانوا في أحيان جزارين، واحتلالات مُتعاقِبة لم يرَ مثلها شعب.

أعرف أننا سنَجتاز هذه الأزمة بكل تأكيد، ولكني أصبحت في شك أن يتمَّ لنا هذا الاجتياز في أعمارنا نحن، أو عمري على الأقل، وليس هذا تشاؤمًا، إنه عين التفاؤل، فحتى السرطان الخلوي نفسه قد أصبح يُشفى ويُمكن علاجه، فما بالك بما هو أخف، أخف لأن في أيدينا شفاءه، ولو كنتُ من حكومتنا لعقدت فورًا مؤتمرًا عاجلًا أجمع له أعظم العلماء والمفكِّرين والمتخصصين ويكون له موضوع واحد فقط.

كيف تُحلُّ مشاكل ازدحامنا الوجودي ووجودنا المزدحم بطريقة تُعيد لكل مواطن مِنَّا إنسانيته؟!

حتى نعود نفرح ونبتهج ونُقيم أحلى المهرجانات.

الأب الغائب

منذ مدة، وحين بدأنا نقرأ عن الحوادث الغريبة التي بدأت تَحدثُ في مجتمعنا وتجمُّعاتنا. أب يَقتُل ابنه، أُم تقتل ابنها وزوجها بالتعاون مع ابنتها، ابن مثقف يقتل أباه وأمه رميًا بالرصاص بزعم الإشفاق عليهما من الحياة السيئة التي تَنتظرهما وتنتظره.

وقد كان من السهل على كل مِنَّا أن يمسك بكل حادث على حدة، ويُحلله ويصل في تحليلاته إلى ما شاء له الله.

فمِن قائل إنها تقاليد الغرب «الملعونة» التي أخذت تتسرب إلى مجتمعاتنا عبر المسلسلات وشاشات السينما والتليفزيون. ومن قائل إنها الدخول في العصر الصناعي وضريبته المفروضة علينا، شئنا أم أبينا، ضريبة التقدُّم. ومن قائل إنها حالات — والحمد لله — فردية، نتيجة ظروف كل أسرة على حدة وكل تربية على حدة.

وكنت على مهل، كأنما يجتر الجمل ما احتواه داخل معدتِه من مواد، أُحاول أن أهضم هذه الأفكار كلها محاولًا أن أعثر لها على جواب، أو أدرك إذا كان أحد الأجوبة السابقة هو الجواب الشافي.

ولكني لم أستطع!

فلم يَستَطِع أيٌّ من الأجوبة السابقة أن يشفيَ غليلي؛ ذلك أنه إذا كان الأمر أمر تربية فردية في ذلك البيت أو ذاك، فكثرة توالي الأحداث والبشاعة التي كانت تتمُّ بها واللارحمة واللاهوادة وما يَقرُب من حالة فقدان الانتماء إلى الجنس البشري كل هذا يربطه خيط «عام» واحد، خيط لا تستطيع إدراكه للوهلة الأولى ولا تستطيع إدراكه حتى بَعد إعمالٍ طويلٍ للفكر والتأمُّل كما ذكرت، شيء خطير عميق دقيق لم نَستَطِع أن نصل إليه كمُفكِّرين أو أنثروبولوجيين أو علماء نفس.

إلى أن بدأتُ أعرف هذه القصص والحوادث على حقيقتِها وأستفهم وأغوص في الاستفهام لأدرك، وأخيرًا، أخيرًا جدًّا، بدأَت خيوط فجر المشكلة تتبدى.

فقد اكتشفتُ أن هناك في تلك العائلات عاملًا مشتركًا واحدًا لا يتغيَّر فيها جميعًا؛ ذلك هو الأب، أو بالأصح غياب الأب، أو على وجه أكثر دقة دور الأب في ارتكاب تلك الجرائم.

اكتشفتُ هذا رغم أن كل الحوادث لم يكن الأب فيها هو قاتل الابن أو الأم أو البنت، بل كان طوال الوقت هو المقتول أو المذبوح أو المُدحرَج رأسه أسفل السرير بينما الزوجة والعشيق نائمان ملء الجفون فوقه.

وهنا بَدأت أتأمل المشكلة من زاوية جديدة تمامًا، بل أحسستُ أني قد وضعت يدي على قلب المشكلة: الأب المصري أو العربي بشكل عام.

فقد لاحظت أن كل هذه الجرائم كان الابن فيها أو كانت الزوجة بعيدةً عن زوجها، فهو إمَّا يعمل في إحدى البلاد العربية، غائب له سنين يَلهث ليُوفِّر للعائلة أكلها وملبسها ومنزلها، وهو إمَّا في مصر مثلًا ولكنه يعمل في الصحراء أو الوادي الجديد، أو على العموم بعيدٌ عن مقر الأسرة.

فهذا الشباب الذي أطلق عشرين طلقة على والدَيه، كانت أمه مذيعة تعمل في قطر، وكان أبوه هناك، ونشأ الصبي وأصبح شابًّا وهما بعيدان عنه تمامًا، ولم يعودا إليه إلا بعد أن كبر ودخل كلية الطب، وانتهَت تمامًا تلك الفترة التي يحتاج فيها الابن إلى أمه وأبيه، فترة التكوين النفسي الأوَّل، فترة مثلها مثل لبن الأم لا سبيلَ إلى تعويضها حتى بحنان العالم كله أو نقودِه تتدفَّق من جيب الشاب بعدما جاوز مرحلة الحضانة النفسية التي تُشكِّل تكوينه الداخلي ونَوازعه.

وهذه المرأة التي كان زوجها يعمل في السعودية، وقد ترك لها ستة أطفال معلَّقين في رقبتها، واستغاثت به أكثر من مرة لتَلحقه هناك، ويعيشوا جميعًا معه، ولكنه رد عليها بقوله: إن تكاليف المعيشة مُرتفعة جِدًّا، وإنهم إذا جاءوا وعاشوا معه فلن يُوفِّروا مليمًا واحدًا، وكانت النتيجة أنه صحيح بنى لها منزلًا من ستِّ شقق وكتَبه باسمها، ولكنها هي نفسها كانت قد ضاعت وتعرَّفت بسائق التاكسي الذي استولى عليها وعلى بيتها وعلى أولادها أيضًا، وبالذات على ابنتها الشابة التي عاوَنَتْها في قتل أخيها مع العشيق السائق ودفنوه وذهبوا جميعًا إلى السينما بعد هذا. وحين عاد الزوج قابلوه بجرعة «الأتيفان» مُذابة في الشاي وخدَّرُوه وذبحوه هو الآخر.

وهكذا سوف تجد خلف كل مأساة من تلك المآسي «غياب» الأب هو السبب القوي المباشر.

وهو ليس أبًا واحدًا، هناك أكثر من مليونَي مصري يعملون في الخارج وفي الدول العربية تاركين عائلاتهم في مصر، ولا يتركونها لفترة عام أو حتى بضعة أعوام، ولكن بالسنين الطويلة يفعلون.

قال لي أب من هؤلاء: لقد تركت ابنتي وهي تلميذة في المرحلة الابتدائية، وحين عُدت كانت قد أصبحت طالبة في الجامعة، وكنا نجلس معًا أنا وهي فلا نَكاد نجد موضوعًا نتحدث فيه.

تقطَّعت الخيوط تمامًا، وبالذات تلك الخيوط التي تربط الابنة بالأب أو الابن بالأب، لم يعد يربط بيننا إلا تلك الهدايا التي تتوقَّعها بشغف غير زائد مُبدية تمامًا نقدها للألوان والأنواع التي اخترتها.

تصوَّروا …

مليونا أب؛ أي مليونا أسرة، إذا كان متوسِّط أعداد كل منها خمسة يكون المجموعة عشرة ملايين، معظمهم من الأطفال والصِّبية والمُراهِقات، والأمهات المحرومات من أزواجهن لفترات طويلة قد تتعدَّى العام.

كان مُحتَّمًا في ظل وضع كهذا أن «تنفكَّ» الأسرة تمامًا؛ فصحيح أن الأب لا يلعب الدور الأكبر في تربية الأطفال بالذات، وإنما الأم هي التي تقوم بهذا الدور، ولكنَّ للأب دورًا آخر أعمق أهمية بكثير؛ إذ هو ليس مجرَّد ساقٍ ثانية تمشي عليها الأسرة مع الساق الأولى (الأم)، إنه العمود الفقري الذي يَصلب حيل العائلة ويجعل منها كُلًّا مُتماسكًا، هو الرمز للكيان الواحد، ولذلك فالأطفال يُسَمون باسمه، ويَفخرون بالانتساب إليه، مَن هذا؟ هذا ابن فلان. بل إنه في مُجتمعاتنا العربية إذا نُسب الابن أو الابنة إلى الأم اعتُبر هذا من قبيل السباب، وأيضًا ليس هذا كله يُعتبر الأب أكبر درجة في الأهمية.

إن الأب هو «البطل» في نظر أبنائه وبناته وزوجته، اختَرْ أي طفل، فقيرًا كان أو غنيًّا، راضيًا عن أبيه أو ساخطًا، واسأله أن يَختار من بين كل الناس «بطلًا» يتبعه ويطيعه، وستجده يختار بالفطرة بطله: أباه، وفي ظل قيادته تُحلُّ كل المشكلات، وتنسجم كل التناقضات ويخرس بحسمه كل الأصوات.

الأم تُطعم «ماما» وتحنُّ وتعطف، ولكن الأب هو الذي يَضع المثل الأعلى ويُقلِّده الابن دون أن يعرف أو يدري، ويرى فيه رمزًا لرجولته المُقبلة، وترى فيه البنت نموذجًا لما يجب أن يكون عليه عريسها ومَن تُحبه، أمَّا الزوجة فحاجتها للأب لا تقلُّ عن حاجة أولادها، بل حاجتها للأب ملحَّة، حتى لو كان مريضًا أو عجوزًا بلا عمل، ومن هنا جاء المثل: «ضل راجل ولا ضل حيطة». أو ذلك الذي تقوله الزوجة إذا مات زوجها: يا سبعي!

فعلًا الأب هو السبع وهو الأسد وهو القادر وهو العمود.

وإذا كانت الظروف الاقتصادية قد أجبرت كثيرًا من الآباء — ملايين الآباء — على ترك عائلاتهم والسفر في بلاد الله خلق الله بحثًا عن لقمة العيش، فإنَّ ظروف بقية العالم العربي الغني فعلت بالأب ربما أكثر بكثير مما فعله الفقر ببعض الآباء؛ فالمال إغراء قوي على مزيد من الربح والغنى. وقد انشغَلَ الأب العربي بتنمية ثروته وبالأسفار من أجل أعماله المترامية، شغَله المال عن الأسرة، بل استعاض بالمال عن الأسرة، وأصبحت أسرته الحقيقية هي ودائعه في البنوك التي يطمئنُّ على سعر فائدتها كل صباح، وقبل أن يلفظ بكلمة مع أفراد أسرته الحقيقيِّين، وانشغل بأسعار الأسهم والسندات عن أقرب الناس إليه، هو صحيح لم يَغِب في بلاد أخرى ليعمل، ولكنه حاضرٌ في بلده بين أهله وأسرته، ولكنه ذلك الحاضر الغائب، وما أبشع الأب حين يكون حاضرًا غائبًا، فعلى الأقل في حالة الغيبة حجَّته معه كما يقولون، أمَّا وهو حاضر وفي الوقت نفسه غائب فإن الوضع النفسي لأولاده وزوجته يكون أقسى وأَمَرَّ.

وليس هذا الوضع مقصورًا على مصر أو على بلادنا العربية، إنه وضع العالم الرأسمالي، حتى الاشتراكي كله، فكثير من الأُسر الأمريكية تُعاني من هروب الأب عقب الطفل الأوَّل أو الثاني، وحالات الطلاق والانفصال الجسدي أو الفعلي ما أكثرها. لقد كنتُ في لوس أنجلوس وأُتيح لي الاختلاط بكثير من الأسر الأمريكية، والمُضحك أني لم أجد بينهم رجلًا تزوج لمرة واحدة أو زوجة تزوَّجت رجلًا واحدًا، هناك حركة تبادُل مواقع قائمة على قدم وساق بين الأزواج والزوجات والمطلقات والأرامل.

حركة يدفع ثمنها، أول من يدفع: الأولاد.

فتقريبًا ينشأ الأولاد بلا أسرة.

فالزوجة مشغولة بالاستِمتاع بزوجيَّتِها، والأبُ مشغولٌ بعمله، والأولاد مَتروكون للحضانة وللمدارس وللمُربيات في أحيان، وهي كلها أشياء لا تُعوِّض مثقال ذرة ربع معشار الأبوة والأمومة الحقيقية، ومن أجل هذا يَهرب الأطفال مبكِّرًا من أسرهم في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة وربما أقل بكثير.

يَهربون لأنهم يريدون «أسرة» وإذا كانت أُسرُهم الحقيقية قد نبذتهم فإنهم يلجئون إلى تكوين «أسرات» أو «عصابات» من الأولاد والبنات يَكونون آباءً وأمهات لبعضهم البعض.

ومن أجل هذا السبب وحده تَكثُر التقاليع ويتبوأ شاب معتوه كمانسون الذي قتَل شارون تيت وآخرين، يتبوأ مكانة الأب ويُسيطِر سيطرة سيئة تامة على الشبان والفتيات

كأنه أصبح المعبود الأوَّل. ولنفس هذا السبب أيضًا، وبطريقة أخرى، يَهرُب أولادنا في عالمنا العربي والإسلامي (الغني والفقير على حد سواء) ويَذهبون ينضمُّون إلى الجماعات الدينية حتى يُصبح «الأمير» هو الأب أو رمز الأب أو صورة الأب وكلمته هي العليا، ومن ناحية أخرى يَهرُبون إلى شلل المخدرات والجلسات والطرق المشبوهة التي تُصبح بمثابة عائلاتهم، وبالأصحِّ تعويضًا عن عائلاتهم الحقيقية.

وليس الأب الفعلي هو المشكلة في عالَمنا العربي.

ولكن رئيس الدولة، والدولة هي بمثابة الأب أيضًا، الرئيس في العمل يقوم مقام الأب حتى الأم أحيانًا تقوم بدور الأب، ولكن هذا كله لا يُغني أبدًا عن الأب الحقيقي، إنما هي تعويضات وإسقاطات ومحاوَلات دائبة من شبابنا وشاباتنا للبحث عن هذا الشبح المفقود: الأب.

وإذا كان معظمنا ساخطين على الحكومات ورؤساء الحكومات وشيوخ القبائل، و«العُمَد»، والكبار بشكل عام، فليس السبب كامنًا في هؤلاء بحدِّ ذاتهم، إنما السبب أننا نبحث فيهم عن آبائنا المفقودين، بحنانهم ورحمتهم، برأيهم السديد وحكمتهم، بهذا الشعور النبيل الجميل الذي يدفعك حين تُحسُّ بالمعزَّة والمحبة والمودة والإكبار لإنسان ما أن تقول له: ياه! دانت زي أبويا!

بالحب، بالحنان، بالحسم، بالقطع ساعة القطع، بهدهدة الحنان حين نحتاج إلى الحنان، وتكشيرة العَبوس المحب حين نحتاج إلى حبٍّ عَبوس، نبحث فيهم عن آبائنا المفقودين هؤلاء، فلا نجدهم، فنزداد سخطًا عليهم، بينما سخطنا الأكبر ينصبُّ على آبائنا الحقيقيين الذين تركونا بذورًا بلا سيقان، وسيقانًا بلا أوراق، وأورقًا وسيقانًا وبذورًا بلا ثمر.

فكيف يعود لنا أبونا الغائب؟

كيف؟

ذلك هو السؤال.

عُقدة المشرق والمغرب

الأحداث الأخيرة التي وقعت بين السلطة التونسية وبعض المواطنين المصريِّين لم تكن في خاطري وأنا أُهيئ نفسي لكتابة هذا الموضوع؛ ذلك لأني لا أريد أن أتحدَّث في هذا الموضوع ككاتب مصري، وإنما أريد أن أتناوله ككاتب عربي. فلقد حاولَت بعض الأقلام المصرية أن تستعديَ الحكومة المصرية ضد الفنانين التونسيِّين المقيمين بالقاهرة؛ لمعاملتهم بالمثل ردًّا على ما قامت به السلطات التونسية من منع دخول بعض نجوم الغناء والموسيقى المصريين إلى الأراضي التونسية، وإيقافهم في المطار، ثم ترحيلهم إلى القاهرة على أول طائرة مصرية.

وحَسَنٌ أن السلطات المصرية لم تستجب لتلك الأقلام؛ فهذا هو عين ما يريده بعض المتعصِّبين لتونس من التوانسة؛ ذلك التعصب الخاص الذي أريد أن أعرض له هنا، فلهذا التعصب جذوره الفكرية العميقة.

ولكي أبدأ البداية الصحيحة لا بد أن أقول إني شخصيًّا أكنُّ حبًّا وودًّا لا نهاية لهما للشعب التونسي الشقيق، وقد حكمت عليَّ الظروف أن أكون من أوائل الكُتَّاب المصريين الذين زاروا تونس بعد استقلالها، وكان ذلك في فترة ٦٠-٦١ أثناء اشتعال الثورة الجزائرية. أيامها كان مسئول الإعلام في الثورة الجزائرية هو الأستاذ محمد يزيد الذي عمل بعد الاستقلال سفيرًا للجزائر في بيروت، وكنا قد طلَبْنا منه — وكنت رئيسًا لبعثة أوفدها التليفزيون المصري لتغطية أحداث الثورة الجزائرية من داخل الجزائر، وكنا بهذا أول بعثة تليفزيونية عربية ترى الثورة ومُقاتِليها ومعاركها وتنقل هذا كله بعيون عربية إلى المواطنين العرب والعالم كافة.

كُنتُ قد طلبت من الأستاذ يزيد أن يتصل بجيش التحرير الجزائري ليُسهِّل مهمَّتنا في دخول الجزائر عن طريق الحدود التونسية الجزائرية، وأن يُوصِّلنا بقوته إلى الداخل.

واستمهَلَنا محمد يزيد فترة ليقوم بهذا الاتصال، ويأخذ الموافَقة عليه. وهكذا عشنا في مدينة تونس وكافة أنحاء الوطن التونسي فترة امتدت شهرًا، زُرنا خلالها الشمال والجنوب والشرق والغرب، ومن مدينة بنزرت إلى سوسة وصفاقس والقيروان. جولة ملأتني حبًّا للشعب التونسي وتعاطفًا مع إنسانه الرائع. فالحقيقة أن تقسيم الوطن العربي بين الاستعمارَين الفرنسي والإنجليزي، فوق ما أصاب به الأمة العربية من بلاء، مزَّق الوطن العربي شر ممزَّق، وأقام حاجزًا رهيبًا بين المشرق العربي والمغرب العربي، وبالذات بين المغرب العربي ومصر. كانت مصر قد حظيت باستقلال جزئي عام ١٩٢٢ عقب ثورة سنة ١٩، وكانت فرنسا تخشى تمامًا أن تتسرَّب الثورة من مصر إلى بلاد المغرب العربي التي تحكمها بالحديد والنار. ورغم هذا لم تَستَطِع كل هذه القوى الاستعمارية أن تحول بين الشعب المصري وأشقائه من شعوب المغرب العربي. وأذكر أني وأنا صغير جِدًّا عاصرت نفي الملك محمد الخامس ومرور الباخرة التي كانت تَحمله عبر قناة السويس، والهزة العميقة التي حدثت في مصر، شعرًا وتظاهُرات واجتماعات وحرقًا للأعلام الفرنسية، ونحن طلبة في الجامعات كان بيت الشاعر التونسي العربي العملاق أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن يَنكسِر

هذان البيتان كانا على لسان المتظاهرين في مذبحة كوبري عباس وشارع القصر العيني وميدان قصر النيل (ميدان التحرير الآن).

أجل، في ظلِّ الاحتلال كانت الوحدة العربية الشعبية أقوى ما تكون، كُنَّا أيامها شعوبًا تُقاوم بضراوة في سبيل أن تستقلَّ وتحيا، والإنسان حين يُقاوِم تتكشَّف لديه أروع خصاله وأنبل عواطفه.

ولقد جاءت ثورة ٢٣ يوليو لتشكُّل مُنعطفًا أخيرًا في تاريخ الكفاح العربي؛ فقد تبنى جمال عبد الناصر قضية تحرير المغرب العربي كله، وأُنشئ في القاهرة مكتب المغرب العربي الذي ضمَّ بين جنباته الثوار الجزائريين والمغاربة والتونسيين. وعبد الناصر لم يَختلِق هذا الشعور تجاه المغرب العربي، فحين كانت ليبيا تُقاوم الاستعمار الإيطالي الغاشم كانت مصر هي مصدر السلام والمساعَدة لعمر المختار وثوار ليبيا.

وحين قامت حركة الكفاح التونسي للاستقلال بقيادة الحزب الدستوري التونسي وأصبح الحبيب بورقيبة شوكة في حلق فرنسا لجأ إلى مصر والتقى بالنحَّاس باشا رئيس

الوفد. ولهذا حين أنشأ عبد الناصر «صوت العرب» كان صرخة مُدوِّية تحمل كل آمال العرب في التحرُّر وطلب الاستقلال. وقصة عبد الناصر مع ثورة الجزائر قصة مشهورة لا داعيَ لتكرارها، وأذكر أني حين انضمَمنا لجيش التحرير الجزائري لتصوير الفيلم كُنَّا نأكل من منتجات مصانع قها المصرية، ونتغطَّى ببطاطين تحمل اسم «عمر أفندي»، ونتدرَّب على مدافع رشاشة من إنتاج المصانع الحربية المصرية.

نالت تونس استقلالها بناءً على مبدأ الرئيس بورقيبة، وهي تتلخَّص في شعار: خذ وطالب. أو كما كان الرئيس بورقيبة يردِّد أمامنا باستمرار «الحلول المنقوصة». وهي نفس الحلول التي أخذت بها بعض بلدان أفريقيا ونالت من فرنسا استقلالها المنقوص. وأذكر أن ذهابنا لتونس كان في بداية عودة العلاقات المصرية التونسية، حتى إننا حضرنا وصوَّرنا السفير المصري الجديد وهو يقدم أوراق اعتمادِه؛ ذلك لأن العلاقات كانت مقطوعة؛ إذ إن عبد الناصر لم يَسترِح أبدًا لتصريحات بورقيبة عن القضية الفلسطينية ومطالبتِه الفلسطينيين بالاعتراف بإسرائيل والدخول في مفاوَضات معها.

وبمناسبة عودة العلاقات أجريتُ مع الرئيس بورقيبة حوارًا مُصوَّرًا أذاعته الإذاعة التونسية (إذ لم يكن التليفزيون التونسي قد أُنشئ بعد)، وقد استغرق الحديث ساعتَين. وقبل الحديث وأثناءه وبعده طالت جلساتنا مع الرئيس بورقيبة. والحق أن شخصيته في معظمها أعجبتني تمامًا؛ فقد كانت له طريقته الصريحة البسيطة المباشرة في قول ما يُريد، وكان يذكرني على الدوام بالزعيم المصري مصطفى النحاس. غير أن بورقيبة كان ينفرد بنوع خاص مما يُمكن تسميتُه بالاعتداد بالنفس. ولقد فوجئت حين ذهبتُ إلى تونس منذ بضعة أعوام بتمثال ضخم للرئيس بورقيبة ممتطيًا جواده يحتلُّ أهم ميدان في قلب العاصمة؛ إذ كانت تلك أول مرة أرى فيها تمثالًا بهذا الحجم والضخامة لرئيسٍ حيٍّ — لا يَزال — أقامه بنفسه لنفسه. وهذا ليس إلا مثلًا واحدًا من أمثلة كثيرة يَعرفها التونسيون ويَقبلونها أيضًا، فمكانة الرئيس بورقيبة ليست محلَّ نقاش لديهم.

وكل هذا جميل.

ولكن ما استغربتُ له حقًّا في حديث الرئيس بورقيبة هو محاولتِه المستمرة لنقد «إخواننا في المشرق العربي» وكان يقصد بالطبع عبد الناصر، وكان كثيرًا ما يقول لي: إخواننا في المشرق العربي لا يَفهمون الأوضاع هنا في المغرب العربي، ولا في تونس. وليس هذا مجال الحديث عن سياسة عبد الناصر العربية واستنكار بعض القادة العرب لها؛

فقد أخذت الأمر في حينه على أنه نوع من التململ من سيطرة عبد الناصر على الجماهير العربية، ولكن ما أذكره تمامًا أن الأمر لم يكن مجرَّد عبد الناصر وإنما كان بالأساس «مصر»؛ فالرئيس بورقيبة كان لا يفتأ يقول: أربعة مليون، ويَعني بهذا صغر تعداد الشعب التونسي وطموحه إلى أن زعامته كان مفروضًا أن تمتد إلى ملايين كثيرة أخرى.

... إنَّ الشرخ الذي أحدثه تقسيم العالم العربي بين فرنسا وإنجلترا في معاهدة ١٩٠٤ والتي تنص على إطلاق يد فرنسا في المغرب العربي في مقابل إطلاق يد إنجلترا في المشرق العربي، هذا الشرخ لم يذهب بذهاب الاستعمار، وإنما ظلَّ قائمًا وموجودًا؛ فالكارثة الكبرى أن ثقافة العالم العربي هي الأخرى قد حدَث فيها شرخ حضاري مماثل، شرخ قسم الثقافة العربية إلى ثقافة تستلهم التراث الفرنسي واللغة الفرنسية من ناحية، وثقافة تستلهم التراث واللغات الأنجلوسكسونية من ناحية أخرى.

وحين جاء الاستقلال، جاء للأسف، لا ليُلغيَ هذا الشرخ وإنما ليُعمِّقه؛ إذ إن المثقفين بالذات في المغرب العربي الذي كان يحتلُّه ويستعمره الفرنسيون استعمارًا شاملًا يريدون اقتلاع اللغة العربية والثقافة العربية والتراث العربي والشخصية العربية وإحلال نمط الحياة والتقاليد والثقافة واللغة الفرنسية محلها.

وهكذا كان توجُّه الرئيس بورقيبة توجُّهًا عبر البحر الأبيض إلى فرنسا، وكانت الحضارة الأوروبية هي قمة التقدُّم. وهو ليس تفكيره وحده، ولكن تفكير جيل بأكمله من السياسيين كان موجودًا في مصر والعراق، وربما في كل مكان من الوطن العربي، يرون في أوروبا قمة الحضارة والتطوُّر ويرون في أوطاننا قمة التخلُّف، ويرون أيضًا، وهذا هو المهم، أن النموذج الأوروبي الغربي سواء كان إنجليزيًّا أم فرنسيًّا هو النموذج الذي يجب أن تأخذ به بلادهم في كافة المجالات.

ومن هنا فيما أعتقد جاء الفرق بين آراء الرئيس بورقيبة كفلسفة وبين الناصرية التي كانت تُريد إنشاء «حضارة» عربية خالصة، تناطح الحضارات الأوروبية، بل وتتفوق عليها. وهكذا بدأ الرئيس بورقيبة يتطلَّع، كما يتطلَّع الأوروبيون أيضًا، إلى المال البترولي العربي، وكان لا بد من قيادة فكرية تُحوِّل الدفة، ووجد الرئيس بورقيبة في الكاتب التونسي محمد مزالي الذي كان ولا يزال يُصدر مجلة ثقافية تتبنَّى كافة قضايا الأدب العربي، وجد في هذا الكاتب مُبتغاه، وعهد إليه برئاسة الوزارة لمدة طويلة جِدًّا، بل كاد يَعهد إليه بخلافته إلى أن تمَّ عزله منذ بضعة شهور.

وباختيار تونس مقرًّا للجامعة العربية، تكامَلت للطموح التونسي كل الأركان اللازمة لتوثيق العلاقات مع العواصم العربية الأخرى.

ومهما قيل في الجوانب السياسية للرئيس بورقيبة إلا أنه كان دائمًا وأبدًا راعيًا للحركة الثقافية والإبداعية التونسية، وهذه نقطة تحضُّر للرجل ما في ذلك شك، نقطة تسبَّبت في ازدهار هائل للكتابة التونسية، بعكس الكتابة في بلاد الشرق العربي وعلى رأسها مصر؛ فقد حوربت الكتابة العميقة حربًا مستمرة طوال سنوات ما بعد الاستقلال، ودخلت السياسة في الثقافة فأمرَضَتها بجميع أمراض السياسة، وصحيح هناك رقابة في تونس، بل هناك حزب شيوعي علَني قانوني، فالدستور التونسي يُبيح تعدد الأحزاب، ولكن عَمليًّا لا توجد أحزاب، ولا حتى الحزب الحر الدستوري الاشتراكي.

ازدهرت كما قلتُ الحركة الثقافية في تونس، خاصة وتاريخ تونس العريقة، شكرًا لجامعة الزيتونة ولبقاء اللغة العربية حيَّةً نشطة تُرسل إشعاعاتها إلى كافة أرجاء المغرب العربي، هذا التاريخ كان عاملًا محفِّزًا لمزيد من الإبداع والابتكار.

ولكنه ابتكار في أي اتجاه؟

تلك هي المشكلة.

لقد بقيَ عدد من الكُتَّاب في المغرب والجزائر وتونس يكتبون بالفرنسية إلى الآن. ولأن الأدب لا ينفصل البتَّة عن اللغة، فقد كان أدبهم في الحقيقة رافدًا جديدًا للثقافة الفرنسية، ويكاد يكون بعيدًا عن المجرى الأصيل للثقافة العربية.

ولكن بازدهار اللغة العربية بعد الاستقلال تشجَّع العارفون بالعربية على الكتابة باللغة العربية، ووصَل إنتاجهم إلى المشرق العربي أيضًا، وأصبح الكثيرون منهم نجومًا لامعةً في السماء العربية.

كل ما في الأمر أنه، عميقًا إذا حفرت عميقًا، تجد الأثر الفرنسي كامنًا هناك، بل وتجد الطموح الفرنسي نفسه، فأقصى آمال أي كاتب هناك هو أن يُصبح مترجمًا ومشهورًا في فرنسا، وفرنسا وإن كانت قد جلَت عن الغرب العربي كله، إلا أن الحبل السري الذي كان يربطها ببلاد المغرب العربي لا يزال هناك، وبالذات في المجال الثقافي، وكما أن هدف أي لاعب كرة في المغرب العربي أن يَلعب لنادي في فرنسا، فأيضًا هدف أي كاتب هناك أن يشتهر في فرنسا، كذلك هدف أي مُخرج سينمائي وأي رسام، باختصار هو نفْس التوجه عبر البحر الأبيض المتوسِّط إلى الشمال، إلى أوروبا من خلال فرنسا.

وفرنسا هي الأخرى تدرك هذا، وهي ترعى الأدب في المغرب العربي وتوليه عناية خاصة، وعدد المترجم والمنشور لكُتَّاب من المغرب العربي في فرنسا يَزيد عشرات المرات

عن كل الكُتَّاب العرب الآخرين. ولا تزال تلك الصلة الثقافية الخاصة بفرنسا تعمل عملها في عملية الإبداع والتوجه نفسها.

قرأتُ في العدد الأخير من مجلة الدوحة، وقد أزعجني وأزعج كل كاتب ومثقَّف عربي خبر إغلاقها، وحبذا لو كان الخبر غير صحيح، فهي مجلة خدمت الثقافة العربية خدمة عجزت عنها حكومات عربية بأكملها.

قرأت في هذا العدد حديثًا لواحد من أعلام الكُتَّاب التونسيين هو الدكتور عز الدين المعرفي، وهذا الحديث هو ما دفَعني لكتابة هذا الموضوع، وليس أبدًا حوادث المطارات وتلك المعاملة الخَشِنة التي لاقاها بعض المصريين، فأنا كما قلت لا أكتب هنا كمصري، وإنما كعربي، والفرق بين الاثنين هو الفرق بين حديث عز الدين المعرفي عن «التونسية» وأي حديث لي أو لغيري عن المحلية. فليس معنى وجود عروبة وعرب وثقافة عربية إلغاء للثقافات الوطنية في كل بلد عربي. بالعكس، إن الوصول إلى العروبة، مثله مثل الوصول إلى العالَمية هو بالضرورة مرورٌ بالمحلية. ولكن هناك تفكيران إزاء فكرة المحلية، فهناك محلية مُغرقة في محليتها متقوقعة على نفسها، بحيث لا تمتدُّ أبعد من تلك الرؤية الضيقة، وهناك محلية تتعمَّق الوجود الإنساني داخلها بحيث يُوصِّلها هذا التعمق ليس بالعروبة فقط ولا بالعالمية الآتية فقط وإنما بالوجود البشري كله، فهي محلية مفتوحة تفتح على الدنيا كلها ولا تَنغلِق على نفسها.

خذوا مثلًا هذا الجزء من حديث الدكتور المعرفي ردًّا على سؤال من أحمد محمد عطية مُجري الحديث:

«قلتَ في بيانك الثاني عن الأدب التجريبي: إن المبادئ الأساسية التي يعتمدها الأدب التجريبي هي رفع الحواجز الفكرية التي ظلت تُهيمِن على القرائح والمواهب طيلة سنوات وتُعطِّلها في سيرها نحو الخلق، وتبعث فيها عُقَد النقص ومركبات الاحتقار الذاتي. فهذه الحواجز التي كانت تَرِد إلينا من أوروبا الغربية (وبالخصوص من فرنسا) ومن المشرق العربي (!) هي التي كانت لها النصيب الأوفر في تثبيط العزائم الصادقة، وهي حواجز لا بدَّ من كسرها ورفعها لأنها كانت مهيمنة على الأذهان. وكان من مبادئ بيانك الأوَّل سلوك طريق ثالثة هي طريق الواقع التونسي والمجتمع التونسي والتاريخ التونسي، والمعاصَرة التونسية والخلق التونسي، هي طريقة التونسية بكل اختصار، فماذا تقصد بهذا الهجوم على الثقافة في المشرق العربي؟ وموازاتها بالثقافة الغربية الاستعمارية،

وتأكيدك الإقليمي على التونسية والشخصية التونسية، وهل يتَّفق هذا مع دعوتك لتأصيل الثقافة العربية ومسرحياتك المُستمَدَّة من التراث العربي الواحد؟»

ويجيب الدكتور عز الدين المعرفي قائلًا:

«هذه الأفكار كتبتها منذ خمسة عشر عامًا. ولهذا لا بد من أخذها في نطاقها التاريخي؛ فلم يكن هناك في تونس سوى أدب قليل تونسيًّا. كان هناك كُتَّاب يُكافحون ويناضلون من أجل خلق أدبية فكرية تونسية، فلا مراجع فكرية غير كتب مشرقية (!) وكتب غربية، لا أَعني بذلك أن أهاجم الشرق، ولكن المعنى هو حين يأتيك ناقد من تونس ويقول لك إنك ليس عندك كلام أمام العقاد وأمام طه حسين، وليس عندك أي شخصية، معناها تقديم الشرق من خلال بعض الناس المُتمشرقين بتحيُّز لطمس معالم الفكر الثابت في تونس.»

يعني الدكتور المعرفي أن أولئك الطليعيِّين والقارئين لأدب طه حسين والعقاد وجميل مردم أناس «مُتمشرِقون»، ويا لغرابة التعبير والرحمة، وكأنه يريد إقامة حائط فكري بين المشرق والمغرب العربيين لـ «يصنع» ثقافة تونسية أو بالأصح ليَصطنع ثقافة تونسية غير متأثِّرة بتاريخ الأدب العربي في المشرق، وحتى ليست مُتأثِّرة بأي اتجاهات من فرنسا أو من غيرها. هذا هو ما أسميه المحلية المنغلقة. والغريب أن المدني حين أراد أن يؤلف لم يجد إلا هذا التراث العربي من الجاحظ «المشرقي!» ومن غيره ليستوحيَه ويَنسج مسرحياته على منوالهم.

ويسأله السائل عن مسرحي وعن الدعوة التي توجهتُ بها إلى الكُتَّاب المسرحيين العرب للبحث عن الجذور المسرحية في حياتنا الشعبية واستيحائها لخلق مسرح عربي جديد معاصر، تلك المقالات التي نشرتها في مجلة الكاتب عام ١٩٦٣، وعلى أثرها قدَّمتُ مسرحية الفرافير، وكانت أول مسرحية تستوحي الشكل والمضمون المسرحي الشعبي المصري العربي، يقول سيادته: هناك أناس آخرون سابقون عليه (أي على شخصي).

نحن نعرف في التاريخ الأدبي لتونس مثلًا أن هناك دعوات لتأصيل المسرح العربي في الثلاثينيات. ويمضي قائلًا: ويوسف إدريس لم يُبدِع مسرحًا عربيًّا. أمَّا عن أسبقيته في الدعوة لمسرح عربي فأقول بأنه في الأدب والفن لا توجد أسبقية ولا أقدمية.

وهكذا يستن الدكتور المعرفي قانونًا غريبًا على التراث الإنساني، فلا أسبقية لأحد على أحد لأننا لسنا كقُدماء المحاربين، وإنما المسائل فوضى، ومن حق كل إنسان أن يدَّعي لنفسه ملكية ما قدمه مَن قبلَه دون وازع من ضمير أو خجل.

إلى هذا الحد يصل التعصُّب لفكرٍ تونسي غريب على الشعب التونسي العربي الأصيل. لقد عشت مع هذا الشعب وخَبِرته ووجدت أنه في كافة نواحي حياته لا يُفرِّق أبدًا بين ما هو تونسي عربي وبين ما هو مشرقي عربي، سواء كان مصريًّا أم سعوديًّا أم عراقيًّا أم كويتيًّا. ووجدت في أقصى جنوب الصحراء التونسية مقاهٍ خاصة لسماع المطربة «المشرقية!» أم كلثوم وعبد الوهاب، قبل ظهور محمد عبده وطلال مداح.

أمَّا فكرة الأصالة، فهي لم تأتِ من مصر عبثًا، وهي فكرة لا يمكن أن تخطر لمُثقَّف أو كاتب جالسًا على مقاهي باريس أو حانات مرسيليا، إنما هي فكرة فجرتها الثورة العربية الحديثة منذ ٢٣ يوليو ٥٢؛ فقد صاحب هذه الثورة السياسية الاجتماعية اتجاهٌ عميقٌ لدى الكُتَّاب الثوار في مصر في كل مكان من مغرب أو مشرق عربي، اتجاهًا عميقًا للأصالة والبحث عن الجذور الحضارية العربية والإسلامية، فحدث للفكر المصري ومِن ثَمَّ للفكر العربي ثورة زلزلت قلاع الخاضعين تمامًا للفكر الأوروبية والفلسفة الأوروبية والناسِجين في إبداعهم على منوال موباسان وبلزاك، وتشيكوف، وأقامت صرحًا عربيًّا أصيلًا للقصة القصيرة والمسرحية والرواية، وحتى للاشتراكية العربية.

من أجل هذا، فإن إثبات السبق ليس مجرد تزود أو مسألة لا تقدم أو تؤخر، إنما هي تأريخ للحقيقة، والأسبقية هنا نتيجة لسَهر ليالٍ وكدح ودم وعرق، ولم يَجِدْها صاحبها ملقاة في عرض الطريق، ومن هنا جاء تغيير حق الملكية الأدبية الذي لا يَتنازع فيه أحد. وهي ملك للتاريخ وحده، لا يُمكن لأيٍّ ممَّن يخطر على باله أن يدَّعيَه لنفسه أن يفعل. وحين قلت أن المخرج المغربي الطيب الصديقي يدَّعي لنفسه كل الفضل والسبق في البحث عن أشكال مسرحية عربية والدعوة لهذا، كنت أقصد هذا المعنى. وحين اتهمتُه بالتزوير والنصب لم أكن مغاليًا على وجه التحديد؛ فإن كلمة أي كاتب مغربي أو تونسي سواء كان الطيب الصديقي أم عز الدين المعرفي أو غيرهما لن تقصر أبدًا؛ إذ هو اعترف أنه بحث عن جذور المسرح العربي في بلده تأثُّرًا بالفكرة التي تفجَّرت في القاهرة، بل — وأرجو عفو القارئ — تأثيرًا بتفكيري واكتشافاتي بالذات في المسرح، بل وتأثرًا بالفرافير ذاتها التي نفَى عنها الدكتور المعرفي كل أصالة وكل شعبية وكل عروبة، والتي جاء الطيب الصديقي والمعرفي وغيرهما بعد أكثر من خمسة عشر عامًا يدَّعون لأنفسهم السبق والأصالة … إلخ.

إني لا أستطيع أن ألوم أي كاتب إذا هو تعصَّب أو تحيَّز لبلده الصغير، أمَّا ما ألومه عليه حقًّا فهو أن يُلغي الآخرين تمامًا من طه حسين إلى يوسف إدريس ويُسميهم «المشارقة»، وكأنما يَصِمهم بوصمة. في حين أن ديدن هؤلاء الكُتَّاب مثلما كان ديدن

جميل مردم وعبد السلام العجيلي وعبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة، والطيب طالح وحنا مينا وأبو القاسم الشابي وغيرهم، وكل هؤلاء المتمسِّكين تمامًا بأوطانهم الصغيرة ومحليَّتهم، ولكنهم في نفس الوقت يرون الكل الكبير ويَطمحون إلى الكل الكبير طريقًا إلى العالم وبقية البشر، بصراحة لا يَملك الإنسان إلا الإحساس بالشفقة تجاه هذه الظواهر المتعصِّبة؛ إذ إنها في حقيقتها علامة من علامات ضعف الثقة الشديد بالنفس وبالموهبة وبالقدرة.

كل ما في الأمر أن دعاوى من هذا النوع، لها تاريخ طويل كما ذكرتُ، تفور دائمًا في النفس، وتخلق التباعُد والتجافي، ثم في النهاية تؤدي إلى ترحيل الرعايا، ومن يدري ماذا سوف يؤدي إليه هذا الاتجاه.

تذكرت هذا الحديث، وتذكرت كل تلك الوقائع وأنا أقرأ على لافتات الإعلانات في الإسكندرية حين أقضي الصيف إعلانات عن مسرحية الدكتور عز الدين المعرفي «التربيع والتدوير» التي قدَّمها مسرح الطليعة المصري، دون عقد، ودون أن يَعتبره كاتبًا «مغربيًّا» يُشكل حاجزًا «لا بد من تحطيمه» في رأي الدكتور المعرفي.

إنها عقدة، وليَسمح لي بعض الإخوة والزملاء المثقفون في تونس، وبعض أمكنة من المغرب العربي الكبير، عقدة، ربما كانت موجودة لظروف معينة، والسبب في وجودها كما رأينا هو تبين غير واع أو واع للفكرة الاستعمارية نفسها تلك التي أقامت حائطًا رهيبًا بين المغرب العربي الذي كان الاستعمار الفرنسي يُريد اجتثاث مكوِّنات وجوده العربي، وبين ما يُسمونه المشرق العربي، وهي تسمية المقصود منها دمغ هذا الشرق كما رأينا، والبُعد عنه، وعزله.

أم أن الأفكار الاستعمارية لا تزال تُسيِّرنا رغم كل ما نراه من العلامات الخارجية للاستقلال ونفْض التبعية؟!

إيزيس بين الحكيم ومطاوع

إيزيس آخر مسرحية كتَبَها أستاذنا توفيق، مُنهيًا بها عهده «الأوروبي». فحين ذهب توفيق الحكيم إلى باريس، وشاهَدَ المسرح هناك، بهرته فكرة استعانة كُتَّاب المسرح المُحدَثين بالأساطير الإغريقية القديمة، حتى إنَّ مأساة أوديب كتبها ثلاثة أو أربعة كُتَّاب مُحدَثين، فقال لنفسه: ولماذا — ونحن أيضًا لدينا أساطيرنا — نَستعين بها في خلق مسرح «عربي»، وهكذا استعان بالله وكتب مسرحية «أهل الكهف»، والحق أن المسرحية في أول ظهورها أحدثَت دويًّا شديدًا، ليس فقط في الأوساط المسرحية، ولكن وهذا هو المهم في الأوساط الأدبية نفسها، تلك التي كانت تَعتبِر المسرح نوعًا من «الهَلس» و«التهريج» لا يدخل تحت باب الأدب، حتى لو كان المُمثل هو العملاق جورج أبيض، أو السيدة روز اليوسف، وحتى لو كانت الروايات من أمهات المسرح الأوروبي.

احتفَلَت الأوساط الأدبية بهذا الحدث الكبير، حتى إن الشيخ مصطفى عبد الرازق تلقَّفها باحتفال كبير وأثنى على مؤلفها ثناءً عاطرًا، مع أن الرواية مأخوذة من النص القرآني الذي كان لا يستطيع أحد أن يَجرُؤ على المساس بحرفيته، وأهل الكهف، في سورة الكهف، ليس فيها «بريسكا»، ولا فيها إمبراطور روماني، ولا كل تلك الأشياء التي خلقها توفيق الحكيم تخليقًا.

بعد إيزيس نفض يده من فكرة الأساطير القديمة هذه، ونتيجة لظهور «عودة الروح»، ويوميات نائب في الأرياف، بدأ الحكيم يَغُوص شيئًا فشيئًا إلى قلب المجتمع المصري، يستخلص منه مأساته أو ملهاته الحديثة، وكانت مجموعة «مسرح المجتمع» خير تجسيد لهذا.

كانت الدنيا قد تطوَّرت، وكان جيل آخر من كُتَّاب المسرح قد ظهر، فتبنَّى بعضهم قضايا طبقية، وبالذات قضايا الطبقة الوسطى وأزماتها ومشاكلها ومَلهاة وجودها

وتعاسته، وكان صاحب هذا الاتجاه نعمان عاشور بروايتَيه «المغناطيس والناس اللي تحت».

ثم جذَبني المسرح بقواه المغناطيسية الخارقة، وكنتُ قد كتبت مسرحية من فصل واحد اسمها «ملك القطن»، وأحلتُ قصة «جمهورية فرحات» إلى مسرحية، ولم أكن إلى لحظتها أتصوَّر أنهما يمكن أن تُمثَّلا على خشبة المسرح، فذهبت بهما إلى الصديق الأستاذ أحمد حمروش، وكان آنذاك مشرفًا على المسرح القومي، ومُشرفًا على سلسلة كتب للجميع، وطلبت منه أن يَنشر المسرحيتَين في كتب للجميع، فإذا به بعد يومين يتَّصل بي ويقول لي: نشر إيه ده اللي أنت جاي تقول عليه، هذه مسرحيات لا بد أن تُمثَّل.

وهكذا أُدرجت المسرحيتان في خطة المسرح، وفعلًا جُسِّدتا، أخرج الأولى الأستاذ الكبير نبيل الألفي، والثانية المعلم الأستاذ المرحوم فتوح نشاطي. وأشهد أن ليلة افتتاح العرض كانت من أعنف وأخصب التجارِب التي مررتُ بها في حياتي إلى درجة أن وقفنا؛ أحمد حمروش وأنا نبكي في نهاية ملك القطن، والمرحوم شفيق نور الدين يخبط «الأرض» التي تُمثِّلها خشبة المسرح ويقول عن القطن: أسيبه يتحرق إزاي يا ناس؟! دا تعبي! دا شقاي! دا عمري وعرقي، وعيالي. كُنَّا نرى هذا المشهد كل ليلة، وكل ليلة يبكينا المشهد.

وقيل يومها إنني استطعت لأول مرة أن أجعل من الفلاح المصري بطلًا مسرحيًّا، كما استطعت بعدها أن أجعل من فلاحة «الترحيلة» في الحرام شخصية تراجيدية ترتفع إلى مرتبة التقديس.

المهم أنني بعد هاتَين المسرحيتَين، ونظرًا للنقد الذي وجه إليهما باعتبارهما مسرحيتَين من فصْل واحد، وأني غير قادر على كتابة مسرحية طويلة، كتبت مسرحية «اللحظة الحرجة» من ثلاثة فصول، وكانت المسرحية أيضًا صدمة؛ فقد خاف بطلُها في اللحظة التي كان يجب أن يؤدِّي فيها واجبه وأن يدافع عن أبيه الراكع يُصلي في سلام بينما الجندي البريطاني يُشهر عليه السلاح. قيل لي أيامها كيف تجعل من الرعديد بطلًا، ولكن الدكتور لويس عوض كان له رأي آخر؛ فقد كتب مقالاً رائعًا في جريدة الشعب يقول عن المسرحية: إنها دراسة في الخوف، خوف الغازي ممن يَغزُو أرضه، وخوف الذي غُزيت أرضه من الغازي.

ولكن بعد مسرحية اللحظة الحرجة توقفتُ؛ لأنني أدركت أني إنما أكتب على النسق الأوروبي، ولا أفعل سوى تقليد راسين وموليير وأحيانًا فيدو.

وأصبح هدفي مثلما عثرتُ أو اكتشفت القصة المصرية العربية القصيرة مضمونًا وشكلًا وطريقةً أن أكتشف مسرحنا المصري العربي المتميز داخل حياتنا.

وكتبت سلسلة مقالات في مجلة «الكِتَاب» عام ١٩٦٣ بعنوان نحو مسرح مصري عربي، مبشِّرًا بمسرح الواقع المسرحي الحي الذي يَعيشُه شعبنا من «ذكر» و«زار» وربابة شاعر، وسامر، وجلوس على المقاهي، وحتى الجنازات والمعازي، مظاهر لظواهر مسرحية، من الواجب أن نَستكشِفَها ونُحيلها إلى دراما عصرية حديثة تُعبِّر عن ذاتنا المسرحية الخاصة، وبهذا بدلًا من أن نعيش عالة على التراث المسرحي الأوروبي نُثري المسرح العالمي بمسرحنا الخاص. وعارضني معظم النقاد في هذا الاتجاه، وقالوا لا يوجد شكل مسرحي عربي أو مصري، وإنما الموجود شكل عالَمي، ضع منه ما شئت من مضمون مصري يُصبح مصريًّا. ولما كنت أؤمن أن الشكل لا يَنفصِل عن المضمون في العمل الفني، فقد كتبتُ «الفرافير» كنموذج لهذا النوع من المسرح، وكان نجاحها الجماهيري يدلُّ على أني أسير في الطريق الصحيح.

وهكذا حدث للمسرح المصري زلزال آخر، ومن الطريف هنا أن أذكر أني عرضت «الفرافير» على جميع مُخرجي مصر، فكانت إجاباتهم: هذا ليس مَسرحًا. الوحيد الذي أدرك ما في داخلها من جواهر مسرحية شعبية ومصرية وعربية كان هو كرم مُطاوع، وكان لا يزال قادمًا من بعثتِه في إيطاليا. وليس المُهم القدوم من البعثة، المهم أن هذا الشاب مُخرج موهوب قلَّ أن تُرزَق مصر بمثله. إن باستطاعته أن يُخرج الجريدة اليومية لو يشاء، باستطاعته أن يصنع ما يشاء.

ولكن فيه عيب واحد خطير؛ أنه يُدرك هذا، ويدرك أنه كمُخرِج يفهم في المسرح أكثر بكثير من الذين يَكتُبون للمسرح (في حين أن المؤلِّف هو الأصل، وهو الذي لا بد أن يفهم في الإخراج والتمثيل أوَّلًا).

المهم أننا بدأنا العمل في الفرافير، وبعد خروج العمل إلى الجمهور بدأت المشاحنات بيننا حول ما كان يجب أن يكون عليه إخراج الفرافير، وقد انتهَت تلك المشاحنات إلى أن عرف كل مِنَّا قدر الآخر، وبدأت المودَّة.

المضحك أن نَصَّابًا مغربيًّا ادَّعى بعد عشر سنوات من هذا أنه هو صاحب فكرة المسرح العربي وخالقه، واسم هذا النصَّاب هو الطيب الصديقي، ولا يَزال ينصب على العالم العربي بهذا كله، ولم يتصدَّ له أحد ويُذكِّره بأن ما يدَّعيه نصب، بل نحن هنا في مصر نُردِّد هذا كالببغاوات، وكأنَّنا لا نعرف التاريخ أو نسيناه.

نعود إلى إيزيس الحكيم وإيزيس مطاوع، أقول إن إيزيس الحكيم كانت آخر مسرحية يَكتبها متأثِّرًا بما رآه من إحياء الأساطير في باريس؛ إذ بعدها تحوَّل إلى المسرح الاجتماعي،

ثم إلى ما أسماه شكلنا المسرحي أو بناءَنا المسرحي (بعد ظهور الفرافير والضجَّة التي قامت حول المسرح المصري)، وكتب على هذا الأساس مسرحية «الصفقة» ثم جاءت موجة اللامعقول، فكتب مسرحية «يا طالع الشجرة»، ثم جاءت موجة مسرح المقاومة على يد الشرقاوي فكتب مسرحية عن المخابَرات.

المُهم أن توفيق الحكيم رجل يُؤثِّر (فهو الذي جعلنا نعشَق المسرح) وأيضًا يتأثَّر بتلامذته ومحبِّيه، ولكنه يُخفي هذا كله في جعبته ولا يَنطق عنه حرفًا. أمَّا الحكيم الرجل إذا كان بخيلًا، فالحكيم الكاتب أبخل مِن البُخل، وإنه وعمري ما ضبطتُه يَمتدح عملًا حتى لمُعاصريه إن لم يكن لتلاميذه، هو يَمتدحه إذا كان الأمر بينه وبينهم، أمَّا كتابةً وأمَّا علنًا فلا، والآن جاء كرم مطاوع ليُقدِّم إيزيس عام ٨٥.

وليقدمها على مسرح جديد تمامًا، المسرح القومي بعد تجديده.

ودعونا من الخناقات التي حدثت حول تقديم مجنون ليلى كافتتاح، أو حول تقديم إيزيس، فهذه خناقات أصبحت في ذمة التاريخ.

دعونا ندخل المسرح القومي هذه الليلة لنُشاهد افتتاح إيزيس ٨٥ في حضور رئيس الجمهورية.

وأبدأ فأقول إني رغم أن الموعد يذكر السادسة والربع كميعاد لبدء العرض، إلا أنني ومنذ الساعة الخامسة وأنا أطوف بكل شارع يؤدي إلى ميدان العتبة حيث المسرح القومي، ولدهشتي وجدت قوات المرور والأمن المركزي قد «احتلَّت» منطقة وسط البلد بأَسرها، وكأنَّ ثمة مؤامرة من سكان القاهرة لمحاصَرة الرئيس واحتجازه. إنني لم أر هذا في بلد من بلاد العالم أبدًا. أن تحتل قوات الجيش (الأمن المركزي) والبوليس كل شوارع وسط المدينة من الساعة الرابعة إلى الساعة التاسعة، وكل هذا لأن موكب الرئيس سيمرُّ أو أن ضيفًا هامًّا سيَعبُر. إن هذا منتهى عدم الثقة في المواطنين، ومُنتهى إظهار العضلات للأمن المركزي والشرطة؛ فالرئيس في العادة يُقابَل بالترحاب حتى من الجماهير المتجمِّعة في الشوارع تهتف باسمه، فما بالهم وهم يعاملون الجمهور وكأنه سيَتلقَّى موكب الرئيس بالحجارة أو بالرصاص. نحن شعب أكثر رقيًّا من كل الأجهزة القائمة على حراسة الرئاسة وغير الرئاسة، وفي الحقيقة نحن الذين نحرس الرئيس، أو بعض الرؤساء، وليس حراسه الخصوصيون أو العموميون، ولقد صُرع المرحوم الرئيس السادات وهو في قلب حراسته الخاصة مُحاطًا بكم هائل من القوات المسلحة والطائرات المُحلِّقة.

لي رجاء إلى اللواء أحمد رشدي أن يُغيِّر من هذا النظام الذي يُربك حياة الناس ويعطل مصالحهم ويزيد السخط في نفوسهم؛ فالرئيس المحبوب تحرسه قلوب الشعب، وما تفعل قوات الأمن والشرطة إلا أن تحول بين هذا الحب وبين أن يصل إلى قلب الرئيس.

وصلتُ إلى مسرح الأزبكية، وفحصَتْني كل الأجهزة الإلكترونية التي أطلعتني براءة والحمد لله، وكنت قد نسيت تذكرة الدخول، وحمدًا لله أن ضباط رئاسة الجمهورية بدا وجهي مألوفًا لديهم وإلا لما كنتُ حضرتُ العرض الذي أنا مدعو إليه.

دخلت المسرح. ساحة المسرح الخارجية أصبحت في منتهى الجمال والتنسيق. دلفت إلى الصالة فصدمني المشهد، زخارف كثيرة مذهَّبة وكأننا في مسرح مدينة بترولية. خشبة المسرح وضعها سقيم، المسافة بين الخشبة والمقاعد بعيدة أكثر من اللازم، ومُغطَّاة بطبقات كثيفة من سجاجيد المآتم، وحتى ليست موضوعة بترتيب وتنميق، وإنما هي موضوعة «كُلشِنكان» بحيث تَعتلي حافة الواحدة الحافة الأخرى في مشهد لا يبعث أبدًا على الاحترام. المسرح نقَص ما لا يقل عن المائة كرسي وأصبح في حجم مسرح الجيب.

خرجت إلى الصالة، ثم إلى الخارج، لأُشاهد هذا الذي أنفقوا عليه أربعة ملايين جنيه ونصف، فإذا بي أجد زخرفة إسلامية، لا علاقة لها بالزخرفة الإسلامية الحقيقية التي كُنَّا نصنعها منذ أيام أحمد بن طولون، مساحات رهيبة فارغة تملأ الجدران الخارجية، وليس بداخلها ما ينمُّ على أن هذا مسرح أو مسجد، أو معبد يهودي. أين صُرفت تلك النقود كلها وما رأيته لا يمكن أن يتكلَّف أكثر من مليون جنيه. أريد من الدكتور علي لطفي والدكتور أحمد هيكل أن يُشكِّلا لجنة من كبار أساتذة الهندسة المضموني الذمَّة يُقدِّرون حجم الإصلاحات، وكم النقود المنصرف، ويُحاسَب المختلسون، فإني واثق أن هذه العملية قد اختُلس منها ما لا يقل عن الثلاثة ملايين جنيه.

ثم بدأ العرض المسرحي، وفي ذهني سؤال: تُرى ماذا سيفعل كرم مطاوع بإيزيس الحكيم؟ إيزيس الحكيم كانت أسطورة «محترمة» لقصة إيزيس وأوزريس وحورس وتيفون، واغتصاب المُلْك من أوزوريس وقتله، ثم إصرار إيزيس على الانتقام من قاتِل زوجها ووالد ابنها حورس، أسطورة بسيطة بساطة الأقاصيص الفرعونية القديمة مثل الفلاح الفصيح وكتاب الموتى ومسرحيات الكهنة.

طبعًا من المستحيل أن يُخرج كرم مطاوع إيزيس الحكيم بنفس بساطتها. إذن أين دوره هو كمخرج؟ وهكذا أخرج كرم مطاوع النص عن بساطته أوَّلًا، وعن الحكيم ثانيًا،

وبهذا فهي في الحقيقة إيزيس مطاوع، وحتى لو كان عدَّل فيها — كما يقول الرواة — توفيق الحكيم فهو قد فعَل هذا بتنويم مغناطيسي إخراجي من كرم مطاوع.

وهكذا من الأسطورة البسيطة خلق كرم «أوبريت» ملأها بالرقص والغناء المصري والشامي والزار ومجاميع لا حصر لها، كان على المسرح أحيانًا ما يَزيد على السبعين ممثلًا وممثلة، وإذا عرفت أن المسرح لم «يُكنَس» منذ إنشائه، وكنتَ تجلس مثلي في الصف الأوَّل، لأدركت مدى ما دخل صدري من غبار وتراب سبَّبه دبدبة هذه العشرات من الراقصين والراقصات فوق الخشبة المليئة بالتراب وتصاعَدَ هذا التراب على هيئة سحب خانقة، تملأ الصالة الصغيرة إلى حدِّ الحلقوم. أمَا كان هناك عاقل واحد يُفكِّر قبل العرض في كنس الخشبة ورشها لتُصبح مكانًا جديرًا بالعرض لتلك العشرات من المجاميع؟!

باختصار شديد ذهبت أتفرَّج على توفيق فاستولي على عقلي كرم مطاوع بكثرة المجاميع والأغاني والرقصات، وكأنه أدخل إلى خشبة المسرح فرقةً من الأمن المركزي لتُحافظ هي الأخرى على حياة الرئيس وكبار المدعوِّين.

أجل، أحالها كرم مطاوع إلى أوبرا، ولو كان كرم مطاوع في ظروف نفسية أصلح، ولو كان لم يشغل وقته، رغمًا عنه، في خناقات ما أنزل الله بها من سلطان حول المسرح الذي تُعرَض فيه مسرحيتُه، ولو أضاف قليلًا بل لا بد أن أقول كثيرًا من الشاعرية، لا للديكور أو للرقصات، وإنما للمواقف الإنسانية العميقة التي تَحفل بها الأسطورة، مثل مشهد لقاء إيزيس بابنها حورس بعد غيبة خمسة عشر عامًا، ولو جعل حورس يتحدَّث عن أبيه المقتول حديث ابنٍ قُتل أبوه ولم يرَه، ولم يرَ استيلاء تيفون على الحكم، ولو توقَّف قليلًا عند مشكلة الحكم، ومَن يحكم من، وهل الحكم للقوة أم للعدل ... و... و... كثير من المشاهد التي كانت في حاجة إلى كتابة درامية حديثة، ومراجعة متأنية لكل جملة من جُمل الحوار.

لو كان قد فعل هذا لكانت إيزيس أروع عمل إخراجي تمَّ على المسرح المصري، ولكن هكذا شاءت العجلة، وإصلاح المسرح، والخناقات والظروف النفسية الضاربة أطنابها في هيئة المسرح بشكل عام وفي وزارة الثقافة بشكل خاص.

ورغم هذا فإيزيس عرض مسرحي رغم كل شيء استمتعتُ به أنا وغيري غاية المتعة، استمتاع المستيقظ لتوِّه بعد غفوة إغماء طويلة. لقد عاد المسرح، لقد عاد وهو يتثاءب ويتمطَّى، ولكن الحياة دبَّت فيه دبيب أرجل الكومبارس والراقصين، عادت الروح تُرفرِف في سقف مسرح الأزبكية العتيق، عُدنا نذهب إلى المسرح.

أمَّا أن يحضر الرئيس مبارك هذا الافتتاح فتلك لفتة لا أظنها تَخفى على أحد. لقد أراد بها فيما أظن أن يُطيِّب بخاطر الفنانين الذين انهالت عليهم الصحافة بالهيروين والكوكايين والانحلال، وأراد أن يقول أنا مع الفن الجاد (أي مع القطاع العام) وأنا مع العمل الجاد حتى لو تكلَّف ٣٥٠ ألف جنيه.

وهذا في حدِّ ذاته انتصار كبير للعائلة الثقافية المسرحية. شكرًا يا ريس، وشكرًا أنك اصطحبتَ السيدة حرمك؛ فلي أكثر من خمسين عامًا أعيش على الأرض المصرية وأحضر مسرحيات واحتفالات لم أشهد خلالها رئيس جمهورية جادًّا يحترم حضور المرأة ويَصطَحِب زوجته لتحضر معه، وفي نفس اللوج، عرضًا مسرحيًّا. إن هذا ما يسمونه التحضُّر الحقيقي. أمَّا المخجل حقًّا فهو أن عدد المدعوَّات كان قليلًا جِدًّا، مع أن حدَثًا كهذا يُعتبر في البلاد المتحضرة عيدًا اجتماعيًّا وفنيًّا خطيرًا، تستعدُّ له المهتمات بالفن، وما أكثرهنَّ في مصر، استعدادهن لحفل زفاف عزيز.

ولا أستطيع أن أنهي كلمتي قبل أن أقبل صلاح جاهين على أغانيه التي أرشحه معها لأن يبدأ كتابات أوبريتات من تأليفه.

كذلك لا أستطيع أن أنهي كلمتي قبل أن أُشيد بسهير المرشدي إشادة خاصة؛ فلقد نضجَت المُمثلة الشابة نضوجًا جعلها تَشرخ قلبي بإحساسها بعد أن كانت تشرخه بصوتها العالي، الآن هي تؤدي من الداخل، والداخل يصل مباشرة إلى الداخل، ويعتصره. هنيئًا لك بدور العمر هذا يا سهير وأرجو أن يكون بداية، مجرَّد بداية، لمرحلة تجعلنا نغلي بالغضب وبالرضا بالسخط والإشفاق، بالدموع والضحكات، وأنت تَهمسين، فقط تهمسين.

مبروك يا كرم مطاوع بإيزيسك الصاخبة.

مبروك يا سهير المرشدي على سهيرك الجديدة.

بدلًا من تعذيب النفس، فلنبدأ نفكر

سبَق وكتبتُ أدعو أن نكفَّ عن لطم الخدود وشق الجيوب على أحوالنا العربية المتدهورة، وأن علينا بدلًا من هذا أن نجلس معًا، بجميع اتجاهاتنا، نُناقش في هدوء وبلا أي انفعال أو تبادل اتهامات مشكلة مركبنا العربي الذي أُصيب بطوربيد هائل ثقَبَه من كل نواحيه، وأننا جميعًا في هذا المركب الواحد، المُمتد من عدن الماركسية إلى السعودية الإسلامية، إلى ليبيا المضروبة، إلى العراق، إلى الخليج المهدَّد، إلى مصر المعزولة بالأمر وكجزء من الخطة، نُناقش هذا الذي يصيبنا، تلك الخطة للقضاء علينا، وتشريدنا، وأخذ ما نمتلكه عنوة وتجبرًا، وإضعافنا إلى درجة الصفر. وبعد دراسة هذه الخطة المعادية، نعرف ما طُبق منها، وما الذي في طريقه للتطبيق، ونقوم بإعداد خطة مضادة تُوقف الغرق ونسدُّ بها الثقوب، ونُبقي المركب عائمًا مدة كافية لتصفية الخلافات، والإبحار بالمركب من جديد إلى مرفئه الأمين.

سبَق وأن قُلت إن اللطمَ على الخدود وشقَّ الجيوب، وتمزيق الصدور حزنًا وكمدًا وتأنيبًا لأنفسنا وبكاءً على أطلالنا، هذا كله، جزء من الخطة المدبَّرة لنا، بأن نَنقلِب على أنفسنا نشبعها لومًا وتأنيبًا وتقريعًا. ولوم النفس وتقريعها إلى هذه الدرجة المُخيفة معروف في علم النفس أنه يؤدِّي إلى عكس المطلوب تمامًا؛ إذ هو يؤدِّي إلى مزيد من ارتكاب الأعمال التي تؤدِّي بنا إلى مزيد من تأنيب أنفسنا وإلقاء الذنب على كواهلنا.

أقول هذا بمناسبة فشل انعقاد مؤتمر القمة العربي «الاستثنائي»، وانهيال الكُتَّاب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار لومًا للعرب وللقادة العرب وللحكومات العربية الفاشلة والجامعة العربية الأكثر فشلًا.

نفْس النغمة عقب كل حادث يقع للأمة العربية أو الجزء منها، ونجد أننا عاجزون عن «فعل» شيء إزاء هذا الحدث أو تلك المصيبة.

وبدلًا من أن نُناقش ككُتَّاب ومعلِّقين أسباب هذا العجز عن «الفعل»، ننهال ضربًا لأنفسنا بالسياط وبسلاسل الحديد، حتى ننزف الدم، ننزف الدم من جسد أمة تعاني بالفعل من فقر الدم، وفقر الفكر، وفقر القدرة على العمل والفعل. والنتيجة أننا نزداد شللًا فوق شللنا، وخيبة فوق خيبتنا.

ولأنني لا أريد أن أفعل كالآخرين، وبدلًا من أن أؤنب أنفسنا أو حكوماتنا أو حكامنا، أنهال بالتأنيب على كُتَّابنا ومعلِّقينا وصحفيينا وقادة الرأي فينا. فسأبدأ على الفور في فتح ملف القضية العربية ومن زاوية جديدة، أو على وجه الدقة، من زاوية دراسة لماذا هذا الوضع الذي نحن فيه؟ ولماذا هذا العجز الفاضح عن الفعل، ولماذا هذا الشلل في الإرادة الذي يصل بنا إلى حدٍّ أننا لا نستطيع أن نجتمع كقمة إذا استدعت الحاجة الملحَّة للاجتماع كقمة.

وسأبدأ بالأسئلة الملحة حالًا:

هل السبب هو اختلاف النُّظُم العربية، ومن نُظُم نُسمِّيها رجعية أو قبلية إلى نظم نسميها تقدُّمية أو «صامدة» أو يسارية؟ الجواب بالقطع لا. فأنا أزعم — وقد أكون مخطئًا — أن النظم العربية وإن اختلفت في راياتها والشعارات التي ترفعها، فهي كلها نظم تكاد تكون متشابهة إلى درجة مذهلة.

فعدن مثلًا أو اليمن الجنوبي يقول إنه يَتبع النظام الماركسي. حسنٌ جِدًّا. وهذا العراك الدامي الذي دار بين جناحَي حزبه الماركسي، هل كان من الماركسية في شيء أم أنه عراك قبلي دمًا ولحمًا وتوجُّهًا؟

بلاش اليمن الجنوبية أو الشمالية.

فلنأخذ رأس الرُّمح في النُّظُم العربية الثورية، منظمة التحرير الفلسطينية.

هل تلك الخلافات بين فتح والجبهة الشعبية خلافات جذرية عقائدية حقيقية، وهل إذا كانت تلك الخلافات حقيقية فعلًا، هل تستحقُّ التضحية بالإجماع الفلسطيني الواجب لكسب القضية أو حتى لصُنع قوة فلسطينية يكون لها وزن، على ساحة قتال أو على مائدة مُفاوَضات. بل داخل منظمة فتح نفسها، هل الخلاف بين أبو الزعيم أو بين هذا الجناح أو ذاك خلاف علمي حقيقي له جذوره وأسبابه التي لا يُمكن معها عمل نوع من التقارُب والتصالُح حتى داخل المعسكر الواحد؟

الجواب: لا يوجد. إذن ما الذي يوجد، خلافات فردية هي في صميمها تفرُّعات من القبلية الفكرية أو التنظيمية.

وبمثل ما تحدث الخلافات داخل كل نظام أو دولة على حدة، يحدث نفس الشيء بين الدول والنُّظُم العربية المختلفة. فسوريا مثلًا تصل في خلافها مع الأردن إلى حدِّ الصدام المسلَّح عام ٧٠ مرة، ومع منظمة التحرير تصل إلى حدِّ الزواج الكاثوليكي مرة، ثم الطلاق البائن مرة أخرى، ثم يعود الزواج السوري الأردني على حساب الفلسطينيِّين بعدما كان الخلاف بينهما على أشُدِّه حول الفلسطينيين وطريقة حل القضية الفلسطينية.

وقِس على هذا ما حدث بين مصر السادات وليبيا معمر القذافي، من وحدة وشهر عسل، إلى خلافٍ يصل إلى حدِّ هجوم الجيش المصري على ليبيا أيام السادات، ومن وحدة بين ليبيا وتونس، إلى حالة شبه حربية الآن بين البلدين. وكذلك الوضع بين معمر القذافي والملك حسن من عداء ماحق إلى وحدة متحقِّقة، وبين الجزائر والمغرب؛ فالدم الجزائري يُريقه الدم المغربي والدم المغربي يريقه الدم الجزائري، ليس بسبب البوليزاريو، على ما أعتقد، ولكن الخلاف بين القبيلة الجزائرية والقبيلة المغربية كان سيحدث ولو على مواقف مختلفة عن العلاقات مع جزُر القمر.

وانظر إلى لبنان، هل الدائر هناك حرب تحرير؟ هل هو نزاعات حول عدد وزراء كل طائفة، أم أن الدائر هناك حرب قبلية من الدرجة الأولى، حتى داخل المارونيين أنفسهم؟ هناك قبيلة الجميل وقبيلة فرنجية، وداخل الشيعيِّين أنفسهم هناك قبيلة أمل وقبيلة الشيعيِّين التابعين لإيران أو أولئك التابعين لسوريا.

إذن هذه الخلافات العربية — كإجابة على السؤال الذي طرحته في أول هذه النقطة — ليست خلافات أو اختلافات أنظمة، وليست حزازات قديمة — ولا نزاع حول أرض أو حدود أو حقوق — وإنما هو اختلاف قبَلي محض؛ ذلك لأن جميع النُّظُم التي تحكم الأمة العربية نظم قبَلية من ألفها إلى يائها — حتى إننا في مصر ولمدة طويلة ظلت تحكمنا قبيلة اسمها المخابرات — كما أصبحنا اليوم تحكمنا قبيلة من بقايا المخابرات وهيئة التحرير والرأسمالية الملغاة التي قفزت إلى الوجود بجرة قلم، والرأسمالية النَّهِمة الجشعة اللصَّة التي «وصفها» السادات باسم الانفتاح والانفتاحيين.

والقبيلة نظام بدائي للوجود، لم يختصَّ الله به العرب وحدهم، ولكنه موجود في مجتمعات أفريقية بدائية أخرى، ولقد وُجدت القبلية قبل الإسلام بكثير، وجاء الإسلام ليُلغيها، ولكن هذا الدين العظيم بكل قداسته وقدرته وقوته وقَف أمراءُ مؤمنينه وخلفاؤه عاجزين أمام القبلية العربية فلم يَستطيعوا إلى الآن إلغائها.

ولقد قرأتُ مرة لمؤرخ ألماني — لا أذكر اسمه الآن — كتابًا خطيرًا عن دولة العرب في الأندلس، من أول قيامها إلى سقوط غِرناطة.

وليس هذا مجال عرض ما جاء في هذا الكتاب الجليل، ولكن هذا المؤرخ الجاد العميق استطاع أن يصلَ إلى لبِّ مأساة الأندلس، باعتبار أن الدولة الأندلسية ظلت تعاني من الصراع القبلي الذي جاء مع القبائل العربية، وبالذات تلك القبائل القادمة من اليمن، حتى وصل ذلك الوالي إلى تقسيم الدولة إلى إمارات، ظلت تحارب بعضها البعض، بل وحتى تستعين على بعضها البعض بعدوٍّ المسلمين في ذلك الوقت — الإسبان المسيحيين — حتى اندثرت الدولة عن آخرها، وانتصرت إسبانيا المسيحية في النهاية بفضل القبلية العربية، والتحارب بين القبائل، وليس لأي سبب آخر.

حادثة أخرى سمعتها في الأردن.

ذات يوم بدأ الكُتَّاب يُهاجمون القبلية، ويُنادون بإذابة القبلية في دولة عصرية يصبح كل مواطن فيها عضوًا في قبَلية أكبر وأشمل هي الدولة.

ولكن قيامة زعماء القبائل قامت، وهاج القبَليون وماجوا وتظاهَروا حتى أجبروا الملكَ أن يظهر في التليفزيون ويُعلن لمواطنين أنه أبدًا ليس ضد إلغاء النظام القبلي، وأنه هو شخصيًّا يَفتخر بالقبلية؛ فهو فردٌ في قبيلة، ويعتز بها كل الاعتزاز. وهجعت خواطر القبَليين، وسكت المنادون بالدولة الحديثة، ولم يعودوا إلى الموضوع أبدًا.

وما العيب في القبلية، وهل هي سيئة إلى هذه الدرجة؟!

أبدًا. لا يوجد أيُّ عيب في القبلية بشرط واحد، أن تكون عائشة في عالم قبَلي، وحولها مجتمعات قبلية. حينذاك قد يُكتب لها البقاء؛ فالقبيلة تستطيع أن تحارب أي قبيلة تناوئها، أمَّا أن تحارب القبيلة دولة، مهما كانت قوة القبيلة، فالدولة هي الأقوى وهي التي ستَنتصِر.

وهذا هو الفارق الأساسي بين القبائل (أو النظم العربية) وبين القبيلة اليهودية الإسرائيلية.

لقد عاش اليهود كقبيلة واحدة متَّحدة مذ أوتهم مصر في عصر الفراعنة، وحين خرجوا من مصر جعلوا من العهد القديم «التوراة» وطنَهم القبلي. وهجرة كهذه، وعصر الشتات هذا الذي عاشوه، لم يُضعفهم أبدًا، بالعكس، قوَّاهم إلى درجة غير معقولة؛ فقد تفرَّقوا في أنحاء العالم كله، يتعلَّمون من تقدمه العلمي ويَزدادون التصاقًا بتوراتهم

ووطنهم التوراة، حتى يَحيَوا في «جيتو» واحد، مما جعلهم يمتصُّون تمامًا أحدث ما وصل إليه العقل من عزِّ ازدهار العقل الإسلامي، وأعظم ما تفتَّق عن العقل المسيحي، بغربه وشرقه في عصر النهضة المسيحية، جعلهم يدرسون تلك المجتمعات وعيوبها ومزاياها ويأخذون المزايا، ويتركون العيوب، جعلهم يستفيدون من المزايا الاجتماعية التي تمنحها تلك الدول المسيحية لأفرادها، فيتعلَّمون وينبغون، حتى استطاعوا أن يُسيطروا على أهم شيئين يُسيِّران العالم؛ المال، والعقل، والعقل هنا هو وسائل الإعلام من الصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما، وصناعة نشر الكِتاب. وما دامت قبيلة، حتى ولو كانت متفرقة في جميع أنحاء الأرض، قد استطاعت أن تتَّحد في هذين الهدفين فقط؛ السيطرة على الجيب، والسيطرة على العقل. فقد كان من المحتم في النهاية أن يستطيعوا إخضاع تلك الدول الكبرى لرغبات هرتزل، ويَعقِدوا مؤتمرهم الأوَّل، ثم يحصلوا على وعد بلفور من الإنجليز، ثم في النهاية يُنشئوا دولتهم إسرائيل على أرض عربية فلسطينية مُغتصَبة، ثم يبدءوا يَضربون جيرانهم العرب ويحتلُّون أراضيهم، ويُشعلون نار الفتنة القبلية الدفينة بين شعوبهم وأنظمتهم إلى أن وصلنا إلى هذا الوضع الذي نحن عليه من تشرذم وتمزُّق وانهزام وركوع.

بهذه الطريقة حدَّث (بتشديد الدال) اليهود من قبَلِيَّتهم، رفعوها ليس فقط إلى مستوى الدولة وإنما إلى مستوى الحزب المُترابط الواحد، مهما بدا بين الليكود والعمل وبين أفنيري وشارون، إلى درجة حتى تشجيع أجنحة منهم تُمثِّل دور المعارضة لما تقوم به «الدولة» الإسرائيلية لكي يَبدو الفرد الإسرائيلي — في نظر العالم — إنسانًا شريفًا غير متحيِّز، ديمقراطي النزعة والعقيدة، وليس كما هو في الحقيقة صهيوني، يحسُّ أنه أرقى شعوب الدنيا ومن واجبه وأهدافه أن يحكمها حتى ولو باستعمال أسفل الطُّرُق الفاشية وأبشعها.

أمَّا القبيلة العربية فقد بقيَت على ما هي عليه، حتى داخل الحزب الواحد «كما في الحزب اليمني وحزب البعث»، حتى داخل النظام أو المنظمة الواحدة، بمعنى أنه بينما كان اليهود بقبليَّتهم يتطوَّرون إلى مراكز علمية ومعاصرة كُنَّا نحن نَنحدِر إلى الأكثر تخلُّفًا وانحطاطًا.

ومن باطن الأرض تفجَّر لنا — نحن العرب والمسلمين — كنز كان مفروضًا.

ألا يفنى أو يتبدَّد.

معجزة الطاقة.

البترول.

توقَّعْنا جميعًا أن يتولى البترول القيام بدور المعجزة، التي عجَز الخلفاء والحكم الإسلامي عن حلِّها. مشكلة القبلية. ولكن البترول، أثبَتَ أنه لعنة، زادت قبليتنا تحجُّرًا وتجمُّدًا، ولم نتوقَّف بها عند حدود قبليتها الأولى، ولكنها خلقت أو بالأصح شوَّهت قبليتنا الأولى، وخلقت من هذا الكنز مخلوقًا بَشِع الملامح، أنشب مخالبه في مجتمعاتنا العربية، حتى غير البترولية منها، وجرَّنا إلى أسفل وأسفل.

كيف حدث هذا؟

وهنا يأتي سؤالنا التالي:

هل البترول هو المسئول عن التمزُّق العربي والكارثة العربية، أم إن الأمر أخطر بكثير من مجرد الثروة الطارئة والبترول الخارج من باطن الأرض؟

وهذا هو موضوعنا، إن شاء الله.

الأزمات بالطول أم بالعرض؟

الآن، وبعد أن انزاح كثيرٌ من الهم، أعتقد أنه قد آن الأوان لمناقشة مشكلة الأولويات في حل مشاكلنا؛ فهناك اتفاق يكاد يكون عامًّا — ولا أدري ما الذي جعله كذلك — على مبدأ أن نحل مشاكلنا بطريقة الأوليات؛ فبعد أولوية مشكلة الجلاء عن سيناء تبدأ «أولوية» حل مشكلتنا الاقتصادية، ثم بعدها تأتي «أولوية» حل مشكلتنا السكانية، ثم يليها حل مشكلة التضخم السكاني، وهكذا.

وكأننا نريد أن نَصُفَّ مشاكلنا طابورًا ونحلَّها بادئين بالأكثر حدَّةً فالأقل وهكذا. والغريب أن أحدًا لم يُناقش للآن هذه الطريقة في حل المشاكل وكأنها قضية مسلَّم بها، مع أنها في رأيي طريقة أبدًا لا يُمكن ومن المُستحيل أن تنجح. فلو افترَضْنا الوضع السابق، وجعلنا من المشاكل طابورًا، فإن الذي سوف يحدث أننا حين نكون قد انتهَينا من حل المشكلة رقم «٣» مثلًا في هذا الطابور تكون المشكلة رقم «١» وقد خُيِّلَ إلينا أننا انتهَينا منها بإعطائها الأولوية في الحل، تكون قد عادَت للظهور وبطريقة أحدَّ، وهكذا بالنسبة للمشكلة رقم «٢»؛ ذلك أن رصَّ المشاكل على هيئة طابور طولي قد يصل في علاج مشاكل الفرد الواحد أو العائلة الواحدة، رغم أنه في هذه الحالات الفردية أيضًا لا يَصلح، ما دامت المشاكل موجودة معًا، فالطريقة الوحيدة لحلها هو أن تحلَّ معًا، وفي آنٍ واحد، ولا تحول حدة مشكلة وبين أن تولي نفس الاهتمام للمشاكل الأقل حدة؛ فالتعلم يؤكد لنا أن مشاكل الشعوب كلها جميعها مترابطة ومتسابِبة وكلٌّ منها يؤدي إلى الآخر بحيث لا يُمكن أبدًا الفصل بين المشكلة النتيجة والمشكلة السبب؛ فالمشكلة الاقتصادية تُعتبر مشكلة زيادة السكان هي وجهها الآخر، والمشكلة الاقتصادية والانفجار السكاني، هما بعينهما المشكلة الإسكانية، ولا يُمكن أن يُحلَّ أيٌّ منهما بمعزل عن حلِّ الأخريات.

أقول هذا بمناسبة التركيز على حلِّ المشكلة إلى حدِّ البدء بعقد مؤتمر خاصٍّ لها، فمؤتمر كهذا كان واجبًا أن يكون مجرد لجنة من مؤتمر قومي عام، تطرح فيه كل مشاكلنا دفعة واحدة، وتتدارس العلاقات بينها، ونصل أوَّلًا إلى حلول «عامة» لكافة المشاكل، ثم نبدأ في عمل لجان تخصُّص لإضافة ما تستلزمه كل مشكلة خاصة من إجراءات خاصة للحل.

وما ابتُكرت كلمة «ثورة» للدَّلالة على هوجة سياسية عنيفة تجتاح البلاد، إنما الحل «الثوري» هو في حقيقة أمره حل كافة المشاكل دفعة واحدة؛ إذ إن الإجراء الثوري ليس هو الإجراء الأحمق أو الأهوج أو المتسرِّع، وإنما هو الإجراء العملي الذي تمتدُّ آثاره إلى مختلف المجالات ليحدث التغيير في وقت واحد.

والإجراء الثوري تلجأ إليه الدول حين تتساند المشاكل وتتكاتَف وتتكاثَر، بحيث لا يُمكن رصُّها في طابور طولي وإنما لا بد من رصدها عرضيًّا، وإيجاد الحل الواحد الذي يَقضي عليها معًا وفي وقت واحد.

وأنا لا أعني بالحل الواحد الحل الوحيد، وإنما قد يكون الحل الواحد عدَّة حلول تنفذ معًا.

وأيضًا أنا لا أتحدَّث هنا عن «مضمون» الحل، ولكني أتحدَّث عن شكل المعالجة؛ إذ مضمون الحل لا يُمكن أن يَضعه قلم واحد أو إنسان واحد، وإنما هو مؤتمر واحد لا يُناقش «مصر الغد» وإنما أوَّلًا يناقش «مصر اليوم» لنعرف أين نحن أوَّلًا قبل أن نعرف إلى أين نسير.

أليس هذا هو المَنطِق في أبسط صوره!

ماذا نفعل بياميت؟

أنا ضد أن نَضرب بمعول واحد في أنقاض «ياميت» لإحيائها، فلنتركها كما تركها الإسرائيليون، ذكرى لمعنى أن يحتلَّ أجنبي أرضنا؛ إذ هو لا يحتلُّها كما يتصوَّر بعض الحمقى ليُعمِّرَها، وإنما هو يحتلها ليُخربها. إن الاحتلال كشمشون الجبار، إمَّا أن يكون المعبد له وحده، لا يشاركه فيه أحد، وإمَّا أن يهدمه، لا عليه وإنما على أصدقائه وأعدائه فقط.

وقد هدمت القوات الإسرائيلية ياميت على سيناء، فما دامت قد أصبحت بالجلاء عنها مصرية، فلتنهدِم على مصريتها.

فلنترك الأنقاض، تمثالًا حيًّا لطاقة العدوان حين لا تجد لها متنفَّسًا سوى المباني تخربها، والأشجار تقتلعها، والخضرة تحرقها.

كثيرًا ما سمعنا عن إسرائيل القطعة من أوروبا التي غُرست في شرقنا العربي المتخلِّف، إسرائيل الحضارة والديمقراطية والاشتراكية، إسرائيل التي طالَما عايَرُونا بديمقراطيتها، وطالَما حدَّثونا عن روعة فِرَقها السيمفونية وعظمة علومها ومُستشفياتها ورقيِّ إنسانها.

إني لأعجب لشعب بهذا الرقي أن يملك هذا الكم من الطاقات المخرِّبة والعدوانية.

إني أعتقد أن هذه الطاقة العدوانية كانت موجَّهة ضد فكرة السلام نفسها، وكأنَّ النفوس حين تهجع، والإنسان حين يرتدُّ إلى طبيعته السمحة يُصبح عدوًّا من أعداء هؤلاء المَهووسين بالعنف ومنطق القوة، ولهم الحق.

فالسلام عدوُّ العدوان، والذين يَحتوون داخل صدورهم على كل تلك الطاقة العُدوانية يَكرهون بالضرورة فكرة السلام نفسها؛ لأن السلام هو الكفيل بـ «قتل» تلك الطاقة، هو الكفيل بإعادتهم بشرًا سويًّا.

وهكذا بينما نحن فرحون حقيقة بالسلام؛ لأنه امتداد لطبيعتنا السمحة، فهناك الكثيرون على الجانب الآخر ضيِّقون به.

وأطلال ياميت خير شاهد.

فلنتركها لتذكرنا دائمًا بأيام الحقد الأسود، ولتجعلنا نُحذِّر أن تستيقظ هذه الطاقة المدمِّرة من جديد.

أو على الأقل فلنبْنِ نحن نصفَها لنُدلِّل على نوايانا.

ولنُبقِ النصف الآخر كما أبقت اليابان جزءًا من هيروشيما المدمَّرة نصبًا تذكاريًّا لطاقة العدوان الذرية.

فكم كنتُ أودُّ لو تصرَّفَتِ القوات الإسرائيلية تصرُّفًا حضاريًّا ووازنت، بعقل لا غلَّ فيه، بين المرارة الناتجة عن الجلاء أو الإجلاء، وبين المعنى اللاإنساني الذي تتركه مذبحة الأشجار والنباتات والبيوت.

ولكن، هل الأشجار والبيوت أغلى مِن المعابد والمساجد؟

أهو مجرد حظ عاثر؟

أهو مجرد الحظ العاثر أن يُقابَل فنان كبير عاد إلى وطنِه بعد ظروف محلية سادت المسرح المصري وأجبرت فنَّانيه الجادين على الكفِّ عن الكتابة أو الإخراج أو حتى التمثيل إذا بقوا في الداخل، أو أجبرت بعضهم على الهجرة إلى الخارج وإلى بلاد لا تزال تنظر إلى المسرح بجدية والتزام.

أهو مجرد الحظ العاثر أن يُقابَل فنان ككرم مطاوع بهذا الكم من الرجم بالطوب والزلط لأنه عاد، ولأنه يتمتَّع بمواهب وخصال نفس ذلك الفنان الذي كُنَّا نُقيم له حفلات التكريم وهو موجود بيننا؟

أهو مجرد الحظ العاثر أن تكتب كلمات عنه هي في واقعها بلاغات إلى مباحث أمن الدولة، في حين أن الرجل قد حقَّقت معه نيابة أمن الدولة — يا له من استقبال — لحظة وضعه قدمه على أرض الوطن؟ أم هو حظ مسرحية «روض الفرج» أو كما أَسميتها فجر عودة المسرح المصري الحقيقي لمؤلفها الدكتور سمير سرحان ونجومها سهير المرشدي وأمين الهنيدي وأحمد الناغي وفاروق نجيب وعبد الحفيظ التطاوي وسمير حسني ومحمود الوافي وغيرهم من الكتيبة الفنية التي حقَّقت واحدًا من أهم العروض المسرحية في السنين الأخيرة.

أهو أيضًا الحظ العاثر أن — في النهاية — وقد بدأت المسرحية تقف على أقدامها وتقهر أعداءها ومُعارضيها أن تحترق المسرحية، ويَحترق الجزء الخاص بها من المسرح فقط وأن يحدث ماس كهربي في يوم عطلة المسرح وسكينة الكهرباء مرفوعة، وألا يمسَّ الحريق إلا الديكور المسرحي وغرفة البطلة؟

أهذا كله مجرد حظ عاثر؟

إذا تكاثر الحظ العاثر بمثل هذه الكثافة، فلا بد أن ينتفي فرض الصدفة المحضة، ولا بد أن يطل وجه كئيب: أن الفن الحقيقي، في كل مجال، أصبح له أعداء حقيقيون، يَملكون كل شيء، وباستطاعتهم أن يُدمِّروا أي شيء، وأن الدولة هنا، ووزارة الثقافة على وجه التحديد، لا يجب أن تقف موقف المتفرج.

وعلى الأقل مثلما بادرت المطافئ بعد دقيقتَين وأطفأت الحريق، أن تُطفئ الوزارة الحريق المشبوب في صدر كل غيور على المسرح في بلادنا، وأن تُهيِّئ للمسرحية استمرار عرضها، وفي الحال.

أجهزة التفجير

نعم ...

من حق كل مواطن إذا تجمعت لديه أسباب السخط أن يَسخط.

نعم ...

من حق كل مواطن إذا تجمَّعت لديه أسباب الغضب أن يغضب.

نعم ...

هناك في كل عصر في مصر وفي كل حين بعض ما يُسخط ويُغضب، ولكن الذي ليس من حقه أبدًا أن يفعل كالأطفال إذا سخطوا أو غضبوا أن يُحطِّموا ويحرقوا ويقتلوا وينهبوا.

لأنه في هذه الحالة، حتى لو كانت طفلية أو متخلفة عقليًّا، إنما يُحطِّم ويخرب ويحرق بيته هو وممتلكاته هو، وإذا قتَل إنما يَقتُل أخاه. ومصر الحلوب الذي منها يتغذى، وبفضلها يحيا، وفي ظلها يجد الأمان والمنزل والمستقر، تُصبح هي العدوة، عدوته. وكلنا نعرف وندرك ونرى أن التجنيد في كل دولة أو قطر فترة شاقة وعسيرة على نفس كل شاب، فهي واجب إجباري قسري تفرض على المواطن الشاب ضريبة الدفاع عن أهله وناسِه وأمِّه وشرفه وأخواته وأبنائه من بعده. بلا جند أو تجنيد لا يوجد نظام، وبلا نظام لا توجد دولة، وبلا دولة نعيش كلنا في حالة ذعر أعظم؛ فالذي يُبقينا أحياءً مطمئنين، نعيش الحاضر، ونرنو إلى المستقبل، هو اطمئناننا إلى أنه — رغم ما قد يُصيبُنا من تأزُّم وأزمات، رغم المشاكل والمِحَن، رغم الأخطاء والمظالم، رغم كل شيء — في النهاية نرتكن بظهورنا ونريح رءوسنا، وننام ملء جفوننا، ونصحو لنعمل، ونئوب لنستريح ونستقر. نفعل كل هذا؛ لأننا نُدرك تمام الإدراك، أن وراء ذلك الاطمئنان، ووراء الأمان، ووراء إحساسنا

بالونس، توجد دولة، مهما اختلفنا معها، فهي لنا بمثابة الأب، ومهما اعترضنا على بعض تصرُّفاتها، فإنما هو اعتراض الابن الشرعي على بعض تصرُّفات الأب الشرعي أيضًا.

أمَّا أن يحدث أن نجد فجأة راعينا قد تحوَّل إلى مُرعبنا، وأن حامينا وقد تحوَّل إلى حرامينا، وأن الذين يَسهرون علينا فاجئونا ونحن نائمين بتصرُّفات مذعورين تدعو إلى الذعر، وبهياج أحمق أرعنَ يُثير فينا الرعب والارتباك والفوضى، فتلك مسألة خطيرة جِدًّا.

خطيرة لأنها مفاجأة لم يَسبقها مطالب ولا قامت بناءً على تحذير، خطيرة لأنه حين يَخرق النظام مَن مهمته الأولى حفظ النظام.

حين يحدث هذا لا تتقوَّض الدولة — حمدًا لله — ففي أجهزتها الأخرى ما يكفي لإعادة النظام وحماية أمن المواطنين، ولكنها خطيرة لأنها تجعلنا ندرك أننا وقعنا ضحية غدر، وغدر أبشع أنواع الغدر، لأنه صادر عن حُماتنا من أي غدر. إنني، وكلنا، نعرف الظروف البائسة التي يعيش فيها ذلك الشباب القادم من الريف، الغريب في المدينة، الغريب على المدينة، الجائع في الغالب، الساهر على حراسة سفارات أجنبية لا يعرف عنها شيئًا، وأبنية لا يعرف لماذا ولحساب من يَحرُسها، واقف بلا مكان يَجلس فيه، واقف وكأنه مُذنِب، محروم من كثير من مُتَع الحياة، بل كلها، وأمامه وعلى مرأى منه، فنادق وحياة فاخِرة، يرى نساءها ورجالها، يرى الطعام والشراب، والعربات الفاخرة، وهو بردان، جوعان، يعدُّ الليالي والساعات التي سوف تَنتهي عندها «عقوبة» تجنيده.

لماذا جعلنا من التجنيد، وفي قوات الأمن بالذات، ما يشبه العقوبة؟

إذ لا بد كانت تستحيل هذه الفترة إلى فترة تهذيب، وتثقيف، وتدريبِ شَباب شجاع، وإفهامهم المسئولية العُظمى التي يقومون بها، حينذاك، يعرفون ويعون بدورهم الذي لم نحفل كثيرًا بإفهامهم خطورته وأهميته وتقديرنا لتضحيتهم في سبيله.

إذن هناك — ما في ذلك شك — ضرورةٌ لتغيير أسلوب التجنيد وطريقة المعاملة، وحتمية أن تتدخل الإنسانية والإحساس بالشرف والكرامة والمواطنة والتقدير لطريقة معاملة هؤلاء المواطنين.

ولكن هذا هو الخطأ الأصغر الذي كان ممكنًا، بل لا بد من إصلاحه.

أمَّا الخطر الأكبر، الخطأ الذي لا يُغتفر، الخطأ الذي لا يقلُّ عن جريمة الهروب من صفوف المقاتلين في الحرب، أو التحول لقتال المواطنين الذين كان مفروضًا أن يُدافعوا عنهم، فذلك هو الشيء الذي جدَّ علينا خلال الأيام الماضية، والذي أعتقد أنه ليس تصرفًا تلقائيًّا من هؤلاء الجنود الشبان الفلاحين الجدعان، الذين كانوا يَعتبرون لباس الجندية

حين يعودون من الإجازة إلى قُرَاهُم علامة فخر، وشرف ونيشان، يتباهون به على أبناء بلدتهم وفتياتهم.

نعم، إنها فتنة، كان هؤلاء الشبان ضحيتها ووقودها الملوَّثة أيديهم بجرمها.

وعلينا، وعلى وزارة الداخلية، أن تبحث عن رأس الفتنة، تلك التي عرفت وأدركت لماذا على وجه خاص كان عليها أن تُفجِّر سور سجن طرة بالذات، ذلك الذي يحوي قيادات وعناصر معروف تمامًا دورها، ومعروف لماذا حُبست، وماذا يمكن أن يحدث لو هربت أو هُربت، وأي جحيم في بلادنا ممكن أن تشعله لو أُطلق لها العنان.

إني لا أحضُّ على حبس أو عقاب، ولكني أطلب، وبشدة، إدراك الأسباب، وما وراء الأسباب، ومن وراء الأسباب.

فأمس كان الطلبة، واليوم جنود الأمن المركزي، وإذا استطاعوا ونحن غافلون أن يضمُّوا هؤلاء إلى هؤلاء إلى الآخرين، انتهت القصة، وتقوَّض البيت (الدولة) الذي نحيا في كنفه، وحكم الطاغوت الذي يتربَّص بنا، ولن يَيئَس.

إن ما حدث قد يكون انفجارة تلقائية، ولكني، ولا قوانين العلم كلها، تُقرُّ أن الأشياء أو الناس يَنفَجِرون من تلقاء ذاتهم، هناك دائمًا أجهزة تفجير، ورءوس تفجير، وقيادات تفجير، وخطط تفجير. هناك هذا كله دائمًا وراء أي انفجار، ولهذا فالمعركة ليست فقط منْع تجوُّل، أو حبْس ناس، أو تصوير هؤلاء الشباب وكأنهم الشياطين. المعركة معركة خوض حرب فكرية ضروس، لإخراص دعاة الفتنة، لاجتثاث الأفكار التي استُزرعت في المجتمع المصري ووفدت إلينا من بلاد أخرى يهمها أن يتقوَّض البناء الحضاري الثقافي والسياسي المصري، مُتنكِّرين في أشكال، أو مجيدة للتنكر، وأجسادها الظاهرة هي تلك الجماهير الطيبة العريضة، سواء كانت منظمة كطلبة أو كجنود، أو مستغلِّين حسن نيتها وانقيادها ما دام مدبروها رافعين شعارات براقة وكلمات حق يقصد بها باطل خبيث.

وقد لا يبدو ما أقول مفهومًا.

ولكننا، وهذا هو المضحك المؤسي، كلنا نعرف، وندرك، ومتأكِّدون تمامًا مما نعرف، ولا نصنع شيئًا.

حكومةً أو شعبًا.

الجانب الآخر للمأساة

كانت الأيام «المأساوية» القليلة الماضية، من الأيام النادرة التي اعتززتُ فيها بمصريتي كما لم أعتز بها في حياتي.

منذ بضعة أعوام انقطع التيار الكهربائي عن مدينة نيويورك لعدَّة ساعات، قام السكان فيها وكأنما أصابَهم السعار، يُحطِّمون المحلات، ويَنهبون البضائع، ويَغتصبون وينهبون، وكل هذا وبوليس نيويورك بكافة عدَّته وعتاده وأجهزته سليم وموجود، وغير قادر أن يَضع أو يوقف شيئًا. وفي الأيام القليلة الماضية أُلغي عندنا تمامًا جهاز الأمن المركزي الذي حلَّ محل شاويش الدورية، وعساكر الأمن، والذي كان وحده يقوم بحماية المنشآت والمحلات والسفارات وكل المراكز الحيوية في مصر بما فيها من مؤسسات وبنوك، بل تحول هذا الجهاز من جهاز حافظ للأمن إلى مجموعات تنتهك الأمن وتُحرِّض على ارتكاب جرائم الحرق والنهب والسلب والقتل.

فماذا حدث؟

لم يُنهب محل واحد.

لم تقع جريمة سرقة واحدة.

لم يَقتل مواطنٌ مواطنًا، ولا اغتُصبت مواطنة.

كانت مصر تقريبًا بلا جهاز حراسة أو أمن، مفتوحة الأذرع لأي جريمة قد تقع، فلم يكن هناك أحد باستطاعته أن يَمنع الجريمة، ورغم هذا — كما قلت — لم تقع جريمة واحدة.

إن المقارنة بين الحادثين تُعرِّفنا الكثير جِدًّا عن شعبنا، ذلك الذي لا نزال نذاكر كتابه ولم نَفرُغ من محتوياته وأعماقه بعد.

فالذي حدث أن شعبنا، الشعب المصري، وحتى قبل أو بدون هبوط القوات المسلحة الخاصة شوارع العاصمة، وقف كالديدبان، يحرس المدينة، ويمنع الجريمة، باختصار، أحال كل مصري نفسه إلى جندي أمن وكأنه وحده أصبح المسئول عن أمننا.

في ظلِّ الظروف الاقتصادية والمعيشية الصعبة التي نحياها، كان ممكنًا أن تحدث أهوال وأهوال من أي شعب آخر في الدنيا. فأمريكا التي يضربون بها المثل في رقيِّ الحياة فيها وغِناها، حدث فيها ما ذكرت، وأي دولة أخرى في العالم، أقل ثروة وحضارة، كان ممكنًا أن يحدث فيها أضعاف أضعاف ما حدث في نيويورك.

ولكن هنا في مصر، حدَث العكس تمامًا، اللصوص كفوا عن السرقة، والنشالون كفوا عن النشل، وتحول الجميع من شرفاء أو مُجرمين سابقين أو أناس عاديِّين إلى حُرَّاس أمن، أمن مصر.

وهنا لا بد لنا من وقفة سريعة نعرف فيها معنى آخر لكلمة سبعة آلاف سنة حضارة تلك التي طالما ردَّدها البعض كالببغاوات وهم لا يُدركون حقيقة معناها.

إنَّ الحضارة هي إنسان متحضِّر.

والإنسان لا يتحضر بالتعليم فالتعليم يُعلِّم، ولا بالثقافة فالثقافة تُثقِّف، ولا بالثراء فالثراء قد يفسد، ولا بمستوى المعيشة فقد تجد فقراء في حياتهم أكثر «تحضُّرًا» من أغنى الأغنياء.

الحضارة تركيب جيولوجي بشري داخل النفس، تراكم طبقة فوقها طبقة، لكي يَصل إلى المادة الإنسانية الحية الأنضج والأعظم، فمثلما باطن الكرة الأرضية كتلة من النار الملتهبة البدائية، حين نَصعد إلى فوق نجد الكتلة البدائية وقد بدأت تَكتسب صفات أكثر تعقيدًا أي أكثر تحضُّرًا، وهكذا إلى أن تحصل رحلة التحضر إلى أن نصل إلى الحياة نباتًا وإنسانًا وحيوانًا. إنَّ في مظاهر تحضُّر المادة الكونية البدائية؛ إذ هي المادة الزكية التي تحسُّ وتشعر وتنفعل وتتفاعَل وتخلق وتبتكر وتحبُّ وتكره، وهي وحدها والإنسان أرقى مخلوقات الله سبحانه على الأرض، هو الوحيد الواعي بنفسه وبالكون، هو الوحيد الواعي بالله، هو الوحيد الواعي بأنه وُلد وأنه يومًا سيموت، وأن ما بين موته وميلاده يجب أن يحيل الكون والأرض والناس من حوله إلى جنة.

ولقد بدا الشعب المصري مثل غيره من الشعوب، قبائل صيد وقنص، بلغت من التحضُّر حد الاندماج التدريجي، وبهذه القفزة اكتشف شعبنا أول وأخطر اكتشاف علمي عرفته البشرية، الزراعة، وتكنولوجيا أن «تصنع» أنت النبات بدل أن يَنمو من تلقاء ذاته وبالصدفة.

ومنذ هذا الاكتشاف بدأ التحضُّر المصري يتسارع حتى تشكل من القبائل دولتان ضمهما مينا في دولة واحدة، والمسافة الزمنية بين وجود الإنسان كقبيلة ووجوده كمُجتمع أو كدولة قد تأخُذ آلاف السنين، فما بالك ونحن قد قطعنا تلك المسافة قبل عصر مينا، بمعنى أن حضارتنا ليس عمرها سبعة آلاف عام، ولكنها بالأقل عشرة أو خمسة عشر ألف عام. والحضارة الزراعية التي بدأناها منذ فجر التاريخ ولا نزال نحياها إلى الآن واحدة من أرقى الحضارات البشرية، فهي لا تعتمد على القوة الغاشمة أو الاغتصاب أو العدوان، إنما تَعتمد على التعاون والتكاتُف وتنظيم جهاز حكم عادل ومحو كل آثار البدائية والقبلية، وتعليم الناس الغيرية ومساعدة الآخرين. وفي ريف مصر لا يزال إلى الآن نظام يُسَمَّى نظام «المزاملة»، بمعنى أن الفلاح يُساعد جاره حين يكثر العمل لدى جاره في مقابل أن يعمل الجار عنده حين يَكثُر عنده العمل.

إذن نحن، وإن كانت الأمية سائدة والمعيشة صعبة والتكنولوجيا بدائية ومتخلِّفة، إلا أننا أكثر تحضُّرًا من الشعوب التي لا يوجد بها أُميٌّ واحد وتَملِك أرقى أنواع التكنولوجيا وأكبر قدر من الثروة والقمح والطاقة والأسرار العلمية العليا.

وأذكر أني كنتُ قد كتبتُ هنا في مجال زيارة الرئيس محمد حسني مبارك لافتتاح مسرح الأزبكية ومسرحية إيزيس، وضقت باحتلال الأمن المركزي لقلب المدينة قبل المَوكِب بساعات، وقلت إن الذي يحافظ على الرئيس ويرعاه ليس الأمن المركزي وإنما هو قلوب الشعب وحسه ونبضه، وارتباطه بذلك الرجل الذي اختاره رئيسًا.

ذلك الرجل …

لو كنتُ من الرئيس حسني مبارك لاعتبرتُ أن الأيام القليلة الماضية أيامٌ من أمجد أيام حياتي؛ ذلك أنها لم تكن فقط أيام تمرُّد وتدمير، ولكنها كانت بالدرجة الأولى أيام انتخاب. أجل، انتخاب دون تدخُّل وزير الداخلية ليُزوِّر أو وزير الحكم المحلي ليضغط، بل دون تدخل جهاز أو هيئة أو بوليس، بل برغم تدخل الأمن المركزي ضد الحكومة وقف الشعب وقفة رجل واحد يَنتخِب بمطلق حريته وإرادته بكامل قواه ورشده، فينتخب حسني مبارك ونظام حسني مبارك ويقول له: نعم، أريدك أنت. ويقولُها بأصوات لا تقل حقيقة عن ٩٩ في المائة صحيحة، كلها صحيحة وممهورة بإمضاء الشعب وتوقيعِه وبصماته. قالها الشعب ولا يزال يقولها وحافَظَ للرئيس على نظامه بدون تدخل حزبي أو قيادات حزبية، وأسلمه البلاد طائعًا مختارًا لأن في هذا الرجل نفس ما في قلب كل

مصري على مصري، نفس الود والمحبة والإخلاص، وإن كانت العقبات أكبر، والظروف أصعب، فهذا ما دفعنا لانتخابه أكثر؛ لأنه في المِحَن تجتمع القلوب على القلوب وتصفو النفوس إلى النفوس، ويتبدى كل ما في نفوس المواطنين من خير وحق وعدل وإنسانية وتواصُل.

أُهنئك أيها الرئيس مبارك بهذه النتيجة التي لم يُحقِّقها حاكم قبلك، وفي نفسي أُحمِّلك ومعي الشعب كله مسئولية هذه النتيجة، فها هو الشعب كله معك، وها هو يحميك بقلوبه وأرواحه وانتظامه، ويُحيطك. هذا شعب يستحق منك أن تفعل من أجله ما لا طاقة لك به؛ فقد فعل من أجلك ما لم يفعله شعب لحاكم على مدى التاريخ.

يدنا في يدك أيها الرئيس، لنجعل من انتكاسة الأمن المركزي نقطة بداية لاستقرار حكم يثق في المواطنين ويمنحهم الحرية، فهم لا يستعملونها أبدًا في تخريب أو تخريف، وإنما يستعملونها ليجعلوا من بلادهم مكانًا أفضل للحياة وللبقاء وللأولاد والبنات من بعدهم.

يدنا في يدك.

يد شعب عظيم في يد رئيس يُحبُّه، ويهيب به أن يمضي قدمًا دون خشية من هؤلاء أو أولئك؛ فالشعب معك، والشعب هو الأقوى وأكثر قوة بك، فامض يا رجل وغيِّر إلى الأحسن، وردَّ على حب الناس بالثقة فيهم، والرعاية الأكثر لهم، والطموح الأكبر من أجلهم.

يا شعبنا.

يا رئيسنا.

مصر لم تَمُت، ولن تموت، مصر قائمة وقادرة وستقوم وتقدر. مصر ستصحو لأنها لا تزال صاحية وأبدًا لم تَنَمْ، ولن تنام حتى تحقق الغد الأمجد.

ولا أملك في نهاية تلك الكلمة العاجلة إلا أن أفعل كما كنت أفعل في الثانوي والجامعة والدموع تترقرق في عيني، وأهتف وأقول:

يحيا الشعب المصري.

أفتح الحنفية ينزل كوكايين

أنا شخصيًّا مذهول ومندهش من هذه الخاصية «القطيعية» التي يتمتَّع بها إعلامنا المُوقر، أن يعقد الرئيس اجتماعًا مع كبار المسئولين يُناقش فيه كثيرًا من مشاكل مصر العليا، ومن ضمنها وقوع كثير من المصريين ضحايا لُمخدِّرات جديدة علينا، أو بالأصح على أجيالنا، تمامًا، مثل الهيروين والكوكايين شمًّا. وأمَّا أن يتحول هذا التوجيه إلى «حمَّى» تسري في أنحاء المجتمع كله، صحافة وإذاعة وتليفزيون، وأحاديث دينية، حتى «حديث الرُّوح» يتحدث عن «الكوكايين»، و«خمسة لصحتك»، و«لحظة من فضلك»، و«حديث الصباح»، و«سهرة المساء»، و«مساء السهرة»، كوكايين، هيروين، الموت، السم الزعاف، نهاية العمر، التأثير المروع على القدرة الجنسية، والعصبية والنفسية، الإدمان، الجنون، لا علاج من إدمان الكوكايين؛ فالمريض إذا خرج يعود، وإذا تعود انتهى.

حُمى مخيفة أمامي ومن خلفي وعلى جانبي، وفي السيارة والأتوبيس، ومع راكبي التاكسي، وجلسات العائلات إن جلست، ونميمة الزائرات والزائرين كلما جاءوا و«نمُّوا» حمى رهيبة، وطوفان حتى إني تصورت أني لو فتحت الحنفية لنزل لي منها وابل من الكوكايين والهيروين، وإذا فتحت النافذة ستهبُّ عليَّ عاصفة من دخان الحشيش، وإذا أكلت «محشي» في عزومة فسأجدُه محشوًّا بالأفيون وجوزة الطيب.

ما هذا يا إخواني؟

لقد هالني الأمر حقًّا، وظننت أننا أُصبْنا بضرر لا نجاة منه، ولي ولدان شابان في عمر الزهور، ويَرودان النوادي والجلسات، ولاحظت في المدة الأخيرة أني دائم النظر إلى عيونهما لأرى فيها أي احمرار طارئ، حتى ابنتي الصغيرة سألتني: ما هو هذا الكوكايين يا بابا؟

قلت لها: إنها مادَّة مخدِّرة.

قالت: أعرف هذا، ولكن شكلها إيه؟ طعمها إيه؟ لونها إيه؟

قلت: والله يا بنتي أنا ما رأيتها في حياتي.

قالت: كيف وأنت قد درست الطب والعقاقير ولا بد أنهم أروها لك؟

قلت لها: الحقيقة أنه كان مفروضًا أن أراها، ولكن قسم العقاقير كله وقسم المادة الطبية (الماثيرياميديكا) لم يكن به، بل في مصر كلها أي كوكايين أيامها (في الخمسينيات) ولا أي هيروين. هم أرونا فقط قطعة حشيش وقطعة أفيون، وكانت كلتاهما موضوعة في برطمان مشمع بالشمع الأحمر وعليه خاتم الأستاذ رئيس القسم (الدكتور شريف) رحمه الله. ولما سألنا عن السر في هذا الخاتم وعن ضرورة أن نتعرَّف على المادة ونلمسها ونشمَّها باعتبارنا من الممكن أن نُمتحن فيها، قالوا: لقد كُنَّا نفعل هذا منذ بضع سنوات، ولكنا كُنَّا نلاحظ تناقُص عُهدة الحشيش بالذات، عقب كل فصل عملي، فأصرَّ مساعد المعمل (حتى لا يروح في داهية إذا خلصت عهدته) أن نضعها هكذا بحيث لا يَلمسها أي طالب. ولما جادلنا وقلنا: وماذا نفعل إذا جاءت لنا في الامتحان الشفوي ولم نستطع أن نتعرف عليها؟ قال لنا المرحوم الدكتور شريف: اطمئنوا، إننا لا نأتي بها أبدًا في الامتحانات، اعتبروها خارج المقرر، ونحن نريكم إياها فقط لتتعرَّفوا عليها — من بعيد لبعيد — ولأغراض الطب الشرعي فيما بعد حين تدرسونه، وليس لأغراض اللمس والشم والتعرف كما هي العادة مع جميع العقاقير الأخرى.

هذه الحملة الإعلانية الرهيبة أحدثت للأسف الشديد أثرًا عكسيًّا تمامًا، حتى إن حب استطلاع الكاتب جعله يتساءل هو الآخر: ما هي بالضبط مادة الكوكايين؟ وكيف تُستخلَص؟ وما هو طعمها ولونها؟ وللأسف حين سألت بعضَ شبان أحد النوادي الكبرى في عاصمتِنا، كانت معلوماتهم عن «الأبيض» أي الكوكايين و«الأسمر» أي الهيروين وافرة تمامًا، وأيضًا عن كيفية التعاطي وأنواع التعاطي، بالشم أو بالشد أو بالحقن في الوريد. ولما تساءلت عن هذه «الشيشات» الصغيرة التي تشبه «البيبة» تطوع واحد منهم طويل الباع قال لي إنها تستعمل لاستنشاق ما سماه «القاعدة الأساسية» وهي أقوى أنواع الكوكايين.

أرأيتم ماذا يصنع الإعلام المغلوط؟

حتى لو كان عن مادة ضارة أو قاتلة؟

إنه يُثير لدى الشاب حب الاستطلاع الشديد لمعرفة هذا الشيء السري الغامض الذي يتحدث الجميع عنه، وهي إحدى طبائع البشر التي لا يُمكنه الخلاص منها. أذكر وأنا

طالب في كلية الطب أنه حدثت موجة دعائية واسعة ضد الشيوعية (أيام حكم صدقي)، وحدثت اعتقالات، وكنا جميعًا نحن الشبان الكبار نتحدَّث عن الشيوعية، ولم يكن أحد قد قرأ عنها أو لها شيئًا، وهكذا بدأ حب استطلاعنا يجاز لكي نعرف، وما كان الشاب مِنَّا يجد كتابًا يتحدث عن الشيوعية أو الاشتراكية ويقابل إنسانًا معروفًا عنه أنه شيوعي أو اشتراكي إلا ويحس أنه عثر على كنز، ويبدأ ينهال عليه بالأسئلة.

وطبعًا لم يعتنق الجميع الشيوعية، ولكن نسبة كبيرة صعدت من حب الاستطلاع إلى الدراسة إلى «الإدمان».

وهذا هو بالضبط ما فعلناه بحكاية الجماعات الإسلامية، أخذنا نحاربها ونتحدث عنها ونحن لا نعرف عنها شيئًا، والشباب بحكم طبيعته شديد الشغف لمعرفة شيء عنها، وهكذا ما كان هذا الشاب يكاد يلتقي بشاب ملتحٍ في مسجد حتى يتسمر أمامه واقفًا سائلًا طالبًا المعرفة التي غالبًا ما كانت تَنتهي بالانضمام.

ولكني في زيارتي لذلك النادي الكبير واجتماعي بأكثر من عشرة شبان فيه، أحببت أن أعرف الحقيقة المجردة بعيدًا عن تهاويل الإعلام.

فسألتهم: هل تعرفون شبانًا يتعاطون هذه المواد في النادي؟

فكانت الإجابة: نعم.

ولكني عُدت أسأل واحدًا منهم بالذات كان يبدو اجتماعيًّا كثير المعارف والاختلاط: إني أسألك عن شلتك أنت بالذات، كم شابًّا تعرفه معرفة شخصية دقيقة في هذا النادي؟

قال: حوالي عشرين.

قلت: كم واحدًا منهم يتعاطى الكوكايين؟

قال: إلى الآن لا أحد؛ لأن الكوكايين غالٍ جِدًّا، ولكن بعضهم يتعاطى الهيروين.

قلت: كم واحدًا؟

قال: حوالي اثنين أو ثلاثة.

قلت: أنا أريد العدد بالضبط.

قال: قبل حملة مكافحة المخدرات الأخيرة كانوا اثنين، بعد الحملة أصبحوا ثلاثة.

وهنا أتوقَّف وقفة تأمل معكم.

فليس الأمر أمر مخدِّرات هذه المرة.

وليس الأمر أمر جهات أجنبية تتولى «تسميم» عقول الشباب.

ولكنه أمر خطير جِدًّا، أمر طريقتنا في علاج مشاكلنا.

ولقد كنت منذ بضعة أشهر أستاذًا زائرًا في جامعة لوس أنجيلوس، ومدينة لوس أنجيلوس تُعتبر أكبر مدينة أمريكية مُستهلِكة للكوكايين والهيروين بالذات، باعتبارها لصيقة بالحدود المكسيكية الأمريكية التي تُعتبَر أهم وكر لاستيراد وتخزين وتهريب الكوكايين لأمريكا بواسطة تجار المافيا وعصاباتها.

والأمر في مجال الشباب والشابات، بالذات ليس، أمرًا واحدًا من كل عشرين أو اثنين، إنه أمر يصل إلى ٥٠٪ من سيدات وبنات لوس أنجيلوس الباحثات عن النجومية والشهرة وهوليود اللاتي غالبًا ما يُصَبن بالإحباط وينتهين إلى مخدر ما يحتاج نقودًا، والنقود تحتاج أجسادًا تُباع، ورقيقًا أبيض، ومصائب كثيرة، لا أول لها ولا آخر.

بمعنى أن كارثة المخدِّرات في لوس أنجيلوس لا تُقاس أبدًا بما بدأ يحدث هنا في القاهرة أو غيرها، إنها هناك كارثة قومية بالفعل.

فكيف عالجوا، ويعالجون هذه الكارثة؟

لاحظت من طول ما شاهدتُ التليفزيون بمحطاته الكثيرة هناك أن لا أحد يتحدث عن «ضرر» المخدِّر أبدًا، أو يُصوِّر الانحدار المخيف الذي يحدث للشخصية إذا تعوَّدت عليه؛ لأن تصوير هذا الانحدار نفسه يخلق في المشاهد الصحيح غير المجرِّب الرغبة في تجربة هذا الانحدار، فداخل النفس البشرية قوة بانية ترغب في الحياة وتُحبها، وقوة هادمة ضائقة بالحياة وتُحبِّذ التخلص منها، وقد لاحظ العلماء أن عدد المدخنين في العالم، وبالذات من الشباب، قد كثر بشكل مذهل بعد أن أرغمت الحكومات شركات السجائر على وضع شعار «التدخين ضار جِدًّا بالصحة»؛ فهذا الشعار يداعب وتر الضِّيق من الحياة والرغبة في التخلص منها، خاصة لو كان هذا التخلص ليس بالشكل العنيف مثل قطع شريان اليد أو الموت شنقًا بكرافتة.

فهذه القوة الهادمة للحياة تُغريها أي مادة تهدم الحياة، وتنجذب إليها وكأنها النَّدَّاهة التي تُنادي على بحارة السفن في الأساطير، فيَندفعون ناحيتها لتتحطَّم سفنهم على صخور الجزائر ويَموتوا غرقًا. إنه نداء خفي غامِض يتسرَّب إلى النفس في عذوبة ورقة وكأنه نداء الشيطان المُتنكِّر على هيئة أجمل فاتنة.

ونحن بدعاياتنا الضخمة «ضد» الشيء المُهلِك، «نحبب» دون أن ندري هذا الشيء المهلك للشاب الغض الأغر، وحتى بالقليل نُثير فيه حب الاستطلاع كما سألْتني الطفلة البريئة عن ماهية شكل وطعم وحكاية الكوكايين؟

إني معتقد أننا بإعلامنا المحموم هذا ضد تلك السموم قد أثَرنا ملايين من هذه الأسئلة في عقول الشباب والأطفال وحتى الكبار.

وهذا ما لم يفعله الإعلام الأمريكي.

الإعلام الأمريكي أو المجتمع هناك فعل شيئًا آخر.

أوَّلًا: بنى مصحات كثيرة خاصة، ليس لمرضى الأمراض العقلية والنفسية ومعهم مدمنو العقاقير (وعلى فكرة كلمة مُدمِن لم تَعُد تُستعمَل في القاموس الطبي الحديث، إنما حلَّت مكانها كلمات مثل «إساءة استخدام العقار» أو «التعود على استخدام العقار الضار»؛ إذ هذا هو بالضبط التعريف العلمي الدقيق، فإن كلمة المدمن مثلها مثل كلمة المجنون، لم تَعُد تعني شيئًا، فلم يَعُد هناك أناس اسمهم مجانين، إنما أصبحت أمراضًا محدَّدة، تُسَمَّى بأسماء محددة، ولها علامات محددة).

المهم، بنَوا المصحات، أو تبرَّع بها أغنياؤهم، الممثل الأمريكي الذي دائمًا ما أنسى اسمه (وبالطبع ليس روك هدسون) ذلك الذي مات ابنه من جراء تناول جرعة زائدة من الهيروين، تبرع ببناء مصحة دفَع فيها مليونَي دولار وجمع الباقي من الأغنياء والأصدقاء، مصحات أهلية، ومصحات حكومية، ومصحات تأمين صحي، السرِّية فيها مكفولة، والعلاج لا يستغرق كثيرًا، وأثناء العلاج هناك رعاية اجتماعية للمريض وأسرته.

وهكذا كل ما بقي على الإعلام ليفعله، وهو يفعله، أن تَخرج المذيعة على الجمهور وتقول: إذا كانت عندك مشكلة عقاقير (لاحظوا كلمة مشكلة) فاتصل بتليفون رقم كذا، تصلك سيارة، ودع الباقي لنا. لا مناظر تَحشيش وكوكَنة وهرونة، ولا شيش ولا أنابيب ولا هذا الكلام الخطير الفارغ الذي ملأنا به عقول الشباب البريء طوال الأيام السابقة.

ذلك أنهم هناك يَعتبرون من يتعود استعمال هذه العقاقير إنسانًا مريضًا لم تلده أمه مدمنًا، وإنما هناك ظروف اجتماعية واقتصادية، وفي مجتمعاتنا سياسة، دفعت هذا الشاب إلى اللجوء إلى العقار ليُشكِّل له هدفًا يحيا من أجله؛ فمعظم الشباب الحائر التائه، هو هكذا، لأنه لا يعرف له هدفًا في الحياة، ولا يريد أحد أن يُساعِده على إيجاد هدف له في الحياة. وفي مجتمع كمجتمعنا العمل فيه قليل جِدًّا، والفراغ واسع ومُمتد جِدًّا، من السهل تمامًا أن ينزلق المرء إلى فكرة أن يكون له هدف صناعي، يَستيقظ من أجل تناوله، ويكسب كيفما كان مصدر النقود ليشتريه، ويَشقى ويعمل أقلَّ وقت مُمكن لينفرد بالعقار هدفه ومحبوبه ويُعطي له نفسَه تمامًا طوال ما تبقى من ساعات النهار والليل، وكأنه وجد بُغيته، وكأنه وجد له الهدف التائه، وكأنه كان ضالًّا فهدى.

ولا أستطيع أن أُنهي هذه الكلمة، تلك التي تتصدَّى لمعالجتنا الخاطئة لإحدى مشاكلنا الطارئة، دون أن أذكر مقالًا قرأته لأستاذ ورئيس قسم الأمراض العصبية والنفسية في إحدى كليات الطب بمناسبة الخمر المسمومة. يقول هذا العلَّامة الذي مهمته أن يدرس لطلبته كيف يُعالجون من يُعاقِرون الخمر باعتبارهم مرضى: إنَّ هذا السم هو الانتقام الإلهي لهؤلاء الذين يَشربون الخمر، ويدعو الله في النهاية أن يُميت كل من يشرب الخمر، مسمومة أم غير مسمومة.

تصوروا هذا رأي أستاذ ورئيس قسم، معنى أنه لو ذهَب له مريض يشرب الخمر، مفروض أن يُعامله كمريض وينتشله من وحدته، إنما حسبما كتَبَ ورأى سيُعالجه بأن يدس له السمَّ في كأس خمر فيُميته ويُريح الدنيا من عاصٍ كبير.

إنَّ الحد الذي أقامه الله سبحانه وتعالى لمُتعاطي الخمر هو أن يُجلَد.

ولكن هذا الأستاذ — لا أدري كيف مرَّت هذه القصة على مجلس جامعة القاهرة الموقر — يعالج متعاطي الخمر بقتله؛ أي بارتكاب معصية أكبر، أكبر معصية، قتل النفس.

وكأنَّ هذا هو الإسلام.

إنه الجهل بالإسلام، والجهل بالعلم، والجهل بالمرض، والجهل بمعالجة الأمراض الاجتماعية التي تُصيب الخلق لأسباب كثيرة لا يَعلمها سوى الله.

رجاءان

كنت جالسًا على بحر المعمورة ذات مرة مع مجموعة من الأصدقاء ورنَوت إلى شاطئ المعمورة من أول سور حديقة المُنتزه؛ حيث يبدأ إلى أن ينتهي بشقق الحرس الجمهوري، ثم امتد بي البصر بعد هذا طويلًا وكثيرًا إلى أن وصل إلى شاليهَي أو قصرَي الرئيسَين الراحلين؛ جمال عبد الناصر، وأنور السادات، فوجدت أن المسافة ما بين المعمورة والشاليهَين أكبر من طول شاطئ المعمورة نفسه. وحينذاك عنَّ لي سؤال: ترى ما هي مساحة تلك الحدائق التي يقع في وسطها القصران، وكان معنا أحد كبار المسئولين عن شركة المعمورة، فذكر لي رقمًا مخيفًا، إنها حوالي أربعمائة فدان؛ أي ضعف مساحة المعمورة! أربعمائة فدان بشاطئ أطول بكثير من شاطئ المعمورة نفسه، يعني شاطئًا يَصنع معمورتَين ولا أقل. أربعمائة فدان، أي مليون وستمائة وثمانين ألف متر مربع، وحيث إن شركة المعمورة — وهي شركة قطاع عام — تَحتسِب المتر في المعمورة، حتى البعيد عن البحر بما لا يقلُّ عن ألف جنيه، فيكون ثمن الأرض المقام عليها شاليها الرئاستَين السابقتين مبلغًا خرافيًّا ربما يتعدَّى المائة مليار جنيه. ليست كافية لتسديد ديون مصر فقط، ولكنها تكفي لإنهاض الاقتصاد المصري كله نهضة تُغنينا عن سؤال اللئيم وتُنجز مشروعات المجاري، والطرق، والمصانع، وتصنع المعجزات.

هذه المليارات العديدة مخصَّصة لاستعمال عائلتَين فقط، تَحُلان فيها ربما شهرًا أو أقل من شهر في العام ولا يَستعملان من هذه الحدائق كلها إلا ربما ملاعب التنس.

وأنا أعرف أن عائلتَي الرئيسَين لا تقلان وطنية عن أي مصري كادح يتبرَّع لسداد ديون مصر من عرق جبينه، ولهذا فإلى هاتَين العائلتين الكريمتين أتوجه بالرجاء، ومصر الحبيبة التي صنعت من عُمدائهما رؤساء وزعماء، تُعاني القحط والحاجة، لماذا لا تَقتصر كل عائلة على الفيلا التي تقيم فيها وحولها حديقة معقولة المساحة ولتكن فدانًا مثلًا،

ويُباع الباقي للمواطنين مصريين أو غير مصريين أو تُقام لاستغلاله شركات مصرية أو عالَمية كما يحدث في اليونان وإسبانيا والبلاد المطلَّة على البحور والمحيطات، ويُصبح دخلها هو عماد تلك الدول والعمود الفقري لاقتصادها. إنه مجرد رجاء من كاتب، لا أُلزم به العائلتين أو أُطالب به الحكومة بشيء، إنما أعتمد في التقدُّم به على الحافز الوطني لدى العائلتَين وأصهارهما، خاصة وهم والحمد لله أناس مستورون.

أجل مِن حقنا أن نجعل عائلات الرؤساء السابقين يَحيون حياة مُحترَمة لائقة، ولكن أن نحجز لهم أرضًا مساحتها أربعمائة فدان لتَستعملاها شهرًا أو بضعة أيام كل عام فهذا هو السفه الذي لا نظير له في العالم كله.

لقد كنتُ في السويد مرةً أيام كان الملك العجوز السابق مريضًا مرض الموت، ووضعوه في المستشفى العام كأيِّ مُواطن، كل ما في الأمر أنهم حجزوا له حجرتَين، حجرة له وحجرة لمرافقه، وقامت قيامة الصحافة السويدية، حتى إذاعتها الناطقة بالإنجليزية إزاء هذا «الحدث» الرهيب. كيف يُخصَّص للملك حجرتان بينما المواطن العادي تُخصَّص له حجرة مستشفى واحدة.

وأعتقد أن كل حكومات أوروبا وأمريكا وروسيا مجتمعة لا تَستطيع حتى إذا تكاتَفَت واتَّفقت أن تصنع شيئًا كما صنعناه في المعمورة.

حتى الملك فاروق نفسه حديقة قصرَيه في المُنتزه ورأس التين لا تزيد عن بضعة فدادين.

إني أتوجه إلى أصدقائي الأعزاء الدكتور خالد عبد الناصر والدكتورة هدى عبد الناصر وعبد الحكيم وعبد الحميد، ولا أقول السيدة منى عبد الناصر؛ فهي لا تُقيم في مصر ولا تستعمل الشاليه أو الفيلا أو القصر، كذلك أنتظر من المهندس جمال السادات أن ينضمَّ لهم، ويتبنوا هذا الرجاء ويأخذوا زمام المبادرة، ومن تلقاء أنفسهم يُقرِّرون ما ذكرت، فإني أعرف تمامًا أن الرئيس حسني مبارك لن يأخذ هذا الإجراء بالعنوة أو القانون؛ فالوفاء يمنعه، أمَّا أنتم يا أولاد رئيسَينا السابقَين، فالوفاء لمصر هو الذي يجب أن يدفعكم ويهيب بكم أن تعينوا مصر في شدتها.

وثمَّة رجاء آخر أتقدم به إلى المشير عبد الحليم أبو غزالة، طوال السير في طريقي إلى مصر الجديدة أسير بجوار مساحات هائلة من الثكنات، وتلك الثكنات كان قد بناها جيش الاحتلال البريطاني لتكون خارج القاهرة، ولكن القاهرة العامرة أكثر مما يجب زحفت

حتى أصبحت تلك الثكنات في موقع القلب منها، ولدينا أزمة إسكان رهيبة، فلماذا لا تُنقَل الثكنات إلى الصحراء الممتدة شرقًا وغربًا، وتُقام مساكن للمواطنين الذين يَحيون في القبور وفي الأحواش وفوق السطوح المكشوفة وعشش الصفيح. لو حدَث هذا لما حلَلنا فقط جزءًا كبيرًا جِدًّا من أزمة الإسكان، ولكن لدخل للدولة عائد، يكاد وحده يُسدِّد ديون مصر الذي احترنا في تسديدها، بل ولأمكن بواسطة هذا الرأسمال الكبير أن نَستصلح مساحات شاسعة من أرضنا الصحراوية التي تُكوِّن أكثر من تسعين بالمائة من مساحة مصر، أو على الأقل نزرع الوادي الجديد كله أو نُقيم مشروعًا لمنخفض القطَّارة، أو نشقُّ فرعًا آخر للنيل، بحيث ينفتح هذا الشريط الضيق من الوادي الذي يتكدَّس فيه المصريون تكدس السردين في العلب المحفوظة.

وإذا نحن تلفَّتنا حولنا ودقَّقنا لوجدنا آلافًا من المال الفاقد؛ أرضًا فضاءً أو مُساءً استغلالُها، وما ذكرته لا يتعدى مثلَين لاحظتُهما بنفسي، وما أنا إلا فردٌ واحد، فماذا لو انتبَهْنا نحن الملايين الواعية من المصريين إلى الفاقد من دخلنا وقدرتنا.

للمرة الثالثة سأَروي هذه القصة: قال لي ذات مرة فلاح عجوز من بلدتنا: مصر يا بني مافيهاش فقر، مصر فيها قِلَّة رأي.

فلتكن قلَّة الرأي أو فقر فكر أو ما شئت من أسماء، ولكنِّي أعتقد أن العجوز كان على حق، ولا يزال قولُه حقًّا.

العظمة سيدة فاضلة

قطعت «جهيزة» قول كل خطيب. إني لا أذكر الآن وقد درست المثل في مقرر الأدب العربي في ثانوي القصةَ الدقيقة للمناسبة التي قيل فيها، ولكن ما أذكره أن قبيلة عربية قد اختلَفَت اختلافًا حادًّا حول شيء ما، فجاءت جهيزة، ويبدو أنها كانت واحدة من فصيحات وحكيمات العرب، كخنساء عصرها، وأدلت بدلوها ورأيها، فحسمت الأمر، وحلَّت المُشْكِل.

وأنا أقرأ خطاب السيدة العظيمة حرمَ الزعيم الراحل جمال عبد الناصر كانت آلاف الخواطر تَحتدِم في عقلي، أولها وعلى رأسها أن هذه السيدة سيدة عظيمة بكل ما تعني كلمة العظيمة من أبعاد ومواقف؛ فعلى مُضيٍّ سنين طويلة كانت زوجةً لأكبر زعيم معاصر أنجبَتْه مصر والأمة العربية جمعاء، ولكنَّها أبدًا لم تنظر لنفسها يومًا على أنها زوجة لزعيم أو رئيس، ولا حتى نظرت إليه هو كما كان الناس يَنظُرون إليه، زعيمًا وقائدًا ملهمًا ورئيسًا، وإنما كانت تراه دائمًا الزوج ورب البيت والأب والأخ والحبيب. كان يهزُّ العالم بكلماته ومواقفه ويئوب إلى بيتها الواحة، كما ظلَّ يئوب طوال حياته، ليجد في كنفها الود والحب والحدب والحنان، كانت واحته الخضراء في قلب جهنم الحياة التي يحياها.

والواقع أني حين كتبتُ هنا تحت عنوان: رجاءان، كان عَقلي الباطن يُخاطب تلك السيدة العظيمة المتواضِعة، التي لا يُمكن أن ترضى بأن يكون شعب مصر في ضائقة ولا تخفَّ إلى مساعدته وتقديم كل ما تستطيع تقديمه من أجله. كنتُ موقنًا ومتأكدًا أنها ستفعل هذا، حتى وأنا أقرأ خطاب الدكتور خالد جمال عبد الناصر — الذي استنكره الكثيرون — لم أَستنكره أنا، حتى بما فيه من بعض الشطط؛ فالابن له الحق أن يشتطَّ إذا تصوَّر أن شيئًا من أبيه أو سيرة أبيه أو مخلفات أبيه ستَمسُّه يد. غير أن الغريب أني لم أَقترح أو أرجو أن يمسَّ شيء من استراحة الرئيسَين أبدًا، لا الاستراحات، ولا الحدائق

المحيطة بهما، فليبقيا للأسرة كما قرَّر مجلس الشعب، فليتحولا إلى متحف ومزار يضم كل ما يتعلق بالرئيس من مخطوطات، وقرارات، ومحاضر اجتماعات، إذ هكذا يكرم الزعماء، وليس بأنه في سبيل عمل منطقة حرام حول الاستراحتَين تحتجز كمية من الأرض قال عنها رئيس شركة المعمورة إنها ٣٨٧ فدانًا، وقلت أنا عنها إنها أربعمائة، وطبعًا رقمه وتقديره هو الأدق.

لم يكن في ذهني كما قلت أن أغتال تركة أحد حتى لو كانت هبة أو ملكًا للحكومة، وإذا كانت مساحة كل استراحة خمسة فدادين والباقي تملكه وزارة الزراعة، فإن هذا لما يُؤكِّد أن أحدًا لا يريد أن يمسَّ الاستراحتين، كل ما في الأمر أن بقاء هذا الكم الكبير من الأرض متروكًا بزعم أنه حدائق وهو ليس سوى بقايا أشجار من أشجار الجوافة، أي رأسمال قدره ملياران ونصف مليار دولار، أي خمسة مليارات من الجنيهات مرهونةً في سبيل محصول جوافة لا يتعدَّى ثمنه بضع مئات من الجنيهات، بل إن رئيس شركة المعمورة قال إن المنصرف على هذه الأشجار أكثر من ثمن محصولها بكثير؛ أي أنها تخسر. وضع كهذا هو الوضع غير المعقول تمامًا، وكل ما أطلبه، ما دامت الأرض ملكًا لوزارة الزراعة وتستطيع وزارة التعمير واستصلاح الأراضي أن تُحيلَها إلى مؤسسات أو حتى مزارع وزهور أكثر نفعًا بكثير أو مصايف عالَمية، أن يبادر الدكتور يوسف والي والمهندس حسب الله الكفراوي باستخدام هذا الكنز المخبوء؛ فالمسئولية الآن تقع على عاتقهما، ولا حُجة بعد خطاب السيدة حرم الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي طلبَت رسميًّا إيداعه مضبطة مجلس الشعب، لا حجة لهما في التنصُّل من هذه المسئولية.

كل ما في الأمر أنني لمحت في خطاب السيدة العظيمة ما يُشبه التأنيب، فهي لم تقصر في خطابها على فتح الأرض المغلقة للاستغلال المنتج وإنما أيضًا تنازلت عن الاستراحة المخصَّصة لها وحديقتها هي الأخرى.

وهو أمر لا يرضاه أي مُخلِص لهذا الشعب؛ فنحن لم نطالب أبدًا «بإخلاء» الاستراحة أو هدمها (كما تصور خالد عبد الناصر أو صُوِّر له) إنما طالبنا فقط بالتخلي عن الأرض المَحجوزة على ذمة «حرم» للاستراحتَين.

وربما كان هذا «الحرم» لازمًا لضرورات الأمن أيام حياة الرئيسَين جمال عبد الناصر أو أنور السادات، أمَّا الآن فقد زالت هذه الظروف ولم يَعُد يُهدِّد العائلتَين أيُّ مخلوق. فما الداعي لهذا الحرم الأمني الهائل في ظروف تَعتصِر الشعب كله اعتصارًا من أجل توفير خمسمائة مليون جنيه، أي عُشر قيمة هذه الأرض.

لقد كتَب الزميل والصديق العزيز الأستاذ محسن محمد مقالًا رائعًا يقول عنوانه «الكرة الآن في ملعب السيدة جيهان السادات»، وأنا لا أَعتقِد أبدًا أنَّ آل المرحوم أنور السادات سيتَّخذون من هذه القضية موقفًا مختلفًا أو مُنفردًا، كل ما في الأمر أني أعتقد أنهم يُريدون أخذ موقفهم الخاص وبطريقتهم الخاصة حتى لا يُقال إن موقفَهم كان تاليًا أو متأثِّرًا بموقف عائلة الرئيس جمال عبد الناصر. وهذه — إذا كان تخميني صحيحًا — مسألة واردة ومشروعة.

فلو فطنَ الصديق خالد عبد الناصر إلى أن هذا العمل الجليل الذي قامت به السيدة والدته، أو الذي ستقوم به العائلتان، ستَعتبرُه الأجيال القادمة والجيل الحالي موقفًا وطنيًّا عظيمًا يُضاف إلى رصيدِ والده ويُعليه، ولن يُعتبَر بأي حال من الأحوال «اعتداءً» على تراث الوالد، إنما إضافة له وإضافة لرصيد عائلته ومواقفها الوطنية التي لا تخفى على أحد.

إني في الحقيقة وأنا أضع للمقال عنوانَ «رجاءان» كان في اعتباري أن يَزداد تقدير الشعب المصري لعائلتَي الرئيسَين، وليس الحط من القدر أبدًا أو العدوان.

شيء آخر أودُّ إضافته، اسم المقال رجاءان، والرجاء الآخر كان موجهًا للمُشير عبد الحليم أبو غزالة بنقل ثكنات الجيش التي لا تُقدَّر بثمن من قلب القاهرة إلى حيث يجب أن تكون على أطراف صحرائها، هذا الرجاء لم أسمع من يُلبِّيه أو حتى رد عليه، وما زلت في انتظار أن أسمع من السيد المشير جوابًا.

وهذا المقال الماضي الذي أتحدث عنه له قصة، فقد كتبته يوم الأربعاء ٩ أبريل، أي قبل نشره يوم الاثنين ١٤ أبريل بخمسة أيام، وذكر لي مدير تحرير الأهرام الأستاذ سلامة أحمد سلامة أن باب العصفورة في جريدة الوفد الغراء قد أشار إلى شيء من هذا، فقلت له: زيادة الخير خيرَين، وعلى العموم أنا أَعتقِد أن لي طريقتي المُختلفة في معالجة الموضوع.

أمَّا الذي لا أُوافق عليه مُطلقًا، فو أن يتَّخذ هذا الموضوع ذريعة لهجومٍ ضارٍّ على عبد الناصر الزعيم الذي وضَع اللبنات الأولى لمصر حديثة مُتخلِّصة من رجعيتها وإقطاعيِّيها وتبعيتها للإنجليز وللغرب.

إن عبد الناصر الذي تُهيلون عليه كل هذه التُّهَم لم يتهجَّم مرة واحدة على سعد زغلول أو ثورة ١٩ أو يُشكِّك ولو بالتلميح في ذمة قائد مِن قُوَّاد الوفد، سواء كان سعد زغلول أو مصطفى النحاس أو فؤاد سراج الدين. اختلِفوا مع سياسة عبد الناصر كما

تشاءون، راجِعوا كل ما حدث في عهده مراجعة المصريين الوطنيين الذين ينظرون بكل حيدة وموضوعية إلى كلِّ ما حدَث في عصر عبد الناصر. وليكن لكم فيما فعله الأستاذ الكبير مصطفى أمين درسًا، إنه لم يَنتهِز فرصة حكاية الأرض المحيطة بالاستراحتَين ليصبَّ جام حقده على عبد الناصر أو السادات، الذي سُجن في عهد الأوَّل تسع سنوات، ومُنع من الكتابة في عهد الثاني، ولكنه تحدث بموضوعية ومن مُنطلَقٍ مصري يَحرص على ثروة مصر وإمكاناتها ويُريد تنميتها.

وبعد ...

الكرة لم تُصبح في ملعب السيدة جيهان السادات فقط، ولكنَّها أصبحَت حقيقة في ملعب مجلس الشعب، وأخوفُ ما أخافه أن تأخذ بعض الأعضاء العنجهية والعاطفية فيُهملوا الموضوع أو يأخذوا قرارًا بالاعتذار عن عدم قبول خطاب السيدة حرم الرئيس عبد الناصر. لو حدث هذا فلن أترك ولن يترك غيري طوبة في مصر دون أن يؤلبها ضد هؤلاء الأعضاء، ولا أريد أن أستبق الحوادث لأقول إن شيئًا كهذا لو حدث لأثبت أن هؤلاء الأعضاء أبعد ما يكونون عن تمثيل الشعب، فإني متأكد أن الوطنية والحمية القومية والحرص على ثروات الشعب ومصالحه هي التي ستتغلب وتنتصر.

إني أناشد الصديق الدكتور ميلاد حنا رئيس لجنة الإسكان في مجلس الشعب أن يضرب على الحديد وهو ساخن. وهو ذلك المهندس وأستاذ الهندسة المُعلِّم، يستطيع مع اللجنة أن يبتكر طرقًا للاستفادة الفورية من هذه الأرض، بحيث تُوضَع في التو موضع التنفيذ.

فإن تأجيل التنفيذ، والتراخي في التنفيذ، وضياع الوقت بين أخذ ورد، هو الفقر بعينه. فقد قلت مرةً: إنَّ الزمن هو الثروة الضائعة التي لا نراها.

والزمن يُقاس بالسرعة، والتباطؤ فقر، والثروة أفكار سريعة تُدرس وتُنفذ على عَجل.

بقيَت كلمة أخيرة يعزُّ عليَّ أن أوجهها لقراء هذه المفكرة، فمن أكوام خطاباتهم أدرك كم يعتزُّون بها وبكاتبها، ولكني أيها الأصدقاء أكاد أموت همًّا لأنَّها شغلتني تمامًا عن عملي الرئيسي والأساسي ككاتب قصة ومسرح، ولذلك أستأذنهم في عدة أسابيع أقضيها أنجز فيها أكثر من عشرين قصة تلحُّ عليَّ إلحاحًا لم أَعُد أستطيع معه صبرًا، وعلى العموم أرجو حين تُنشَر أن يجدوا فيها ربما خيرًا أكثر مما يَجدونه في هذه المُفكِّرة.

لقد كتبت خلال السنوات الكثيرة الماضية، منذ حوالي عام ٧٤ إلى الآن أكثر من خمسمائة وثمانين موضوعًا في هذا المكان، وأعتقد أن في هذا إجحافًا كبيرًا لما خُلقت له؛ فمُقابِل هذا لم أكتب سوى عشر قصص.

فوداعًا وإلى لقاء إن شاء الله، وإذا أذنَ الرحمن بعمر أطول، إنه على كل شيء قدير.

ذاهب لرؤية المعجزة

في طائرة تَنطلِق، من فرط سرعتها، بلا سرعة، كان المغرب يقترب بسرعة غير عادية تمامًا، تركتُ القاهرة، في الثالثة بعد الظهر، وبعد أقل من ساعة ونصف، ها هي ذي الشمس موشكة على المغيب، مما ذكَّرني بأول سفر إلى الشرق الأقصى وكان معنا في الطائرة المرحوم يوسف السباعي. ما أقل ما يَذكُرُه من كان صاحب جمائل لا تُحصى عليهم، وما أكثر ما يذكره من أساء لهم ونفَّذ بانضباطٍ تام أوامر السلطة تجاهَهم! وكان — رحمه الله — صائمًا، وكنا في رمضان، وكنتُ أعتقد أنه قد أمسك بتوقيت القاهرة وغربت علينا الشمس في طريقنا إلى الهند في الرابعة بعد الظهر بتوقيت القاهرة، فهل يُفطِر وقد غربت الشمس الآن؟ بل الأدهى أنه قد ثبَت أنه كان في طرابلس الغرب «ليبيا» لحضور المؤتمر الآسيوي الأفريقي هناك، فإنه أمسك عن الطعام والشراب بتوقيت طرابلس؛ أي في الواحدة ليلًا بتوقيت القاهرة. ويومها بدت لنا المشكلة محيِّرة تمامًا نحن الكُتَّاب أعضاء الوفد المصري إلى مؤتمر الكُتَّاب في الهند عام ٧١. وأذكر أنَّ قبطان الطائرة الذي كان واضحًا أنه مُتبحِّر في علوم الدين والطيران معًا وفروق التوقيت قد أفتى بأن على يوسف السباعي — وحده — أن يُفطِر بتوقيت المدينة التي أمسك فيها عن الطعام والشراب. ويومها بدت المسألة غير معقولة؛ فقد كان عليه أن يتناول إفطاره في الحادية عشرة مساءً. ولكن كان واضحًا أنها الفتوى الوحيدة التي لها منطق، حيث يحتفظ للصائم بساعات محدَّدة لا بد أن يصومها؛ لأنه لو اتبع طريق الشمس لضلَّ؛ فالشمس كانت قد اغتالت من نهار طرابلس ست ساعات يومها، ويوم ١٧ سبتمبر الماضي كانت عند الغروب قد اغتالت من يومي ساعتين، أول دفعة من دفعات الاغتيال؛ فقد كان عليها أن تَغتال سبع ساعات أخرى حتى أصل إلى طوكيو وقد فقدت من حياتي مقدمًا نهارًا بأسره وسأَكسبه بعد نهاية رحلتي حين أستعيد تلك الساعات التسع المغتالة.

أعتذر للقراء أنني قد أدخلتهم هكذا مرةً واحدة في حسبة كحسبة «بِرمة»، ولكن ماذا أفعل، والإنسان ما إن يبدأ يرحل ويُسافر حتى يبدأ يحسب. إننا نحيا في قاهرتنا العزيزة بلا أي حساب بالمرة، بل يُخيَّلُ إليَّ رغم كثرة عدد الساعات التي يحملها الناس في القاهرة، ملايين الساعات ربما، أننا من الممكن أن نَستغني عنها كلها دون أن يختلَّ نظام الحياة — إن كان لحياتنا نظام — قيد شعرة أو أنملة. بل أكاد أقول إننا في حاجة إلى ساعات تدور إلى الخلف أو كما يقولون باللغة العِلمية عكس اتجاه عقارب الساعة، فحين عُدت إلى القاهرة بعد غيبة عن أحداثٍ وقَعَت منذ عشرين وثلاثين وخمسين سنة وكأنها الأحداث الواقعة الآن. إن موضوع الساعة عندنا دائمًا هو الماضي، أمَّا الحاضر فحرام أن نتحدَّث عنه إلا بعد أن يُصبح ماضيًا معتقًا تمامًا. إن ساعتنا الميقاتية تؤخر دائمًا بمعدَّل لا يقل عن الربع قرن بأي حال من الأحوال، وللأسف ليس هناك ساعاتي في الدنيا — إلا نحن — يستطيع إصلاحها.

ولكن …

لنَدعِ الحديث عن الساعات والزمن؛ فالزمن يبدو أنه ليس في صالحنا، ويبدو أننا نحن الآخرين لسنا في صالح الزمن؛ فنحن لو التزمنا بالزمن لتشكَّل بطبيعتنا وأخرناه وربما أفسدناه. فليمض الزمن كما يحلو له، ولنتركه، ولنترك غيرَنا من الأمم المجنونة تمضي معه، ولنُخلِص نحن لزمننا الماضي الذي يدور عكس عقارب الساعة، وما دام العالم يتسابَق في أن يتقدَّم الزمن ويتقدم بالزمن فلنتسابق نحن في التقدُّم متأخرين بالزمن، ولنَثِق بأن أحدًا لن يَسبقنا في هذا المضمار!

مرةً أخرى إذن — بعد خمسة عشر عامًا — أنا في طريقي إلى آسيا، في طريقي إلى البلاد التي يَسكُنها أكثر من نصف عدد سكان الكرة الأرضية، ومع هذا فما أقل ما نعرفه عنها! نعم نحن نتحدث كثيرًا عن المعجزة اليابانية، وعن العملاق الصِّيني ذي المليار إنسان، وعن بلد البطولات فيتنام، وعن حبيبتَينا إندونيسيا وسنغافورة ومُسلميهما، وعن لاوس وكمبوتشيا أو كمبوديا، وعن المشهورة جِدًّا أفغانستان ومُجاهِديها، ثم أخيرًا وليس آخرًا عن مُعجزة الديمقراطية في العالم الثالث؛ الهند ذات الثمانمائة مليون والثمانمائة لغة وعشرات الديانات والمقاطعات والولايات، ومع هذا تبقى واحدة متَّحدة، يُغتال زعيمها غاندي فتبقى ديمقراطية، يموت نهرو فتبقى ديمقراطية، تُعزل رئيس وزرائها في انتخابات تجريها بنفسها فتبقى ديمقراطية، تُغتال أنديرا فتبقى وستبقى ديمقراطية،

المسلمون فيها — هكذا قال لي زعماؤهم — أسعد كثيرًا من مسلمي الباكستان ولا يرضَون عن الهند وديمقراطيتها بديلًا.

بل أنا في طريقي على وجه التحديد إلى اليابان أوَّلًا، بدعوة من وزارة خارجيتها؛ إذ كنت عقب زيارتي الأولى لليابان عام ١٩٧١ قد نشرتُ سلسلة من المقالات في أهرامنا العتيدة عن آسيا وعن اليابان بالذات وجمعتُها في كتاب، وظلَّ هذا الكتاب مجرد كتاب إلى أن جاء إلى مصر سفير ياباني نشيط هو السيد كاتوا اكتشف الكتاب وترجمَ له إلى اليابانية، وقرأه، ثم سألني عبر لقاء بالصدفة: لقد قرأتُ كتابك وعرفت ما كتبتَه عن اليابان منذ خمسة عشر عامًا، أتحبُّ أن تعرف ماذا حدث لليابان خلال هذه المدة؟

ولأنه كان يعرف أن إجابتي ستكون بالإيجاب فقد أردف قائلًا: إننا ندعوك لزيارة اليابان.

وقد كان.

كانت المسافة بين البحرين، أول محطة لهبوط الطائرة، ونيودلهي، المحطة التالية، مسافة تأنيبٍ لنفسي، حماكم الله من تأنيب النفس. كان ذنبي الأكبر في نظر نفسي ذلك القرار الذي اتخذتُه وحدثتُ به القراء. كنت خلال شهر يوليو الماضي قد وصلتُ بالضيق من نفسي ككاتب قصة إلى حدٍّ مؤلم للغاية. إن الصحافة كما يَعرفها المشتغلون بها غُول لا يَرحم، والكتابة إليها مثل إلقاء الحطب إلى فم فرن مُشتعِل تأكُل ناره كل ما يمكن أن يكون لديك من حطب ومن وقود ومن أثاث بيتك حتى إن لم تجد. وجلست يومًا أقلِّب فيما نشرتُه خلال الأعوام العشرة الماضية، فوجدت آلافًا من المقالات والانطباعات والانتقادات، وقليلًا جِدًّا من القصص، ومسرحية واحدة لا تزيد. وغضبت نفسي غضبًا شديدًا. وحاولتُ تهدئتها بأقوال مثل: تلك كانت مصالح ناس، وأمور تُهم المواطنين والوطن، ولم تكن عبثًا، ولكن ضميري الفني كان قد استيقظ، ولم يَعُد هناك سبيل إلى إسكاته.

لم يعد هناك سبيل إلى إسكاته إلا أن أفرغ نفسي تمامًا من أي شيء، ومن الاهتمامات اليومية المباشرة، وأن أُهاجر هجرة داخلية مؤقَّتة إلى عالم الفن والقصة. ونفَّذتُ القرار. وكتبتُ أُخبر رئيس التحرير والقراء. وفعلًا انتهيتُ خلال أغسطس من أربع قصص. وأرضيتُ ضميري بعض الشيء. وكنتُ معدًّا نفسي للتفرغ تمامًا لعالمي هذا الحقيقي، ثم جاءت هذه السفرة، مغرية أشد ما يكون الإغراء، قاطعة عليَّ ما كنت قد بدأتُ السعادة به، وها أنا ذا في الطائرة الذاهبة، وها أنا ذا أقطع الخليج العربي والمحيط الهندي مُندفعًا كالطلقة الشاردة إلى الشرق، فلماذا تأنيب الضمير؟

كأنَّ تأنيب الضمير سببُه أني أعرف أني لا بدَّ أن أكتب عن هذه الرحلة إذا عُدت، لا بحكم الواجب، ولكن للالتزام بأن يُقدِّم الكاتب لقارئه أحدث ما ورد إلى عقله من رُؤًى وخواطر. ومعنى هذا أن أعود لكتابة المُفكِّرة قبل أن أستطيع نشر آخر ما كتبتُه من قصص؛ فالقصص ليس لها موعد عاجل لا بدَّ من نشرها فيه وإلا فسدت، أمَّا الأخبار والانطباعات فإنها لا بدَّ تفسد، أو تتحوَّل إلى شيء آخر إذا مرَّ عليها وقت.

فلأتقبل إذن ما شاء الضمير أن يصبَّه عليَّ من تأنيب، ولا بأس من إعطاء الفرصة لزملائي الكُتَّاب ليقولوا فيَّ ما شاءوا لبضعة أسابيع أخرى، ولأكتب للقراء بشكل عام ليس عن أغنى رحلة في حياتي، ولكن عن أهمِّها على وجه الإطلاق.

ذلك أني رحبتُ بالرحلة لأني كنت أريد أن أجد حلًّا لهذا اللغز الياباني الذي استعصى على الحل.

المعجزة اليابانية.

أمريكا تَفرض ضرائب جمركية لحماية بضائعها من المنتجات اليابانية، ٤٥ مليار دولار فائض ميزان المدفوعات لصالح اليابان.

رئيس وزراء اليابان يطلب من اليابانيِّين أن يُقلِّلوا من العمل حتى لا يضيق العالم باليابانيِّين ويُعاديهم.

الحكومة اليابانية تُعطي للعاملين إجازات بالأمر، والعاملون يرفضون الإجازات.

كنت كما قُلت قد زرت اليابان منذ خمسة عشر عامًا، إذن الواقع الياباني ليس غريبًا عليَّ، ولكن «المعجزة» لم تكن قد وقعت بَعدُ، ولم تكن اليابان بعدُ قد أصبحت الدولة الصناعية الأولى في العالم، والآن بعد أن حدث هذا، فماذا يُمكِن أن يكون قد حدث غير ما رأيت؟

وهل صحيح هناك معجزة؟

وما سرها؟!

تلك كانت الأسئلة التي دارت في عقلي فيما بين نيودلهي عاصمة الهند وبانجوك — المحطة التالية — عاصمة تايلاند.

الرحلة أصبحت مُرهِقة كأشد ما يكون الإرهاق، وشكرًا للأبطال الذين يخطفون الطائرات المدنية ويَقتُلون النساء العزَّل باسم الكفاح والثورية، فقد تعقَّدت الإجراءات في مطارات العالَم بطريقة مزعجة تمامًا. زمان كانت الطائرة تتوقَّف لتتزود بالوقود

والطعام، وكان الركاب يجلسون آمنين أو نائمين في الرحلات الطويلة لفترة لا تتعدَّى الخمس والأربعين دقيقة، بانتهائها تُقلع الطائرة.

الآن لا بد من هبوط ركاب «الترانزيت» كما يُسمُّونهم، وفحصهم إلكترونيًّا وجسديًّا هم وحقائب يدهم وهم داخلون إلى مطار الترانزيت، ثم إعادة فحصهم وهم عائدون إلى الطائرة. وكل هذا يَحدث في الثالثة صباحًا مثلًا، في أحلى ساعات النوم، سواء بتوقيت بلدك أو البلد الآخر.

ولكن كان عزائي أني سأَقضي من بانكوك إلى طوكيو ستَّ ساعات كاملة دون إزعاج ودون ترانزيت ودون تفتيش، آمُلُ أن أقضيها نائمًا، مُستغرقًا في نوم عميق، فأنا سأَصِلُ إن شاء الله إلى طوكيو بعد الظهر من يوم غد، وعندي مواعيد في طوكيو في مساء الغد، هكذا قرأتُ في البرنامج الياباني الدقيق الذي وُضع لزيارتي مع مشاورات ومُناقشات ومراسلات بين القاهرة واليابان استغرَقَت أسابيع كثيرة وأنهكت العزيزة مس كينو المستشارة الثقافية بسفارة اليابان حتى أشفقتُ عليها.

ولكنِّي لم أنَمْ.

ولا لحظة واحدة.

من أجمل وأروع التسبيحات التي يقولها المؤذِّن قبل أذان الفجر، شرط أن يكون تسبيحه بلا ميكروفون مُزعِج مقلق، وشرط أن يكون الإنسان مستيقظًا لتتلقَّاه حواس صاحية، ذلك التسبيح الذي يقول:

سبحان فالق الإصباح.

وجدتُ نفسي تكاد تجيش بالبكاء وأنا أرى الفجر يُولد بتوالٍ سريع أمامي. حين تحدث التغيُّرات الكونية بسُرعتها العادية لا يكاد الإنسان يحسُّ بها، وكأنما قد كيَّفَت سُرعتها، أو كيَّفَ المولى سرعتها، كي لا يَضطرِب الإنسان لحدوثها، أما والإنسان قد صنع أشياء تستطيع أن تُسرع حتى بالتغيُّرات الكونية، مثل النفاثات الحديثة، فإن مشاهَدة ذلك التغيُّر تُحدِث في النفس هزةً وجياشًا عاطفيًّا يكاد ينطق.

اختصرت الطائرة النفاثة المسافة والزمن معًا ما بين الثالثة صباحًا والخامسة والنصف، موعد شروق الشمس في أي مكان من العالم، حتى ذلك المكان في بحر الصِّين العظيم الذي كنتُ فيه، فيما لا يتجاوز الساعة. وفي تلك الساعة، شاهدتُ لأول مرة في حياتي كيف يُولد النهار، كيف يُصنع الفجر، كيف يَنتهي الليل، كيف يحدث للكرة

الأرضية، وكيف يحدث لنا ذلك التغيُّر الكوني العظيم، ومن الظلام يأتينا النور، ومن ضوء القمر الملوَّن للأشياء يأتينا ضياء الشمس الساطع الواضح الحار.

أُحملِق من خلال نافذتَي الطائرة المُقابلتَين لمقعدي فأرى اللوحة متحرِّكة وكأنما يَرسمها فنان ساحر باستطاعته أن يُغيِّرها باستمرار، بحيث لا تثبت على مشهد واحد، حمرة عبثية باهِتة تبدأ، رفيعة مُضطرِبة لا معنى لها، تتزايَد، يَزرقُّ لها الظلام وأبدًا لا يَحمر، تتغامَق حمرتها هي لتُصبح ويا للغَرابة برتقالية داكنة، ثم فاتحة، ثم باهتة الاصفرار مختلطة بباهت الزُّرقة حولها، وكل شيء مُتداخِل في كل شيء، السحاب مع السماء مع الأزرق مع الرمادي مع الأصفر مع البرتقالي مع بقايا الأسود.

ثبَّتُّ أنا المنظر في عيني إذ كان من المحال تثبيتُه في الواقع، وهززتُ رأسي لأني تذكرتُ تمامًا أني رأيتُ هذا المشهد قبلًا، بل بالذات رأيتُه من خلال عدسة ميكروسكوب، أول وجود لجنين الكتكوت في بياض البيض، يا سبحانك يا رب، إن ميلاد كل شيء واحد، جنين الإنسان، كجَنين الكتكوت كجنين الفجر، كجنين التغير، كجنين الفكرة، كجنين الخروج عن المألوف، الصورة بحذافيرها واحدة وإن اختلفت الألوان، إحساسك به واحد، هي الحياة تَدب، حتى التغيُّر والتغيير في الجماد حياة، والميلاد واحد، وخروج الميت من الحي كخروج الحي من الميت، كولوج الليل في النهار، كولوج النهار في الليل، كانبثاق الأمل في اليأس المطبق أو عنكبة اليأس في الأمل الممتد، يا إلهي!

لحظات مضت في ساعة كاملة من الزمن.

اللوحة تأخذ بالألباب ويَخفِق لها القلب وتتهدج الأنفاس، حتى لكأني أُشاهِد معجزة!

وتلك هي المعجزة الوحيدة التي شاهدتُها في رحلتي.

أمَّا اليابان التي ذهبتُ لأشاهد معجزتها، فلم تكن هناك معجزة على وجه الإطلاق.

ولكن كان هناك شيء آخر.

ماذا فعل الأقزام السُّمر؟

في نفس اللحظة التي وصلتُ فيها إلى الفندق، وبدأتُ أُسجِّل اسمي وما كدت أبدأ كتابة الأحرف الأولى منه، حتى ظهر فجأة، وكأنما انشقَّت عنه الأرض، وجهٌ أعرفه تمامًا، أقبل مُرحِّبًا معانقًا، بينما أنا تائه في دوار الرحلة الطويلة محاولًا رغم هذا أن أتذكر الاسم، ولم يفعل هذا المصري الظريف مثلما يفعل الكثير من إخواننا المصريِّين الظرفاء ويبدأ يقول لي: أنت عارفني؟

فأقول: بالتأكيد نعم. فيقول: طيب، أنا مين؟ ويتركُكَ تتصبَّب عرقًا لتتذكَّر، ولا يسعفك بكلمة أو بخاطرة تُوحي لك أين ومتى ومَن هو. على الفور قال: أنا أنيس نعمت الله. والمضحك أنه قالها بسرعة في نفس الوقت الذي كانت خلايا عقلي قد أجرت اتصالاتها كاملة وتذكَّرت الصديق أنيس نعمت الله، الذي عرفتُه في مطلع شبابه سكرتيرًا دبلوماسيًّا في سفارتنا في براج حين دعاني لزيارة تشيكوسلوفاكيا الصديق الكبير مجدي حسنين سفيرنا في ذلك الوقت، وكان أنيس مُرافقي الدائم لاستطلاع مدينة براج العريقة. كان أنيس قد كبر بعض الشيء، كان قد تزوج وأنجب، وكان قد أصبح وزيرًا مفوَّضًا في سفارتنا في طوكيو، وأمضى أربع سنوات في اليابان، وبعد أسابيع قليلة يكون في طريقه للعودة إلى مصر بعد انتهاء خدمته هناك.

في أثناء التحية الحارة المُتواصلة كنت أنا أتساءل: كيف عرف أني قادم وكيف ضبَطَ نفسه بحيث يَلقاني في أول لحظة لي بالفندق، فقد جرت العادة ألا تهتمَّ سفاراتنا في الخارج — ما دمنا لسنا مسئولين ولا موظفين حكوميِّين كبارًا — بقدومنا؛ إذ إن السفارة دائمًا في رأينا تُمثِّل الحكومة أو الدولة، وما دمنا لسنا كذلك، فما الداعي للإحراج. ولكن الدكتور أنيس نعمت الله كان قائمًا بالأعمال في غيبة سفيرنا المصري في إجازة في القاهرة، وعرف من وزارة الخارجية اليابانية بمَوعد قدومي في آخر لحظة، أمَّا المدهش في هذا

كله، والذي من أجله رويت كل هذه القصة، فهو أنه حسبَها بالطريقة اليابانية الدقيقة، وما دام ليس لديه وقت ولا فرصة للمجيء إلى المطار، فقد حسب أن الطائرة تصل في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة في المساء، والرحلة من مطار ناريتا الجديد إلى الفندق ستأخذ ساعة وأربعين دقيقة، إذن سأكون في التاسعة وعشرين دقيقة في باب الفندق. وبالضبط هذا قد كان، بلا دقيقة واحدة من الفرق، وقلت له وأنا أضحك: إذن لقد أصبحتَ بعد هذه السنوات الأربع أكثر دقةً وحسابًا من اليابانيِّين.

يا سبحان الله! كيف «ينضبط» الإنسان المصري إلى هذه الدرجة من الدقة في الخارج، أي واحد فينا بمُفرده إذا سافر يُصبِح دقيقًا وشديد الانضباط ومتحضِّرًا غاية ما يكون التحضر، هو نفسه الذي يعيش «هليهليًّا» هنا أو كيفما اتفق، كيف يتحول بهذه السرعة، كيف أن النظام والدقة والتحضر تبقى كامنة سليمة فينا تمامًا، وإنما هو فقط لا يستعملها، لا يستعملها إلا في مجتمع «يُضطر» لاستعمالها فيه.

المجتمع …

أو على درجة أصح، الطريقة التي يَحيا بها ويُدار المجتمع.

تلك هي المعجزة في اليابان، إن كانت هناك معجزة، وهي سر فشل معجزتنا نحن في مصر وبلادنا العربية.

إنَّ سر اليابان الوحيد، كما هو سر معظم البلاد الآسيوية، أنها تعرف كيف تعيش جماعة، وكيف تعمل كجماعة، أن الإنسان المصري الفرد فيه صفات ربما يتميَّز فيها بكثير جِدًّا عن أي إنسان في أي مكان آخر من العالم، ولكن هذه المزايا تَنقلِب إلى عيوب حين يبدأ يعمل مع غيره، لدرجة أني وجدت بين المصريِّين القليلين الذين يَحيون هنا في اليابان تشنيعة تقول: إنَّ مصريًّا واحدًا يعمل وحدَه عبقري، واثنين من المصريين يعملان معًا يُصبحان مُتوسِّطي الذكاء، وثلاثة مصريِّين يعملون معًا يُصبحون كارثة، بينما واحد ياباني بمفرده كارثة، واثنان يقومان بجهد متوسط، وثلاثة يُصبِحون عبقرية فذة.

ولستُ أعرف كيف أصبحنا نحن المصريين هكذا.

ولكني عرفت لماذا أصبحوا هكذا في اليابان.

إنَّ إحدى ميزات اليابان أنها كائنة على الطرف الآخر من الدنيا، أربع جزر كبيرة تكاد تكون معزولة على الحافة الشرقية لقارة آسيا، ولم يَستَطِع أحد ممن سألتُهم من اليابانيِّين أن يعطيني إجابة شافية عن أصل سكان اليابان الحاليِّين، والروايات في هذا

تختلف، ولكن المؤكد أن سكان تلك الجزر اليابانية قد نشئوا، على عقدة من الخوف من الغول الصيني الجالس على عرشه التليد أمامهم، يحتلُّ في ثقة وفي مجد البطن الجنوبي للقارة الآسيوية، وتنشأ فيه حضارة وحكومات إمبراطورية مُتتالية، وكتابة وطباعة وفن. وفي مقابل هذا كان سكان تلك الجزر نحاف الأجسام، سمرًا بالقياس إلى اللون الصيني الفاتح، حتى إنهم كانوا يُسمُّونهم الأقزام السمر. صيادون فقراء، ليس في أرضهم مناجم ومساحات واسعة تُزرَع، وإنما هي طبيعة جدباء شديدة الفقر، وطعامُهم هو الأُرز المسلوق، فإن ظفر أحدهم بين كل حين وحين بقطعة سمك معه، كانت هي الوجبة الحافلة الشهية.

حياة مُوغِلةً في الفقر والتوحُّش، هكذا كان مُحتَّمًا أن تخلق طبقة حاكمة شرسة قوية اسمها طبقة «الشوجون»، مثَّلت في حياة اليابان ما يُمكن أن نسميه في حياتنا في العالم القديم بالحكم الإقطاعي. ودائمًا كانت هناك خلافات بين أسر الشوجون الحاكمة تَعتمِد في حلِّها وحسمِها على عسكريِّين مُحترِفين اسمهم الساموراي، وطريقة تنشئتهم وتربيتهم عسكريًّا تُشبه الطريقة التي كانت تتبعها الأسر الحاكمة في مشرقنا العربي حين كانت تَستقدِم المماليك وتدربهم ليكونوا مُقاتليها المُحترِفين.

هؤلاء لم يكونوا مماليك من الخارج، وإنما هم من قلب المجتمع الياباني، الذين ينشئون على الطاعة العَمياء لأميرهم الشوجون. وأقلُّ هَفوة يَرتكبُها أحدُهم يجازي نفسه عليها بالانتحار على طريقة الهاري كاري أو شق البطن بالسيف.

هذه كلها معلومات مُمكِن أن يَعرفها أيُّ طالب ثانوي أو جامعة وموجودة في كثير من الكتب الشعبية، ولكن ما ليس موجودًا في تلك الكتب أن هذا الحكم الشوجوني الطويل نشأ وأنشأ اليابانيِّين — سواء أكانوا من طبقة التجار أم الحرفيين أم الصيادين والمُزارعين — على كُرهِ كل ما هو ياباني، وحين كنت جالسًا أمام تليفزيوننا المصري أمس وشاهدت لافتة تدعو إلى شراء كل ما هو صناعة مصرية باعتبار أنها لا تقلُّ جودة عن الصناعة اليابانية، كدتُ أضحك؛ فالدعاية الوحيدة التي تُطلقها حكومة اليابان الحالية هي تشجيع المستهلك الياباني على شراء البضائع الأجنبية، فقد اشتَكَت حكومات الأرض جميعًا وعلى رأسها الحكومة الأمريكية — هازمة اليابان عسكريًّا في الحرب العالمية الثانية — من انقلاب، ولا أقولُ ميل، ميزان المدفوعات في صالح اليابان بشكل أصبح يُهدِّد التجارة العالمية الغربية، وبالتالي صناعة الغرب قاطبة وليس أمريكا وحدها. ذلك أن اليابانيِّين لا يُحبُّون ولا يَثِقُون إلا في كل ما هو ياباني، وينظرون إلى كلِّ ما هو أجنبي نظرةَ ريبة

وحذر. ففوق ذلك الحكم الشوجوني الرهيب في قبضته واستبداده، والذي خلق بتسلُّطه مسرح الكابوكي ومسرح النو، تلك المسارح الشعبية التاريخية التي تَنحو باستمرار — عكس مسارحنا الشعبية المصرية التي تَسخر دائمًا من «السيد» وتُمجِّد التابع أو الفرفور — تلك المسارح مبنية أساسًا على تمجيد السيد «الشوجون» وكشف المؤامرات التي تُحاك ضدَّه من المُجرِمين أو التابعين المُتمرِّدين، وهي فكرة مخالفة تمامًا لموقفنا نحن من السلطة، حتى حين أصبحت سلطة مصرية بحتة.

أقول، فوق هذا النوع من الحكم الشوجوني، استطاع أحد الشوجونات أن يُسيطِر على كل الأسر غيره وأن يحكم هو وأُسرته اليابان لفترة طويلة امتدَّت لأكثر من مائتَين وخمسين عامًا، وأيامها أغلق اليابان تمامًا في وجه أي أجنبي؛ فقد كان ممنوعًا في طول اليابان — إلا في استثناءات قليلة جِدًّا لبعض البرتغاليِّين — لأي أجنبي، وأعتقد أن القراء أو بعضهم على الأقل لا يزال يذكر مسلسل «شوجون» الذي عُرض في التليفزيون المصري عن رواية ضخمة للكاتب الإنجليزي جيمس كليفلز، والذي حين سألت عنه بعض أصدقائي اليابانيين أبدوا عدم حماسهم بالمرة للمسلسل، بل وأبدى بعضهم شديدَ امتعاضه؛ ذلك أن في المسلسل زوجة يابانية تحبُّ رجلًا أجنبيًّا، وفي هذا خدشٌ ما بعده خدش لكرامة الشعار الياباني في احتقار كلِّ ما هو أجنبي، وتمجيد كل ما هو ياباني.

هذه العُزلة الطويلة صنعت شيئين أساسيَّين في الشخصية اليابانية؛ أوَّلًا: أنضجت الشخصية القومية إنضاجًا مُتقَنًا، ومنعَتْ عنها أي مؤثِّرات أجنبية قد تتدخَّل في عملية الإنضاج تلك، فحين تَنغلِق الأمة على نفسها تمامًا، لا تعود تحسُّ بالعالم الخارجي، ولا تعود تحس إلا بنفسها وكأنها كل الدنيا، ويصبح كل ما هو خارجي إمَّا يشكل خطرًا أو تهديدًا لذلك الوجود، وصحيح أن هذا الانغلاق كان له أسبابه الدينية من خوف الحكام اليابانيِّين على غَزو جزرهم من قبل المُبشِّرين المسيحيين بالذات، وحتى المسلمين، ومن غزو عسكري أو احتلالي من قبل الصين بالذات، ذلك المارد العملاق المُمدَّد في سكون مريب بجوارهم، إلا أن هذا الانغلاق أثبت حكمته في المدى الطويل، ولا يزال الشعور بالتحيُّز والتعصب لليابان قائمًا على قدم وساق إلى الآن، حتى بعد أن جاء الإمبراطور ميجي في أوائل القرن التاسع عشر وبدأ «يفتح» اليابان، بل ويسترشد بتجربة مصر محمد علي في هذا، بل إنه أرسل بعض المبعوثين اليابانيين لدراسة ما فعله محمد علي بالضبط ليُحدِّث الدولة المصرية، مبعوثين كانوا محلَّ سخرية المصريين كالعادة من هؤلاء «اليابانيين»

المتأخِّرين القادمين من آخر الدنيا ليُقلِّدوا مصر! هذا الشعور بالتعصُّب نفسه هو ما دفع اليابان لأن تأخُذَ موقفًا عدوانيًّا استفزازيًّا من كل القوى الكبرى في منطقة الباسيفيكي؛ فقد شنَّت حربًا على روسيا القيصرية عام ١٩٠٤ وهزمَتْها، وحاربت الصين واحتلت جزءًا كبيرًا من أراضيها، ثم حاربت أمريكا حربًا ضروسًا أنهتْها القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي.

ورغم هذا فلم تَنكسِر شكيمة اليابانيين بتلك الهزيمة العسكرية. لم يُقيموا المنادب والجنائز على هزيمة «٦٧!» وإلى الآن يظلُّون يَلطِمون الخدود عليها، وكأنما قالوا لأنفسهم: حسنًا يا أمريكا، انهزمنا عسكريًّا فلْنتبارَ صناعيًّا إذن.

والنتيجة كما يرى العالم الآن مذهلة؛ فقد هزمت اليابان، ليس أمريكا وحدها، ولكن الغرب كله هزيمة صناعية مُنكَرة، حتى الصناعات التي تخصَّصت فيها دُوَل بأَسرها مثل سويسرا كصناعة الساعات، أصبحت الساعات اليابانية أكثر وأشهر، وبدأ سعرها يرتفع ويُضارع سعر الأوميجا والرولكس. السيارات، الحديد والصلب، السفن، الإلكترونيات. هزيمة ساحقة فعلًا. حتى العُملة الغربية من الدولار إلى المارك والفرنك أطاح بها ذلك الينُّ الياباني الصغير في مُصارعة لم تستغرق — كمُصارَعات السومو اليابانية — طويلًا، وقذف بها جميعًا أرضًا.

واليابانيون يعلمون هذا، تَذكُر ذلك أمامهم فيهزون رءوسهم على الطريقة اليابانية المؤدبة، ثم يَبتسمون ابتسامة من لا يصدق، وكأنهم لا يصدقون فعلًا، مع أنهم عارفون ومتأكِّدون، ولكنه الإحساس المُمضُّ الذي صاحبهم مذ كانوا يسمونهم الأقزام السمر، الإحساس بالنقص الذي يدفع إلى الكمال، وإلى كمال لا تحسُّ أبدًا مهما وصلتَه أنك بلغتَه، مثل الطالب غير الواثق من نفسه حين يُجيب في ورقة امتحان إجابة تكاد تكون كاملة، أو كاملة، ومع هذا يُحسُّ أنه لا يزال بينه وبين الكمال مسافات.

ثانيًا: تلك العزلة الطويلة فوق إنضاجها للشخصية الوطنية، أنضجت أيضًا، وهذا هو المهم، طريقة عمل.

وهي طريقة عمل ليست مقصورةً على اليابان فقط، ولكنها طريقة العمل الآسيوية؛ فهي نفسها طريقة العمل في كوريا وفي الصين وفي تايبيه وفي فيتنام، والحقيقة في كل مكان.

والطريقة بسيطة للغاية. إنَّ العمل يُقسَّم على أن يقوم بكل جزء منه مجموعة، وأن يكون لكل مجموعة مسئول واحد يُحاسِب أفرادها ويُوزِّع عليهم أفرادًا أنصبتهم من ذلك الجزء من العمل.

هذا ألف باء تقسيم العمل منذ بدأت الخليقة. كان المسئول في عصر الصيد هو أقوى الجميع جسدًا، وهو الزعيم إلى أن يتصدَّى له من هو أقوى منه فيأخذ منه القيادة، وعلى الباقي الطاعة، طاعة كانت تُفرض بالقوة الجسدية في العصور البدائية. ولكنها، بثورة الإنسان الفرد ضد استعمال القوة البدنية، صارت تُفرض بالقوة المعرفية، أو كما أسموها بقوة القانون أو عُرف العمل أو التقاليد أو ما شئت من أسماء.

وهذا النظام بدمه ولحمه موجود عندنا في مصر وفي كل مكان، إنما لأنه درجَت حكومات الاحتلال والاستعمار على تعيين المسئول من غير المصريين زمان، أو من المصريين بعد الاستقلال، ممَّن لا يستحقون وضع المسئولية، بالواسطة أحيانًا أو بالإجبار، فقد درَج المصريون على التمرُّد على هذا التوزيع، التمرد بطريقة أو بأخرى، ابتداءً من التكاسل في تنفيذ الأمر، إلى «الطناش»، إلى الاستعباط والاستهبال، إلى الرفض ورفع الأمر للجنة النقابية، إلى التلحمة والتشويح إذا تَصادَفَ وكان المأمور عضوًا أو قريبًا لعضو في اللجنة أو قريبًا لرئيس مجلس الإدارة أو حتى سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة.

بمعنى أن نظام العمل عندنا ليس سيفًا فقط، ولكنه ضد نظام الإنتاج، بينما نظام العمل الآسيوي وُضع وهدفه الأساسي كم الإنتاج. عندنا كل إنسان يُريد أن يكون «عامًّا»، سكرتير عام، مدير عام، مفتش عام، قوميسير عام، مشرف عام، ومن المضحك أني كنت أُشاهِد بالأمس نهاية حلقة تليفزيونية أعبط ما رأيت من تأليف أو تمثيل أو إخراج، وراعني في «التترات» أن يُكتَب هذا: منتج منفذ، ومشرف إنتاج، ومساعدي منتج، ومنتج عام، ومدير عام الإنتاج. أقسم أن هذا صحيح، ومن لا يصدق عليه أن يرى نهاية أية حلقة تليفزيونية مصرية، ليعرف لماذا نحن تعساء في إنتاجنا حتى لو كان كمًّا من الكلام الفارغ. كل «رؤساء» الإنتاج هؤلاء مع اختلاف رتبهم ومراتبهم يصنعون ماذا، يُشرِفون على أربعة أو خمسة عمال بالكثير هم الذين يقومون بتركيب أو فك الديكور أو حمل آلات التصوير.

ولعلَّ هذا يُذكرني بقصيدة شاعرنا العظيم حافظ إبراهيم، تلك التي حفظتُها في أُولى ثانوي وما زلت أحفظها إلى الآن، وبالصُّدفة فإن القصيدة كانت تمجيدًا لليابان بمناسبة

انتصارها على روسيا القيصرية، وقد بدأها حافظ كالعادة بلوم أنفسنا وأمَّتنا وبعض خواصِّنا غير الحميدة، يقول:

لا تَلُم كفِّي إذا السيف نبا	صح مني العزم والدهر أبا
ربَّ ساعٍ مُبصِرٍ في سَعيه	أخطأ التوفيقَ فيما طلَبا
مرحبًا بالخطْب يَبلوني إذا	كانت العلياء فيه السَّبَبا
عقَّني الدهرُ ولولا أنَّني	أُوثر الحلم عققتُ الأدَبا
أنا لولا أنَّ لي من أمتي	خاذلًا ما بتُّ أشكو النُّوَبا
أمة قد فتَّ في ساعِدِها	بغضُها الأهلَ وحبُّ الغُرَبا
تَعشَقُ الألقابَ في غَير العُلا	وتُفدِّي بالنُّفوس الرُّتَبا
وهي والأحداثُ تَستهدِفُها	تَعشق اللهو وتَهوى الطربا
لا تُبالي لعب القومُ بها	أم بها صرفُ الليالي لَعِبا

ثم يسقط «شاعرنا النيلي» في شرح ومقابلة هذا بقصته مع اليابانية التي أحبها والتي أخذت تُلقِّنُه دروسًا في الهمة والنهضة والتي كانت صُفرتها «تُنسي اليهود الذهبا».

وكم وددتُ لو عاش شاعرنا ليرى اليابان وفتياتها وقد أصبحن بيضًا طويلات جميلات أكثر أناقة من الفرنسيات وأكثر غِنًى من الأمريكيات.

وددتُ هذا، وكانت قصيدة حافظ تُداعب سمعي وأنا أجول في أحياء طوكيو الشامخة، غابات من ناطحات السحاب مبنية على قُضبان وعجل، بحيث «تَنزلق» إذا حدث زلزال، وكنت قد شاهدت في طوكيو عام ٧١ ناطحة سحاب واحدة، الآن أصبحت مئات وربما آلاف.

اغتنَتِ اليابان كثيرًا.
وافتقرنا نحن كثيرًا.
وتقدمت وتأخرنا.
ولكن المعجزة التي وجدتها في اليابان؛
أنها ليست حالة مُستحيلة أبدًا.
وأننا مُمكن، وببساطة شديدة، أن نَسبق اليابان.
كيف؟
ذلك هو السؤال.

سرٌّ آسيا وسرنا

ليس في اليابان معجزة إذن، وليس لدينا نحن أيضًا نقص في المعجزات. وكثيرون سيقولون إن مردَّ النجاح هناك إلى ارتفاع الدخل القومي، ومردَّ هذا أيضًا إلى رءوس الأموال الأمريكية التي تدفَّقت عليها بعد الحرب، ثم إعفائها من نفقات الجيش والتسلُّح التي تمتصُّ ميزانيات الدول الأخرى. ولكن أقول لهؤلاء — مع احترامي لكل تلك العوامل — أن قصْر السبب على هذا هروب من مواجهة الحقيقة، وآن الأوان أن نتعلَّم مواجَهة الحقائق. إن الجهد البشري هو الرأسمال الأوَّل لأيِّ شعب، ومهما قلَّت الموارد فإن تنظيم هذا الجهد وتوظيفه هو الوسيلة الأولى لإقامة أي دولة وأي نظام وأي ثورة أو صناعة.

ولقد كان ممكنًا أن تَختار اليابان طرقًا أخرى كثيرة للخروج من مَجاعة ما بعد الحرب وما حاق بها مِن خَراب، وكان مُمكنًا أن تَفشل، ولأنها لم تَفشَل فلا بد أن الأسلوب الذي واجهت به هزيمتها العسكرية ودمارها الاقتصادي كان صوابًا.

لا بدَّ أنهم هناك أدركوا أن اليابان مثلها مثل أي بلد من بلاد العالم، لكي تُقيم صناعة حديثة لا بدَّ أن تفكر كثيرًا وبذكاء شديد؛ فالصناعة ليست هدفًا في حد ذاته إنما هي وسيلة أكثر فاعلية من الزراعة أو الصيد مثلًا في ازدهار الاقتصاد القومي.

وخيرٌ ألا تقوم صناعة بالمرة إذا كانت ستفشل أو ستؤدِّي إلى انخفاض الدخل. ولأن اليابان ليست في فراغ، فإن الصناعة التي ستنشأ فيها لن تقوم في فراغ وإنما ستكون قائمة داخل عالم فيه دول سبقَتْها ودول أغنى، وفيه صناعات راسخة الدعائم وغير قابلة للمُنافسة.

من أين تَنفُذ اليابان إذن إلى الوجود الصناعي العالمي في عالم مُزدحِم بالموجودين؟ كان مُمكنًا أن تفعل اليابان مثل الاتحاد السوفيتي وتبدأ بإنشاء الصناعات الثقيلة ثم الخفيفة وهكذا.

ولكن إنشاء الصناعات الثقيلة في عالم اليوم لا يُمكن أن تقوم به شركات هدفها الربح، بل حتى لا تستطيع الدولة نفسها أن تقوم بتمويله.

ثم إن الصناعة الحديثة تَعتمد على «الأوتوميشين» أو الاستغناء عن العمال وهذا شيء لا يُلائمها. المطلوب إذن هو التركيز أوَّلًا على اكتشاف نوع من الصناعة تنفرد به اليابان وتُتقنه حتى يُصبح سلعة عالَمية مطلوبة ومضمونة، وبالأموال العائدة من تصدير هذه الصناعة تبدأ اليابان تمول صناعاتها الثقيلة وكل الصناعات المُترتبة عليها.

واكتشفَتِ اليابان الترانزستور، ليس مهمًّا أن يكون مُكتشِف الترانزستور نفسه إنجليزيًّا أو أوروبيًّا؛ إذ المُهم أن اليابان اكتشفت هذا الاكتشاف، إنه الصناعة التي بالضبط نحتاجها، إذن ما هو الترانزستور؟

... على رأي صديق لنا: إن هو إلا حفنة من الصفيح والنحاس لا يَزيد ثمنها على ريال، كل ما في الأمر أنه بالجهد البشري الصبور تتحوَّل هذه الحفنة بعد ساعات وعلى يد عامل واحد إلى جهاز ثمنه عشرون أو ثلاثون ضعفًا لثمنِ المادة الخام.

إنها إذن الصناعة الأمثل؛ فاليد العاملة الدقيقة مُتوافِرة، والأجهزة لا تحتاج إلى معادن كثيرة؛ فاليابان ليس فيها أيُّ مادة من مواد الصناعة الخام، لا فحم، ولا حديد، لا بترول، لا نحاس، ولا شيء بالمرة.

إنها تَستورد كل المواد الخام، بل حتى تستورد الطعام نفسه. ليس في اليابان إلا شعب كثير تضيق به الجزر الخالية من أي شيء سوى السمك، وبضع مساحات محدودة تَصلُح للزراعة.

ولم يكن اختيار الترانزستور لكل ما ذكرته فقط، وإنما كان لعامل آخر شديد الأهمية. إنه صناعة نسائية تَستلزِم كل صبر المرأة ودقة أصابعها ودأبها على العمل الدقيق، ذلك الذي يتمثل في هوايتها لشغل الإبرة والتريكو. لهذا فلن يكون الترانزستور صناعة ناجحة فقط ولكنه — وهذا هو الأهم — سيؤدي دوره في نقل نصف المجتمع الياباني من موقع العالة على الإنتاج إلى موقع تصبح فيه المرأة اليابانية التي بقيت حتى ذلك الوقت لا عمل لها إلا إرضاء الرجل وخدمته وإحالة البيت الصغير إلى جنة يخلد إليها «السيد» المُنتِج بعد يومه الحافل الطويل، تُصبح فيه مصدرًا أساسيًّا من مصادر الطاقة الإنتاجية. صناعة تجعل الحياة تدبُّ في نصف الأمة المشلولة، تَعتدل به الحياة.

وهكذا — فجأة — تدفق على العالم طوفان الترانزستور، مطلوبًا ومرغوبًا ومنتشرًا، يكتسح أمامه كل أجهزة اللاسلكي التي أنتجَتْها أوروبا وأمريكا والتي كان لا يَقتنيها إلا القادِرون. بحيث لم يَخلُق فقط أسواقًا، وإنما خلق للراديو نفسه جمهورًا هائل الضخامة والحجم.

في قريتنا لم يكن عدد أجهزة الراديو القديمة يزيد على العشرة بأي حال. في قريتنا وحدها الآن — واحدة من أربعة آلاف قرية مصرية في دولة واحدة من عشرات ومئات الدول — أصبح فيها ما لا يقلُّ عن الثلاثة آلاف جهاز ترانزستور.

وربحت أيضًا ٥٠ مليون مصنع بشَري نسائي من عَقلية القرون الوسطى إلى القرن العشرين، جئنَ ووجدنَ، وبما حدث لهنَّ من تغيير بدأنَ يُحدِثنَ هنَّ التغيير، وبالوجه الآخر المظلم وقد أضاء، وبالوجهين معًا قفز المجتمع كله إلى الأمام قفزة لم يكن يحلم بها هو نفسه.

وهكذا بدأت تُرسي دعائم مجتمعها الصناعي الكامل، من صناعة الصلب إلى صناعة الكيماويات. وتَبنيها لا لمجرد أن تفخر بأن لديها هذه الصناعة أو تلك، وإنما بهدف محدَّد مسبق؛ أن تقدم هذه الصناعة أو تلك لتكون الأولى في العالم. لترث كل ما وصلت إليه الصناعة في الغرب أو الشرق، وتُضيف إليها شيئًا هامًّا جِدًّا يُميِّز كل منتجات اليابان، ألا وهو — مثل ديانة الشرق — قربها وتلازُمها مع حياة الناس العادية ومُتطلباتهم وبأزهد ثمن. وإنه لمذهل حقًّا أن تصبح اليابان أول دولة في العالم في صناعة السيارات، وأول دولة في بناء ناقلات البترول. حتى سويسرا التي لم يَجرؤ على منافستها أحد، ساعات اليابان تَكتسِح ساعاتها من السوق وتنافسها حتى في سويسرا نفسها.

والغريب أن آخر من يستهلك الصناعات اليابانية هم اليابانيون. إن عدد من يملكون سيارات أقل من مثيله في أي بلد آخر، كذلك الكاميرات والريكوردارات. كثيرًا ما راودني ذلك التعريف الذي استوحيتُه من مظاهر التقشُّف التي تحفل بها حياة المواطن الياباني العامل، أن الفرق بيننا أنهم ناس طموحهم الأكبر أن ينتجوا السيارة من لا شيء لا أن يَمتلكوها، بينما نحن طموحنا الأوَّل أن نمتلك السيارة، وبالذات حبَّذا لو كانت من إنتاج غيرنا.

والصناعة أوَّلًا وأخيرًا إنسان.

والإنسان أوَّلًا وأخيرًا موقف من الحياة. وموقف الإنسان الآسيوي — بشكل عام — من الحياة موقفٌ جاد.

وكارثتنا الحقيقية أن موقف إنساننا من الحياة موقف هازل.

يَمتلك شعبنا خاصية غريبة لم أكن أتصوَّرها، كنتُ أناقش ذات يوم في لندن أخصائيًّا كبيرًا في اختبارات الذكاء بمستشفى «هامر سميث» حيث كان طفل مصري يُفحَص من إصابة، وحين أُجرِيَت عليه اختبارات الذكاء كانت نسبة درجاته أعلى بكثير من المُعتاد في هذه السن!

وحسبتُ الطفل نابغة أو فلتة، ولكن فوجئت بالأخصائي يقول إن هذا في الواقع هو الطفل المصري العاشر الذي يَفحصُه، وهو ليس أول الحاصلين على هذه النسبة، إنه السابع، واعتمادًا على خبرتي أستطيع أن أقول إن هذا ربما أعلى نسبة للذكاء بين أطفال العالم.

وأحسستُ بفرحة حقيقية، كان كلامه كالخبر المفرح المفاجئ، وقبل أن أعلق كان هو يهزُّ رأسه أسفًا ويقول: ولكن الغريب أن أطفالكم يظلُّون كذلك إلى حوالي الخامسة، ثم تبدأ نسبة ذكائهم في الهبوط! بينما تأخذ نسبة قرنائهم الإنجليز أو غيرهم في الارتفاع بحيث يتفوَّقون عليهم بمراحل، وتراجعت فرحتي واحتَرْت، واحتار معي هو الآخَر. ولكنَّا بالنقاش وصلنا إلى ما يُمكن أن يكون السبب؛ فحتى هذه السن يكون ذكاء الطفل مستمدًّا من مخزونه الوراثي من الذكاء، ولكنه بعدها يعتمد ذكاؤه على مدى تفاعل ذكائه الموروث مع بيئته وعلى أثر البيئة في تنمية الذكاء، تمامًا كأي عضلة تولد بقوة معينة، ولكن قوتها تبدأ تعتمد على التداريب والتمارين التي تُزاولها.

أنحن إذن نُولد أذكى؟

هذه حقيقة.

الحقيقة الأخرى لمستُها في تجوالي بين حضارات آسيا. كثيرًا ما سمعتُ ذلك التعبير يرنُّ في أذني: ألا تعرف أنك من مصر موطن أول الحضارات؟

وهذه حقيقة أخرى.

والمسألة أبدًا بعد هذا ليست صدفة، وليس معنى زوال الحضارة عن شعب وتسليمها لشعب آخر أنه يرتدُّ إلى الوراء مثلًا أو يبدأ يُصبح أقل حضارة. إن زوال معالم الحضارة عن البلاد لا يعني أبدًا زوالها من الإنسان نفسه، وإذا كان الذكاء المصري هو الذي أحدث في العالم القديم ما يُشبه ثورة الصناعة والتكنولوجيا في العصر الحديث باكتشافه لأول ثورة في العالم وأول تكنولوجيا؛ الزراعة وآلاتها الزراعية، إذا كان ذكاؤنا هو أول مَن بدأ يصنع الذكاء البشري، فمعنى هذا أنه الآن أعرق ذكاءٍ وأخصبه وأطوله عمرًا.

كل ما في الأمر أن الذكاء كي يُصبح فعَّالًا يَكفي أن يكون صفة موروثة أو مُكتسَبة، إنما التحضُّر والتقدم يَصنعه الذكاء الجماعي لا التفوُّق الفَردي. نحن أول «مجتمع» ذكي عرفه الإنسان، كل ما في الأمر أن عُمر هذا المجتمع الذكي لم يَدُم طويلًا، وما لبث النظام الذي كان يُتيح استثمار الذكاء جماعيًّا أن تَوقَّف عن التطور وانفرط عقده، وأصبحنا ومنذ تلك اللحظة وإلى الآن أفرادًا أذكياء فقط. في مجتمع لم يَنجَح في تجميع هذا الذكاء واستثماره، أو بالأصح في مجتمع غبي ومتخلِّف، أطفالنا يولدون عباقرة بالقياس إلى أطفال العالم، ومفروض أن يتسلمهم نظام حياة يُنمي هذا الذكاء الفردي ويربيه ويدربه على تكوين مجتمع ذكي يعمل طول الوقت، ويطور نفسه بحيث يستطيع باستمرار أن يستوعب ذكاء أفراده، وبذكائهم الجماعي يحيا ويتقدَّم ويخترع وينتج؛ بحيث يجد الفرد الذكي نفسه في حالة صدام مع مجتمع قاصر عن استيعاب ذكائه، حيث يتحوَّل بذكائه لخدمة ذاته أو بالأصحِّ الدفاع عن ذاته وهكذا.

ولم ألمس هذه الحقيقة الغريبة بقدر ما لمستُها في آسيا. إن الفرد المصري كما قلت قبلًا، أذكى، ولكن ميزة الذكاء الآسيوي المتوسِّط أنه موجود في مجتمع ذكي، مجتمع يَعرف قيمة الذكاء، ويهيئ له كل السبل، ويعرف كيف يَخلق النظام الذي يُتيح لأذكياء كثيرين أن يعملوا معًا، أن يحدث هذا التعاون الذكائي الكامل، ذلك الذي يَصنع في الحقيقة أي حضارة أو صناعة أو حتى فن؛ وبالتالي يَصنع الإنسان ويُدربه ليكون أذكى وأذكى، بحيث يعوض بالإرادة ما افتقَدَه بالوراثة؛ بحيث يُصبح ذكاء المرء محسوبًا له، وليس كالحال هنا محسوبًا عليه، بحيث يَكتشِف في كل فرد مَكمَن طاقته وتفرُّده وقُدرته، وفي مكانها الصحيح يُجيد استخدامها.

وذلك في رأيي سرُّ أي مجتمع ناجح، سر أي تقدم علمي أو صناعي أو حضاري أو ثقافي وفني، خاصةً ونحن لم نَعُد في عصر الفلتات الفردية، نحن في عصر المجتمعات الذكية، وكما بدأ العالم يَنقسِم إلى أغنياء وفقراء، فكذلك بدأ يَنقسِم إلى مُجتمعات أذكى ومُجتمعات أقل ذكاءً أو أغبى، والهوة بينها أيضًا تتَّسع، فالذكاء ثروة ذكاء، حتى القوة الفيصل فيها هو الذكاء، والجيش الأقوى اليوم هو الجيش الأذكى!

بل إنَّ التعليم ذاته لا يحلُّ المشكلة.

وجيش الفيتناميين كان مكونًا من فلاحين بعضُهم أُمِّي، ومع ذلك لأنه الأذكى فإن فرق الجيش الأمريكي الأكثر تعليمًا كانت تتساقَط في كمائنه كما يتساقَط الذباب.

ولكن الذكاء وحده ليس كل شيء؛ فبجانب الذكاء لا بد من أشياء أخرى، فلكي تلوي عنق التاريخ لا بد من عملٍ شاقٍّ.

والتصدِّي للعمل الشاق طموح إنساني مشروع.

ولكن الطموح في حاجة إلى قوة وقدرة ورصيد.

أنا لم أكن بالطبع في رحلتي إلى آسيا تلك، أنوي اكتشاف قارَّة، أو حتى اكتشاف طريقة مُختلِفة للحياة، كان كل طموحي أن أنجح في اكتشاف سر إنسان يَلوي عنق التاريخ ويقاوم. والأنظمة في آسيا تختلف من الشيوعية — وهي في قمَّتها في الصين مثلًا — إلى الرأسمالية المحضة في اليابان. ولكن مقاومة الإنسان لا ترتبط بالنظام الذي يحيا في ظلِّه؛ إذ إنه إذا أراد المقاومة يقاوم، سواء قاومَ النظام الذي يحيا في ظله ليعيش أو تضامن مع النظام ليُقاوم شرًّا خارجيًّا يهدِّد بقاءه. إن الأصل هو الإنسان، صحيح أن للنظام الأثر الأكبر في نتيجة مقاومته، ولكن ما فائدة النظام إذا قاوم النظام وحده بلا إنسان؟ نعم الأصل هو الإنسان.

وآسيا بلاد شاسعة وأهلها كثيرون، وليس كل شعب فيها يلوي عنق التاريخ ويُقاوم، ويعيش كل نظام فيها متحالفًا مع الإنسان في مقاومته، ولكن الشيء الذي لا يُمكن إنكاره أن المقاومة هناك مُعدية، وأنها تتكاثَر، وأنها خطيرة إلى درجة أننا سنَجد أمريكا بعد قليل إذا أرادت أن تستمر تعمل ضد الإنسان الآسيوي، فعليها أن تُجنِّد الشعب الأمريكي كله وتسخر إمكانياتها الصناعية كلها وتَرصُد كل مَخزونها من الرأسمال.

والإنسان لا يُولد يُقاوم؛ إنه يُولد كالصفحة البيضاء التي يتولى المجتمع ملئها بالمضمون. وحسب المجتمع يُصبح الإنسان، إذا وُلد في مجتمع يُقاوم نشأ مقاومًا، وإذا وُلد في مجتمع راضِخ نشأ كذلك، المجتمع القوي المُقاوم إذن هو ذلك الذي يَستطيع أن يصنع من أفراده مجتمعًا قويًّا مقاومًا، مثلما يَصنع المجتمع الذكي بأذكيائه.

وهذا هو سرُّ آسيا الأكبر! إنها قارة المُجتمعات، مجتمعات مُتباينة متأرجِحة بين القمة والسفح، ولكنها باستمرار مجتمعات. حتى التفرُّد والفردية ليست وليدة انفصال عن المجتمع بقدر ما هي وليدة استخدام واستعمال لهذا المُجتمع.

وإنسانها جادٌّ؛ لأنَّ مجتمعاتها جادة.

والهند خير مثال على هذا.

فالهند ليست دولة واحدة، إنها قارة بمُفردها. وليس هناك ما يُمكن أن يُسَمَّى بالمجتمع الهندي، فهو مُجتمَع مكوَّن من عديد من المُجتمعات، كل لغة تكون مجتمعًا، كل دين يكون آخر، كل طائفة، كل وحدة جغرافية، كل درجة من درجات الفقر أو الغِنى. إن الهند على عكسنا تمامًا هنا؛ فإذا كان مجتمعنا هو مجتمع التوحُّد والتوحيد، فمجتمع الهند هو مجتمع التعدُّد والاختلاف، وقد يظن البعض أن التعدُّد يؤدي إلى مجتمع ضعيف، وأن التوحيد يؤدِّي إلى مجتمع واحد قوي. ربما العكس هو الصحيح. إن التوحيد التام يؤدي إلى فقدان الخصائص المتفرِّدة، نفس الخصائص التي تؤدي بوجودها وتأكيدها إلى قوة المجتمع الأكبر، في حين أن إلغاءها في سبيل التوحيد يؤدي إلى طمس معالم التفرد والامتياز، وبالتالي إلى وحدة كوحدة المتشابهين كوحدة الأصفار.

ولهذا فالمجتمع الذكي لا بد أن يكون نابعًا من وحدات أصغر ومن مجتمعات صغيرة كثيرة ذكية، وكذلك المجتمع المقاوم هو أيضًا مكون من مجتمعات كثيرة صغيرة مُقاومة.

وإنما يَكمُن عيب أي مجتمع في هذه النقطة البسيطة المحدَّدة، تلك المجتمعات الصغيرة التي منها ينشأ الفرد الواحد ومنها أيضًا وبتلاحُمها ينشأ المجتمع الكبير.

وهنا في بلادنا تستطيع أن تضع يدك على الداء بسهولة. في قرانا نحن تكون المجتمعات الصغرى هذه وتَنشأ منها، وبها تُنشئ المجتمع الأكبر. كذلك كانت مدننا في العصور الوسطى مكوَّنة من أزقَّة وحوارٍ تُكوِّن حيًّا، والأحياء تُكوِّن مدينة، والمدن تُكوِّن دولة. في العصر الحديث وحين أحدثَت الهجرة الهائلة من القرية إلى المدينة، ومن الزراعة والتجارة إلى الصناعة، فقَدَ إنسانُنا القادم قدرته على تكوين المجتمعات الأصغر، امتلأت مدننا بآلاف العائلات أو حتى الأفراد الذين لا يَربطهم رابط ولا يُسألون أمام مجموعة ولا يُحسُّون بالانتماء. ومن السهل أن يبدأ الإنسان يَفقد كثيرًا من خصائصه الأصلية حين يَنفرِط عقدُه ويُصبِح وحدَه يُفكِّر، ووحده يستهدف، ووحده يَصنع لنفسه القيم التي تلائمه، إنَّ من يفقد الانتماء يفقد الأصالة، والفرد حين يفقد خصائص مجتمعه الأصغر يفقد تمامًا خصائص المجتمع الأكبر.

هكذا نشأ لدينا المجتمع العريض الفريد في نوعه، المُكوَّن من أفراد لا يجمعهم إلا العمل مرة، أو القهوة، أو أحيانًا السكن في مكان واحد، يُنجبون أبناءً يُنشئون أفرادًا هم الآخرون، والنتيجة أن الكتلة بدلًا من أن تكون بناءً قويًّا تتفتَّت وتتسطَّح، ويُصبح في مكان البناء سطح من الرمال الصغيرة المُتراكمة، بل حتى الأشكال الحديثة للمجتمع مثل النقابات والنوادي والجمعيات نشأت في ظل استعمار لوَّثها عن عمد، وأخمد فيها الروح،

وتحولت من مجتمعات جديدة مفروض أن تكون أداة الوجود والمقاومة، إلى أشكال من التجمع وظيفتها كبح جماح أفرادها واحتواؤهم وتقييد حركتهم وشلُّها ليس إلا.

نعم سرُّ آسيا الأكبر أنها لا تزال تحيا في عصر المجتمعات المحكمة الصغيرة القادِرة على التكافل والتعاون وإقامة مجتمع الدولة أو الشعب الأكبر.

الإنسان الآخر

بهذه الرحلة أكون قد غطَّيت — تقريبًا — سطح الكرة الأرضية، وتعرَّفت إلى معظم أوطانها وشعوبها، والحقيقة أني بدأتها مجرد رحلة أخرى من الرحلات. ولكني حين انتهيتُ منها أحسست أنها فريدة، بل رحت أؤنِّب نفسي أني أجلتها إلى هذا الوقت، بينما هناك بلاد كثيرة معظمها في أوروبا رأيتها أكثر مِن مرة، وضيَّعتُ فيها أكثر من وقت.

كنتُ أقول لنفسي وأنا في الطائرة: حسنٌ، ها أنا ذا في طريقي إلى الشرق، في عكس اتجاه الشمس، كلما مضَت بنا الطائرة أمعن اليوم في مضيِّه حتى حلَّ علينا الظلام وساعتي تُشير إلى الثانية بعد الظهر بتوقيت القاهرة. ظلام سبب مشكلة ليست هينة لراكب عربي صائم؛ فهو كان من طرابلس عقب حضور مؤتمر هناك، وفقط غيَّر الطائرة في مطار القاهرة. ولكن المشكلة أنه كان صائمًا — إذ كُنَّا يوم اثنين — فهل يفطر وقد غربت الشمس الآن، بينما الساعة تُشير إلى الثانية بتوقيت القاهرة، وربما الثانية عشرة أو الواحدة بتوقيت طرابلس؟ وبدَت لي المشكلة محيرة، فها هو المغرب أمامنا قد حلَّ والدنيا ظلام تام. أوَليس هذا ميعاد الإفطار؟ حلَّ لنا المشكلة قبطان الطائرة الذي كان واضحًا أنه متبحر في الدين؛ فقد أفتى بأن على الراكب أن يُفطر بتوقيت المدينة التي أمسك فيها عن الطعام والشراب؛ أي بتوقيت طرابلس. وقد بدت الفتوى أول الأمر غير معقولة، فقد كان على الرجل أن يفطر في تمام الحادية عشرة مساءً، ولكن كان واضحًا أيضًا أنها الفتوى الوحيدة التي لها منطق يَحتفظ للصائم بساعات محددة لا بدَّ أن يصومها؛ لأنه لو اتبع طريق الشمس لضلَّ؛ فالشمس كانت قد اغتالت من نهار طرابلس ست ساعات، وربما أكثر. أنا في طريقي إذن لآسيا، إلى البلاد التي تُشرق فيها الشمس قبل شروقها في القاهرة بربع يوم على الأقل. آسيا حيث الهند المُبهدلة ذات الخمسمائة مليون، والصين الخرافية ذات التسعمائة مليون، وباكستان واليابان ذات المائة، وتايلاند وإندونيسيا وسنغافورة

وكامبوديا ولاوس ذوات المائتَي مليون، ناهيك عن فيتنام وكوريا وماليزيا والفلبِّين ... في طريقي إلى بلادٍ يسكنها أكثر من نصف عدد سكان الكرة الأرضية، ومع هذا ما أقل ما نعرفه عنها؛ إننا لا نَعرف عنها إلا ما تنشره الصحُف من أخبار معاركها أو مجاعاتها أو كوارثها الطبيعية.

الهند ليست في نظرنا سوى غاندي ونهرو وأنديرا وبضعة أفلام هندية رأيناها.

اليابان ليست سوى ضحية أول قنبلتَين ذريتَين والراديوهات الترانزستور والبضائع التي تُغرق السوق، وبالنسبة لي — على الأقل — قصيدة حفظناها في الثانوية لشاعر النيل حافظ إبراهيم عن غادة يابانية «صفراء؛ ذات صفر تُنسي اليهود الذهب»، عشقها — في الصغر طبعًا — وصارت تُحدثه عن وطنها وضرورة خدمته.

ولكن الحقيقة أني — بيني وبين نفسي — كان لي هدف آخر. كان هدفي الأوَّل أن أَلتقي وجهًا لوجه بهذا الإنسان الآسيوي، الإنسان الذي صنَع المسير الطويل وثورة الصين العظيمة، الذي يَخوض بنجاح تجربة الاشتراكية الديمقراطية في الهند، الذي بعد قسوة الهزيمة في اليابان انتصر، وأصبحت به ثالث دولة في العالم بعد أمريكا وروسيا، والذي يتبدَّى لنا الآن — وعلى مسمع ومرأى من العالم أجمع — كفَّة هذا الكم من البطولة الذي يحتويه وهو يُناضل الاستعمار الأميركي في فيتنام.

لماذا هو هكذا هذا الإنسان؟

ما هي طبيعته؟

ما هو طبعه؟

مَن هي المرأة فيه وكيف؟

من أين جاءته هذه الطاقات الروحية الخارقة حتى ليُحوِّل الهزيمة إلى انتصار، وحتى ليرسي الرعب — مهما كان قليل العدد — في قلب دولة كبرى كأمريكا نفسها؟

ذلك كان هدفي الحقيقي، كنتُ متأكدًا أني حتمًا سأعثر على الجواب.

كنتُ متأكدًا أنها ليست فقط رحلة عبر المكان، ولكنها أوَّلًا رحلة لقلب إنسان، لروح إنسان، كنتُ متأكِّدًا أني سأُفاجأ وأُذهل، أني سأتعلَّم، أني سيَحدُث لي تحول رُوحي هائل، وأني حتمًا سأتغيَّر، وأيضًا — وهذا هو المُهم — كان الهدف من أجلنا نحن وما من مرة خرجتُ فيها إلا وكان الهدف نحن، وما من مرة سعيت فيها لرؤية شعب آخر إلا وكان الهدف شعبي، وبالذات الآن، وبالذات حين تصير حركتنا إلى مأزق.

والحق أن إنساننا في مأزق. التاريخ قادنا إلى مأزق. وأحيانًا تُغيم الدنيا ولا تتبدى بارقة أمل. أحيانًا يبدو كما لو كان حكم التاريخ لا يَقبل النقض، وكأنما حلَّت اللعنة.

أقول أحيانًا لأني أرى — ودائمًا أرى — وراء الحناجر الضاحكة في سخرية عصبية استعدادًا قاهرًا مهولًا ليومٍ نَضحك فيه بحق وعن حق، ليوم ننتصر، ليوم نستعيد فيه تمامًا الثقة بالنفس، والقدرة وفاعلية العمل، ليوم نعود نُلقِّن فيه العالم درسنا الأوَّل، أننا أصل الحضارة، أننا بعدُ لا زلنا الأرقى والأشجع والأكفأ. وفي مثل هذه المآزق التي يَضعنا فيها التاريخ يُستحسَن أن نَنفتح على العالم كي نطفو ونَنجو، ننفتح لكي نرى غيرنا ويرانا الغير، نَنفتح لكي نتعلَّم، وما أروع أن نتعلَّم من أرقى مثل.

وفي طوافي ببلاد الناس لم أجد خيرًا من الإنسان الآسيوي زميلًا في المآزق، نتطلَّع إليه ونقترب منه، ونتعلم.

أنا إذن في طريقي إلى الإنسان الآسيوي.

ورغم هذا لم أكن أتصور أنه إنسان يَختلف عَنَّا إلى هذه الدرجة، طبعًا توقَّعتُ أن يكون مختلفًا، ولكن لم أتوقع أن يصل الاختلاف إلى درجة أنه يكاد يكون نوعًا آخر من البشر، وهو ليس كاملًا أبدًا كما أردته، ولكن ليس فيه أيضًا ما توقَّعتُ من نقائص.

أين يكمن الاختلاف؟ وأيضًا أين يكمن التشابه؟ لا أعرف ولكن سأُحاول، دون ترتيب، أن أضع على الورق بعض انطباعاتي. إنَّ انطباعي السريع الأوَّل أن الإنسان في آسيا ليس غريبًا من الناحية الشكلية البحتة عَنَّا في العالم العربي. في الهند مثلًا وفي تايلاند وفي الفلبِّين وحتى في طوكيو كنتُ أرى دائمًا وجوهًا عربية، أو لا بدَّ في رأيي أن تكون عربية، أو، وهذا هو الأصح، نحن قطعًا — وبالذات وجهنا البحري — آسيويون مائة في المائة.

إنَّ المغول والتتر والآسيويين تركوا بصماتهم الشكلية في نَسلِنا هنا، حتى إني وأنا أسير في القاهرة الآن لا أستطيع أن أمنع نفسي من رؤية أشكال الناس، وبالذات البنات والسيدات لأردَّهن إلى أصلهن الحقيقي في القوقاز والتركمانستان والقازاكستان وكشمير والبنجاب وسيام وجزر اليابان.

لقد أدركتُ أن الملامح التي نُسمِّيها مصرية أو عربية ليست كذلك في الحقيقة، فحقيقة أمرها أنها آسيوية جاءت من الصين، وبالذات من أواسط آسيا.

ولكن العيون مختلفة، إنها ما أجملها من عيون! لقد حزَّ في نفسي أن بعض اليابانيات يَلجأن لجراح العيون لمد فتحتها لتُصبح كالعيون الغربية أو الأوروبية، في حين أن جزءًا

لا يتجزأ من جمال تلك العيون هو ذلك الحيز الجلدي الذي يفصلها عن الأنف، والذي تتميَّز به معظم العيون الآسيوية.

لها إذن — تلك القارة — طريقتها الخاصة في الجمال، ولها أيضًا قيمتها الخاصة. والتشابه الخارجي بين إنسان الشرق الأوسط وإنسان الشرق الحقيقي الأقصى قائم وموجود، ولكن ما أذهلني وحيرني أنني وجدت نفسي لأول مرة في عالم ثان غريب كأنه الوجه الآخر لكرتنا الأرضية.

لأول مرة أحسُّ أن عالَمنا هذا ليس واحدًا كما كنتُ أعتقد، ولكنه عالَمان؛ ذلك الذي بدأ بالحضارة المصرية القديمة التي انتقَلَت إلى اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم أوروبا من جديد، لتبدأ الحضارة الأوروبية التي انتقلَت إلى قارتَي أمريكا وانتشرَت في مناطق شاسعة من آسيا وأفريقيا.

عالَمنا هذا بأديانه التي بدأت بتوحيد أخناتون ثم الدين اليهودي والذي منه وُلدت المسيحية ثم الإسلام، بعلومه وفلسفته وطريقة نظره إلى الأشياء والوجود.

عالمنا هذا الذي قد تختلف درجة تحضُّر أجزائه، أو تتبادل شعوبه مشاعل التحضُّر والنور، ولكنه واحد يكاد يكون كاملًا متكاملًا، تاريخه واحد، وإنسانه واحد.

عالم نتصوَّر أنه كل العالم بينما الأمر ليس هكذا أبدًا، فهناك في شرق آسيا وجنوبها وقلبها عالم آخر تكاد لا تَربطه أي صلة بعالَمنا، عالم موازٍ نشأت الحضارة فيه بطريقة مختلفة، وتكوَّن تاريخه من أحداث مختلفة، وانبثَقَت فيه الديانات والعقائد بطريقة خاصة به وحده.

عالم ثانٍ إن يكن أقصر من عالَمنا عمرًا، إن يكن أقل اتساعًا وانتشارًا، إن يكن قد ظلَّ حبيس حدوده الجغرافية لم يُغدق بفتوحاته وغزواته وجه الأرض أو كان سيد الدنيا يومًا، إلا الإنسان الآسيوي المعاصر الذي جاء نتيجة ذلك العالم، هذا إنه لا يقلُّ عراقة عن عالَمنا إن لم يَزِد، بل إني لأجرؤ وأقول إن الإنسان، هذه الشعوب المكوَّنة منه، يُغدق وتُغدق من أوجُهٍ كثيرة إنساننا نحن وشعوبنا نحن، بل إني لأُصرِّح بما في نفسي وأقول: «نحن على شفا عصر ستكون فيه السيادة لهذا الإنسان، عصر تنقلب فيه الآية، ويُكتَب لعالم ظلَّ طويلًا حبيس البُعد والعزلة أن يتلقف هو مشعل الحضارة والتقدم، وأن يتحوَّل عالمنا نحن إلى عالم تابع، على الآخر يتتلمذ.»

نحن إذن على أبواب عصر آسيا، عصر الإنسان الذي سمَّيناه الأصفر، وعشنا لا تُثير فينا أحداث هائلة تقع فيه إلا أوهى الانفعالات والاهتمام، وكأن ما يحدثُ يحدث في كوكب آخر. بل إننا المُضطرُّون أن نفهم الفهم الصحيح، وندرك الإدراك الحق، أن مستقبل الإنسان، عالَمنا نفسه يتقرَّر هنا.

إنَّ مصير أمريكا هنا، الحضارة الأوروبية أيضًا مآلها حتمًا هنا، الرأسمالية نفسها، بل حتى الماركسية، وشكل ونتيجة ونهاية الصراع بينهما أمور أبدًا لن تتحدَّد إلا هنا، بل حتى قضية كقضية فلسطين ووجود كالوجود الإسرائيلي إذا كان اليوم أمره مرهون بإرادة أمريكا وما بينها وبين الاتحاد السوفياتي من صراع حوله، وإذا كان الشد والجذب بيننا وبين إسرائيل هنا، فإن الحل النهائي للقضية أيضًا هناك في آسيا، ليس مجرد حماس لمنطقة أنا حديث القدوم منها، ولا من قبيل التهويل ما أقول. لقد كانت نهاية الحضارة الأوروبية على يد آخر نظرية، آخر ثمرة فلسفية من ثمار تلك الحضارة «الماركسية»، بوجودها، بقيام أول ثورة شيوعية، بانقسام أوروبا إلى معسكرَين، إلى اشتراكية ورأسمالية تُعادي إحداهما الأخرى أبشع عداء، بانتهاء الجولة الأخيرة بالحرب العالمية الثانية انتهت المطاردة الأوروبية وتجمَّدت؛ إذ بدلًا من المضي قدمًا انقسمت إلى قسمَين همَّ كلٌّ منهما أن يجمد وضع الآخر وأن يَمنعه عن الحركة، والنتيجة الحتمية — والتوازن قائم — أن يتوقَّف الإنسان كعربتَين متساويتي القوة تُحاول كل منهما أن تزحزح الأولى، فلا يتحرك أي منهما خطوة.

اللامعجزة، فقط، هنا

وقفتُ أمام السَّير المُلتوي في اتجاهات مستقيمة بحيث يتضاعف طوله، سير «يجمع» أجزاء السيارة، لتبدأ به رفارف وجوانب وأبواب، وتنتهي به والسيارة كاملة، وقد رُكِّب فيها المحرك ومعدات النقل والسرعة والعجلات والفرامل والإطارات. سيارة كاملة في نهاية الأمر، في الجزء الأوَّل من التجميع يتمُّ لحام الأجزاء بواسطة ماكينات آلية، أو ما اصطلحوا على تسميتها بـ «الروبوت»، وهو في اللحام جهاز ضخم بارتفاع أربعة أمتار، يُشبه الفيل المدكوك في حركته، ويتحرك آليًّا بحيث تتوقَّف قمة اللحام المدببة أمام البقعة المراد لحامُها تمامًا أو بفارق لا يتجاوز الجزء من العشرة من المِّليمتر. ويتمُّ اللحام في ومضة، يدخل مشروع الهيكل، محمولًا على السير، وتنقضُّ عليه كل مرة أربعة «روبوتات» هائلة، تَلحم معًا، وبعد أقل من ثلاث انقضاضات كتلك، يُصبح الهيكل المعدني للسيارة كله كاملًا وملحومًا، بعد هذا، يقفز عامل ياباني في خفة الفهد الصغير إلى داخل الهيكل ومعه «التابلوه» وبواسطة آلة تثبيت يثبت التابلوه بأربعة مسامير، وفي الخطوة التالية تُقلَب العربة أوتوماتيكيًّا إلى جانبها، وتركب كل معداتها السفلية، ثم تَعتدِل، ويُركب المحرك، ثم يتم إيصال المحرك بالتابلوه وبعجلة القيادة ومنظم السرعة، وفي النهاية السيارة، وقد طُليَت أجزاؤها في خطوة سابقة، جاهزة للاستعمال. كنت أقف ومعي مجموعة قليلة من كِبار زوار اليابان في العنبر نتفرَّج، والعنبر واحد من ثلاثة عنابر كبرى للتجميع، والمصنع الذي نحن فيه واحد من خمسة مصانع تَملكُها شركة نيسان في اليابان، غير أربعة أخرى تملكها في بريطانيا وغيرها، فقد بدأ الخناق يَضيق على الشركات اليابانية فأخذت تُصدِّر مصانعها نفسها.

هذا المصنع الذي كُنَّا فيه يُنتج سيارة كل دقيقة طوال الأربع والعشرين ساعة، أي حوالي ألف وأربعمائة سيارة في اليوم الواحد في المصنع الواحد. راعني قلة عدد الأيدي

العاملة، كان في العنبر الكبير كله عدد لا يتجاوَز العمال العشرة، معظمهم كان يعمل في صيانة الكومبيوترات التي تُحرِّك «الإنسان الآلي»، ولاحظتُ أول علامة من علامات المزاج عند العامل الياباني؛ فقد كانوا يُسمُّون كل إنسان آلي باسم مطربة مشهورة أو مُمثِّلة مشهورة. بصراحة أول وآخر علامة مزاج رأيتها في أحد مصانع اليابان.

وقفت أتأمل …

يا ربي!

إن ما أراه أمامي ليس عملًا مستحيلًا أبدًا، لقد أُنشئ هذا المصنع بعد مصنع شركة النصر للسيارات بخمسة عشر عامًا على الأقل؛ إذ قد أُنشئ في عام ١٩٧٥، أي بالضبط منذ أكثر قليلًا من عشر سنوات، وها هو ذا ينتج ألفًا وخمسمائة سيارة يوميًّا، بينما مصنعنا أُقيم للتجميع فقط، وإلى الآن لستُ أدري بالضبط رقم إنتاجه، ولكني متأكِّد أنه أقل من مائة سيارة في اليوم. وليس الخطأ أبدًا هو خطأ فكرة إنشاء صناعة سيارات في مصر، ولا خطأ المهندس عزيز صدقي منشئ الصناعة، ولا المهندس عادل جزارين مهندس صناعة السيارات في مصر، فأكاد أقسم أن شخصيات مثل عزيز صادق وعادل جزارين قلَّ أن يوجد لها مثيل في اليابان. ولكني لا أعرف بالضبط كارثتنا الوطنية في إنشاء وإدارة المشاريع؛ فالمصنع الذي كنتُ فيه عدد عماله ثلاثة آلاف عامل، وكما قلت ينتجون حوالي ألف وخمسمائة سيارة يوميًّا، أي بمعدل أن كل عاملَين يُنتجان سيارة بأكملها في اليوم، وأعتقد أننا إذا اتبعنا هذه الطريقة في الحساب، ولستُ أدري الرقم بالضبط، ولكني قرأت مرة أن عدد عمال شركة النصر ثلاثين ألف عامل؛ أي أنهم بالمتوسِّط الياباني كان لا بد أن ينتجوا خمسة عشر ألف سيارة يوميًّا! وبعملية مقارنة بسيطة يتضح أن إنتاجية المصنع عندنا لا تكاد تُذكَر بجانب إنتاجية المصنع في اليابان، هذا عن الإنتاجية.

أمَّا المصنع نفسه فلم تكن فيه أي معجزة بالمرة، فهذا السير الآلي باستطاعتِنا أن نصنع مثله في مصر، وحتى الماكينات الآلية من السهل تمامًا عمل مثلها في مصر، ولا أزال أذكر ما ذكره لي ابني سامح عن كيف أنَّ طلبة كلية الهندسة قسم الكهرباء يقومون في مشاريعهم بعمل آلات تحكُّم إلكترونية مبرمجة بحيث تتحكَّم في هذا الإنسان الآلي الضخم. حديد وصاج، لدينا مصانع حديد وصلب وصاج من أجود الأنواع، «فورمات» يَضغط عليها الصاج ويتشكل، حتى في ورش الحرفيين الصغيرة توجد أمثال تلك «الفورمات».

ماديًّا كل شيء ممكن.

وإنسانيًّا يوجد لدينا مهندسون وعمال على أعلى درجة من الكفاءة والقدرة.

إذن ما هي المشكلة؟

المشكلة هي في أسلوب إقامة وإنشاء وإدارة أي مؤسسة صناعية أو غير صناعية في مصر.

إننا نفكر في إنشاء المصنع كما لو كُنَّا نفكر في إنشاء وزارة أو مؤسسة، وبالذات لا بد أن تكون خاضعة لنفس القوانين والمواصَفات التي توارثناها من حكومات العهد العثماني إلى الآن.

نفكِّر في السلَّم الوظيفي قبل أن نفكر في السلَّم الميكانيكي، نُفكِّر مَن سيُدير مَن قبل أن نفكر ماذا سيُديرون.

أكاد من فرط زهقي واحتراق أعصابي، من فرط ما رأيت من تقدم الدنيا كلها حولنا، رأسمالية وشيوعية، عالم أول وعالم رابع، أن أؤكِّد أننا بالذات في مصر مصابون بنوع من السرطان الخبيث المتضخِّم في إدارتنا لأمورنا.

إنَّ المرض في مصر لا وجود له البتَّة في الشعب.

ولا وجود له البتَّة في الفرد مصري.

ولكن وجوده الخبيث الدائم هو في الإدارة المصرية أو الطريقة للإدارة.

إنها ليست سيئة فقط ولكنها لا بد من إبادتها نهائيًّا قبل أن تَخنقنا وتَقتُلنا؛ فقد كبَّلت وجودنا، وقيدتنا، وعرقلتنا، وإذا كُنَّا سنلقى حتفنا يومًا، فإنها حتمًا ستكون السبب.

إدارة وإدارة وإدارة، ومديرون ومديرون، ومديرون عموم، ومديرو عموم، ومفتِّشون، ورؤساء ورؤساء ورؤساء، ورأس هائل الضخامة، كرأس ذلك الإنسان الآلي الذي أراه، ولكنه لا يتحرَّك، وغير قادر على الحركة مطلقًا، بل وهو رابض فوق ساقين كعودي الكبريت هما المواطنون والشعب عليهما أن يَحملانه من الآن وإلى الأبد كما في قصة العجوز الذي تحايل على الشاب أن يَحمله لينقله من مكان إلى مكان في الغابة، وما إن اعتلى كتفَيه حتى استمات عليهما لا يريد أن يهبط!

وثمَّة قصة عظيمة كتبها الدكتور حسين مؤنس اسمها إدارة عموم الزير، هي النموذج الحي للسرطان الإداري في مصر. أكاد من فرط ما رأيت من سهولة الإدارة وانضباطها ودقتها وموافقتها التامة لمُقتضى حال الإنتاج واحتياجاته أن أصرخ في ميدان التحرير، وبالذات حيث مجمع التحرير، الوكر السرطاني لمئات الإدارات البيروقراطية الكريهة، أقول: أيها الناس، لسنا في حاجة إلى ثورة اشتراكية أو ناصرية أو ساداتية أو

رأسمالية، ولسنا حتى في حاجة إلى ثورة إدارية، فيا أيتها الثورة الإدارية كم ارتُكبت باسمك أبشع الجرائم والخطايا في حق الإدارة والإنتاج.

دعونا تمامًا من كلمة ثورة.

فقد مصرنا كلمة الثورة أيضًا بحيث أصبحت تعني الفوضى الكاملة في القاموس المصري، في حين أن الثورة في مفهومها العلمي هي عمل علمي دقيق ومنظم غاية ما يكون التنظيم «لتغيير» واقع مريض إلى واقع صحيح. على هذا فهي تُشبه «الثورة» الدقيقة التي يقوم بها العلم أو الطب لعلاج مرض أو مريض.

أقول بملء الصوت: نحن في حاجة إلى إدارة جديدة لأمورنا في مصر. ولنترك الآن السياسة جانبًا، والصراع حول الأغلبية، والأقلية والتزوير والتشكيك وصحُف المعارضة وصحف الحكومة، فكَمُّ الصراع في مصر هائل، وهو للأسف حول قضايا بعيدة تمامًا عن آلام المواطنين الحكومية. تمامًا مثلما كم الميكروفونات والاصطدامات باسم الدين هائل، والدين منها براء. إنَّ الداخل لمصلحة حكومية لقضاء مصلحة، الداخل إلى مصنع أو شركة إنتاج، الداخل إلى وزارة، بالذات الداخل إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون، أو بالأصح، المُراقب للخارجين والداخلين إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون وغيره من المباني الحكومية لا بدَّ يُصاب بالهلع من كثرة الموظَّفين، وكثرة المتردِّدين، وقلة بل وندرة الإنتاج.

والمُواطن المصري محتاج إلى وزاراته ومصالحه وأجهزة حكومته في كل كبيرة وصغيرة من أمور حياته، حتى للحصول على شهادة حسن سير وسلوك، هو مُحتاج إلى شيخ مزعوم لحارة مزعومة وختم مزعوم للنسر العظيم يُتوِّج تلك الورقة ليكون مسموحًا للمُواطن بعد هذا أن يعرف بأنه حسن السير والسلوك!

فهل خُلقت الأجهزة الحكومية لتعذيبنا أم خُلقت لقضاء مصالحنا؟ الواضح للآن، ومنذ أن خُلقت، أنها أُقيمت لتعذيبنا على ذنب لا نَعرف كيف اقترفناه، وهي ماضية في تعذيبنا قبل الثورة وبعد الثورة، قبل الهزيمة وبعد الهزيمة، قبل نصر أكتوبر وبعد نصر أكتوبر، قبل كامب ديفيد وبعد كامب ديفيد وطابا، ولا يبدو أنها أبدًا ستكفُّ عن تعذيبنا!

وهي لا تُعذبنا فقط، ولكنها تقتل طاقتنا وقدراتنا، وتعرقلنا، وتجمدنا. ودعونا من اليابان؛ ففي زيارة لتايلاند، وهي دولة حين زرتُها في عام ١٩٧١ كانت أحوالها أفقر من مصر بكثير، حين زرتها هذه المرة وجدت فيها أجود أنواع المنسوجات القُطنية التي تُصدِّر منها بما قيمته ٥٠٠ مليون دولار إلى أسواق أوروبا وأمريكا. وتايلاند ليس فيها قطن

ولا تزرع القطن، وإنما تستورده من الصين وغيرها وتصنعه وتغزله وتنسجه وتُعيد تصديرَه.

ونحن دولة نزرع القطن، وتغزله وتنسجه.

أرقى أنواع القطن في العالم.

ولا زلنا نُصدِّره خامًا للأسف!

ولا نُصدِّر إلا ببضعة ملايين قليلة من الأنسجة غير المصنَّعة، وحُجاجنا الكرام يَشترون الجلاليب القُطنية من السعودية من صنع الصين، جلاليب مصنَّعة ومُفصلة حسب المزاج العربي تمامًا!

والعيب ليس فينا أبدًا.

العيب في الطريقة التي نُدير بها أمورنا.

في مصنع السيارات ذاك، لم أجد مشرف عمال ولا مفتش حركة ولا نائب مدير ولا كل تلك الأهرامات من الألقاب والوظائف، تكاد لا ترى للمَصنع إدارةً أو مُديرًا، إنما هو العامل، وإنتاجيته والمواد الخام لإنتاجه، والحد الأدنى من التنظيم الكفيل بتجميع إنتاج هذا إلى إنتاج ذاك، والحصول في النهاية على مُنتَج كامل، حتى السيارات الصغيرة التي تقوم بنقل الأجزاء من مكان إلى آخر، استُغنيَ فيها عن السائقين بواسطة شريط ممغنَط موضوع تحت بلاط الأرضية يقود السيارة إلى حيث يجب أن تكون!

وليس هذا هو الحال في ذلك المصنع وحده، ولا في اليابان وحدها، إنما هو الحال في كل مكان وُجدت به الصناعة أو التجارة أو الزراعة، ولا أَعتقِد أن المسألة في حاجة إلى إعجاز إداري أو ثورة إدارية أو خبراء أجانب، أو بيوت خبرة بيضانية أو غير بيضانية، لكي نُدرك مشاكلنا ونصمم الأجهزة البسيطة القادرة على حلها.

إننا فقط في حاجة إلى «رؤية» أخرى لواقعنا ولمسائلنا ولصناعتنا ولزراعتنا ولحياتنا، رؤية لم تتلوث داخل الهرم الوظيفي والبيروقراطي وتترهل وتتعفَّن، رُؤًى طازجة لا يحجب عنها الرؤية ضباب الأفكار الفقيرة والطموحات الصغيرة والقفز فوق الأكتاف.

رؤية أناس يفكرون في «حل» الأشياء وليس في إصدار القرارات.

رؤية تتعامل مع بشر وليس مع انطباق أو عدم انطباق اللوائح مع البشر.

فالمعجزة التي أراها في الدول المتقدِّمة أنه لا توجد فيها معجزات بالمرَّة.

كل ما في الأمر أن عدم المعجزة وانعدامها وحتمية أن لا توجد أبدًا وأن تُستأصل لو وجدت، هو وفقط الموجود عندنا.

ملعبة التليفزيون

أعجبتني الحكاية التي قصَّها علينا الأديب عبد الله الطوخي وهو يروي لنا كيف كان جالسًا مع عائلته في منزله، ثم فجأة سمع ضجةً شديدةً وصراخًا وعويلًا في الشقة المجاورة، فأسرع ودق على باب جاره لتفتح له ابنته الباب ويجد الرجل صاحب الشقة، وهو ضخم الجثة فارع الطول ينهال بقطعة حديد على جهاز التليفزيون في بيته يُحطمه ويُفتته قطعًا قطعًا أمام زوجته وأبنائه وبناته دون مراعاة لاستعطافاتهم ورجواتهم وهم يقولون: والنبي يا بابا … بلاش تكسره بلاش. فيرد عليهم بصوت عال كالرعد قائلًا: أنا مش بابا، هذا هو بابا (قاصدًا جهاز التليفزيون). منهالًا عليه بشدة أكثر تحطيمًا وتكسيرًا، حتى فتته تمامًا.

أعجبتني القصة، لا لأنَّ إنسانًا في نفسه الشجاعة على أن يَنهال على جهاز تليفزيون مصري أو عربي تحطيمًا وتكسيرًا رغم فداحة ثمنه، ولا لأن غيرة ما قد شبَّت بين أب حقيقي تزوَّج وخلَّف وأنجب أولادًا وبنات، لا ليَعيشوا في الثبات والنبات ويَستمتع بهم وبصُحبتهم، وإنما ليتسلَّمهم أبٌ آخر خلقته التكنولوجيا ليتولى قيادتهم وتربيتهم ويمتصَّ كل أوقاتهم التي كان مفروضًا أن يقضوها مع آبائهم وأمهاتهم.

أعجبتني أن يَقضوها مع آبائهم وأمهاتهم.

أعجبتني القصة لسبب قد لا يخطر على البال؛ لأنها في حقيقة أمرها قصة مواجهة صريحة وواضحة وعنيفة بين العصر الذي نحيا فيه والعصر الذي تربى عليه آباء هذه الأيام وأمهات هذا العصر.

منذ فجر البشرية كان الأب هو أول مدرسة يدخلها طفله ليتعلَّم منه القيم والسلوك والأخلاق، وربما الحرفة والثقافة والمعرفة والإدراك.

وكان لكل قبيلة من القبائل تُراثها الشفوي المرئي الذي تحكيه الجدة لأبنائها وأحفادها، ليحكوه بدورهم لأولادهم وأحفادهم.

ثم بظهور المسرح ثم الكتاب ثم الجريدة، بدأت آباء أخرى تُشارك الأب الحقيقي في صياغة شخصية وسلوك ومدارك ابنه، وحين جاءت السينما بعد هذا عمقت تلك المشاركة إلى حد كبير، ولكنها كانت مشاركة أقرب إلى التعليم التخيُّلي، منها إلى الأب أو المدرس أو المربي الحقيقي، ولهذا سمَّيناها نحن العرب «الخيَّالة». أمَّا الكارثة الكبرى الحقيقية، أمَّا الانقلاب العظيم الداهم، فقد جاء مع عصر التليفزيون؛ ذلك أنه لم يأتِ ليكون بعيدًا عن متناول الأسرة أو محيطها، وإنما جاء ليحتلَّ صميم المركز في قلب الأسرة، وهو مركز ثابت غير متحرِّك، وغير صامت، مركز دائم التحدُّث والجذب، دائم الوجود، عميق التأثير إلى أبعد حد، حتى إنَّ أطفالنا أصبحوا يحفظون كلمات الإعلانات وأغانيها أكثر بكثير مما يَحفظون آيات من القرآن الكريم، أو ملخص قصة من قصص الأطفال المُتداولة.

جاء ساحقًا ماحقًا فاصلًا تمامًا بين عصرَين، عصر ما قبل التليفزيون وعصر ما بعد التليفزيون، عصر أطفال ما قبل التليفزيون وعصر الجيل الذي رباه التليفزيون.

وجاء دكتاتوريًّا طاغيًا أيضًا، انكمش بجواره الأب الحقيقي في ركن لا يَملك حتى أن يتكلَّم أو يقاطع ما يدور فيه، فما أسرع ما ترتفع ألسنة أطفاله وأزواجه طالبةً منه أن يسكت لأن التليفزيون يتكلَّم، أو حتى يقطع عليهم ما يُتابعونه ولو بخبر خطير يهمُّ الأسرة جميعًا وقد يغير مصير العائلة كلها.

جاء ليكون المتحدث الأوَّل والكل له مُصغون، والنموذج الأوَّل للتصرف وللكلام وللفعل والكل له مقلِّدون، وحتى النموذج الأوَّل للتسريحات والتجمُّلات، وطريقة النطق، والكل لا يفعلون سوى تقليده.

وتليفزيون مَن، ذلك الذي جاء؟

ليس تليفزيونًا عربيًّا، لا صناعةً ولا اسمًا، ولا حتى محتوًى؛ إذ جاء أحدث ما تفتق عنه العقل الغربي من علم الإلكترونيات و«الترانزورسيات» «علم تحويل الصوت والصورة إلى كهرباء وبالعكس». وجاء مُزوَّدًا بمساعد لا يقلُّ عنه خطورةً وبأسًا، هو «الفيديو كاسيت»، يجمع كل ما افتقدته العائلة من إرسال «التليفزيون العادي»، ويُضيف إليه أفلامًا وقصصًا وألعابًا وكل ما قد يخطر ولا يخطر على البال.

وهنا وجدنا أنفسنا نحن آباء هذا العصر وأمهاته نواجه عملاقًا ولا جن ألف ليلة بكل ما لديه من شبيك لبيك أنا بين إيديك والعالم كله بين يديك، والحب بكلِّه وكافة أشكاله رهن إشارتك، والتقاليع تقاليعه لا ينتهي أبدًا لها حال.

مفاجأة كبرى، لم يكن يتوقعها العالم الأوَّل نفسه، فما بالك ونحن حين جاء كُنَّا لا نزال نحيا ربما في العالم الرابع أو الخامس.

وأنا أذكر أول مرة رأيت فيها التليفزيون وجهًا لوجه وكان في معرض في القاهرة في عام ٥٨، ولا زلت أذكر تلك الدهشة المروِّعة التي أصابتني، حين رأيت صورتي (وقد كانت هناك كاميرا تليفزيونية مسلَّطة على المشاهدين لجهاز الاستقبال)، رأيت صورتي بالأبيض والأسود مُرتسمة على تلك الشاشة الصغيرة الساحرة. يومها أخذت الأمر أخذ مثقَّف مُتحضِّر، وقلت إنَّ التقدم البشري ليس له أبدًا من حدود، وإني إنما أُشاهد معجزة كبرى لهذا التقدم، أي أنني روَّجت للتقدم التكنولوجي الإلكتروني الذي أنتج هذا الجهاز.

وفي ذلك الوقت لم أنكر أبدًا نعيمًا فيما يُمكن أن يحتويه هذا الجهاز بعد هذا وينقله من مواد.

وما هي إلا بضعة شهور حتى أصبح هناك إرسال تليفزيوني، لا في مصر فقط ولكن في معظم البلاد العربية، وحتى تدفَّق على المُشاهد العربي طوفان من إنتاج أوروبي أو إنتاج عربي يُحاول أن يُقلِّد ويَمشي على خُطى الإنتاج الأوروبي، بطريقة لا بدَّ للإنسان معها بطول المشاهدة ومداومتها نظرًا لروعتها وخبرتها، أن يَحدث له غسيل مخ إجباري بحيث تُمحى من عقله مفهومات كثيرة ورثها أو تعلَّمها، وتحلُّ أشياء جديدة تَحمل المكوِّنات النفسية والاجتماعية والسياسية لمجتمعات مختلفة عن مجتمعنا تمام الاختلاف.

حتى كاد الأمر في النهاية ينتهي إلى أن ينمحي تمامًا من ذاكرتنا كل ما توارثناه من مفهومات وتعاليم وأحاديث أمهات وجدات، ونصائح آباء وكبار، ونولي وجوهنا وعقولنا مفتوحة على مصراعيها لتَلتهم بلهفة ذلك الطوفان القادم.

وفجأة أيضًا، ودون أن ندري، بدأنا نلمح على أبنائنا وبناتنا الأكثر استعدادًا للتقبُّل، والأقل استيعابًا للتراث، تصرُّفات لا تبدو غريبة كثيرًا عن التصرُّفات التي نراها معروضة في تليفزيوناتنا، ولكنها تبدو غريبة، تمامًا إذا ما قُورنت بما درجنا عليه نحن من أخلاق وقيم وتصرُّفات.

وكان مفروضًا حينذاك أن تنشأ معركة بيننا — نحن الآباء — وبين ذلك الوافد المُكتسِح، وأعتقد أن معارك فردية وعائلية كثيرة قد نشبت متفرِّقة هنا وهناك، ولكنها كانت دائمًا معارك خاسرة، كُنَّا نحن الذين نَخسرها؛ ذلك أن التليفزيون كان قد ربح المعركة تمامًا، وأخذ أولادنا وأجيالنا الجديدة إلى صفِّه وأصبحنا نحن مجرد قِلة «متخلفة» عن الركب، «متحجرة» أمام التحضر والتأمرك والتأورب، تعيش في عصر غير العصر، وتُحاول جر أجيال جرارة بأكملها إلى هذا العصر الغابر.

وكان لا بدَّ بالطبع أن يبلغ اليأس ببعض الآباء، مثل أخينا الذي انهال على الجهاز بيده دكًّا أن يُحاول حل المشكلة بتحطيم الآلة، وهو ليس فقط أيأس وأغبى أنواع الحلول، ولكنه يدل تمامًا على أن هذا النوع من الآباء قد تخلَّف عن العصر فعلًا وواجب عليه أن يُحطم السيارة هي الأخرى والطائرة، وأن يعود القهقرى يركب الناقة وينتقل بالحمار.

فما هو الحل يا ترى إذا لم يكن تحطيم كل تلك الأجهزة المتقدِّمة من تليفزيون وسيارة وكمبيوتر وفيديو ... إلخ.

الحل بسيط للغاية يا سادتنا الآباء والمربين والحريصين على التراث والتقاليد.

فالتليفزيون في ذاته كجهاز قمة من قمم الهندسة البشرية، وآلة إعجاز تكنولوجي ولا عيب فيه بالمرة.

المشكلة هي فقط «محتوى» هذا الجهاز وما يبثه.

وبلادنا العربية قد اشترت من أوروبا واليابان وأمريكا ملايين من أجهزة التليفزيون والفيديو، ولكن كان عليها أن تُرسل بعثات «بشرية» لدراسة المواد التي يُمكن لهذا الجهاز أن يبثها، وأثر هذه المواد على عقول كل الأجيال، من الأطفال إلى الشيوخ، وأثره بالذات على مجتمعات لم تمرَّ حتى بفترة الراديو أو المسرح أو السينما، وإنما فجأة من حديث الجدات وحواديتهم انتقلت إلى عصر البث التليفزيوني وحلقات دالاس ومونت كارلو شو.

كان علينا أن ننتقي ونُحضر «كادرًا» من فتيان موهوبين، يَدرسون ما فعله صُنَّاع البرامج المُمتازة في التليفزيونات الأخرى، وبالذات التليفزيون البريطاني والتليفزيونات الأوروبية، ثم يتعلَّمون كيف يقدمون المقابل العربي الصالح والشاحذ والمنبِّه للعقل العربي، بكافة مكوِّناته وأجياله، و«يَكتبون» النصوص، لا أقول ذات القيم الأخلاقية الرفيعة كما يقول عُتاة المُتفيهقِين، ولكن تلك التي تَستلهم قيمنا وتراثنا وحاضرنا وتَصنع منها «فنًّا» تليفزيونيًّا حين نشاهده يدفعنا إلى كل ما هو أرفع وأمتع وأنفع.

إني في كل مرة أذهب إلى بريطانيا، ودائمًا أُوَقت ميعاد وصولي يوم السبت لأستريح في عطلة الأسبوع، ثم أبدأ في قضاء مصالحي يوم الاثنين بداية الأسبوع. كنتُ ما أكاد أجلس في حجرتي في الفندق وأفتح الجهاز حتى أكاد أتسمَّر بجانبه، لا أريد أن أتحرك، ذلك في كل برنامج «أتعلم منه» شيئًا ممتعًا جديدًا، و«أعرف» منه بتسلية عُظمى، ما لم أكن أبدًا أعرفه، و«أرى» أشياء كنت أسمع عنها وطالَما حلمتُ برؤيتها رأي العين، حتى إنني كنت لا أغلق التليفزيون حين يتحول الإرسال إلى ما يُسمونه جامعة الهواء،

حيث تُدرَّس مواد الرياضة البحتة والطبيعة والكيمياء والذرة والفلك، بكل ما تحمل من صعوبة وتعقيدات بطريقة تليفزيونية مرسومة، ومُسهَّلة بحيث يمكن لأي كائن — فما بالك بمن لديه الحد الأدنى من المعرفة — أن يُتابِعها ويستوعبها ويستمتع بما أُضيف إليه من معارف مُمتعة لا تُحقِّقها له أي «ديناستي» أو «دالاس» أو رجل أو امرأة «لستة بليون دولار» أقسم أني رغم شغفي الشديد بالخروج كنت لا أغادر الغرفة خلال كل عطلة نهاية الأسبوع لأني لم أكن بصراحة أستطيع قطع مُتعة المشاهَدة الممتعة المفيدة.

نحن إذن قد استوردنا آلات وبرامج مصكوكة، ولم نَفعل الشيء الذي يجب أن نكون قد قمنا بفعله قبل استيراد تلك المُعدَّات والأدوات والبرامج، ألا وهو أن نَكتشف مادتنا التليفزيونية نحن، نفننها، ونُقدمها ونُطوِّرها، ونتعلم كيف نُفنِّنها أكثر ونطورها أكثر وأكثر.

وأحسب أننا قد «استوينا» من برامجنا المستوردة، وآن الأوان لننتج نحن برامجنا، وهي ليست برامج استعراضية، أو ترفيهية أو مكلِّفة، إنها أبسط من هذا بكثير، إنها برامج حية وبسيطة ويشترك فيها المواطنون جميعًا يُناقِشون مشاكلهم «تقريبًا ربع برامج التليفزيون البريطاني مخصَّصة لمشاكل المدارس والتلامذة وأولياء الأمور والمدرِّسين، وأوجُه التقصير من كل حي أو بلد على حِدَة، بل أحيانًا من كل مدرسة.» مناقشة أي قضية عامة يَختلف أو يتَّفق فيها المجتمع مع وجهة النظر الرسمية أو غير الرسمية. باختصار حوَّلوا التليفزيون هناك إلى مجلس شعبي ولمصلحة الشعب، ومهرجان شعبي، وأداة شعبية لمناقشة الشعب بأفراد من الشعب ولمصلحة الشعب، وبهذا وصلوا إلى ما يُمكن تسميته بكل أمانة إلى الديمقراطية البرلمانية بجوارها وكأنها مجالس سفسطائية؛ فالقوة الحقيقية والقرارات الحقيقية وحتى الانتخابات الحقيقية وحلول المشاكل الحقيقية تأتي من التليفزيون ومن الشعب الذي أحال التليفزيون من لعبة إلى جهازٍ جادٍّ يجمعه في بوتقة واحدة، ويضع السائل والمسئول والحاكم والمحكوم في حيِّز واحد وأمام أعين جمهورٍ واعٍ فاحص «علَّمه التليفزيون كيف يعي وكيف يفرق بين الزيف والحقيقة.» ومباشرة ومِن التو واللحظة يحكم ويكون حكمه في معظم الأحوال عادلًا وصادقًا ونابعًا من قلب الحقيقة والشعب.

فمتى نُحيل نحن العرب تلك الألعاب التليفزيونية إلى وسائل حضارية جادة تسوس حياتنا وتُقوِّمها وتدفعها إلى الأرفع والأحسن، أم سنظل كالأطفال في أوروبا، نستعمل

التليفزيون والفيديو وسائل ألعاب وتضييع وقت ومراهَقات فكرية وعاطفية وجسدية وحلقات درامية ما أنزل الله بها من سلطان، بل الحقيقة أنه أنزل بها كثيرًا من اللعنات التي للأسف تُصيب أبناءنا البُرآء وقلوبهم الخضراء الغضة وعقولهم التي ستَنتهي في الغالب إلى أن تصبح لا شرقية ولا غربية ولا أي شيئية.

وحتى لا تكون النهاية أن يقوم كل ربِّ أسرة بأن يَنهال تحطيمًا على جهاز عظيم نحيا في عصره هو جهاز التليفزيون.

فمتى يحدث هذا؟

بالله عليكم وأرجوكم متى؟

الحائر بين الكونين

حين زار الكاتب المسرحي العالمي دورينمات القاهرة، وكنتُ البادئ في دعوته، وجدت أن من الواجب — أقل الواجب — أن نُقيم له مأدبة غداء فاخرة في الأهرام. وجاءت جلستي بين أستاذنا الكبير توفيق الحكيم وبينه، ولقد دار بيننا حوار طوال الغداء لستُ أدري كيف دار؛ فدورينمات ألماني بالكاد يعرف الإنجليزية وإن كان يتكلَّم الفرنسية، وتوفيق الحكيم طليق في فرنسيته وأنا لغتي المفضلة الإنجليزية، ولكنني أفهم الفرنسية، ولا أعرف سوى ثلاث أو أربع كلمات بالألمانية. المهم أن الحديث بيننا، رغم تعدُّد اللغات، وتكسيرها ودشدشتها، لم ينقطع.

وأذكر أن توفيق الحكيم سأل دورينمات عن قراءاته وعن أحب الكُتَّاب إليه. ودُهشت جِدًّا من إجابة دورينمات؛ فقد قال له إنه لا يقرأ في الأدب كثيرًا، وقراءاته المفضلة هي دائمًا في العلم أو في الفلسفة.

دُهشت وفرحت؛ فقد كنت أظن أني الوحيد الشاذ في هذا المقام، فأنا لا تَستهويني أبدًا قراءة الروايات أو القصص أو بحوث النقد، وإنما يَستهويني إلى حد الولَهِ قراءة العلوم، وبالذات الاكتشافات الحديثة جِدًّا في العلوم مثل أحدث نظريات تركيب المادة، والتصوُّرات الجديدة لشكل الكون، وعلى وجه العموم كل ما يتصل بالطبيعة النووية أو هندسة الوراثة.

أمَّا في غير هذا فالتاريخ هو الموضوع المفضل لقراءاتي. وكم أتحسر لأني لا أجد الوقت الكافي لقراءة تاريخ كل شعب وكل شيء على سطح الأرض لأصلَ إلى جذور الحاضر وكيف كان الماضي وكيف ظلَّ يتحوَّر إلى أن أصبح الحاضر، ماذا يُمكن أن يُفصِح عن امتداداته في المستقبل.

ولهذا، حين ذهبتُ لزيارة دورينمات في غرفته بالفندق، وكانت زوجته المخرجة الألمانية المستبدة قد ذهبَت مع المرشد السياحي إلى خان الخليلي، وبقيَ معنا المترجم، في الحال انخرطت معه في جدل حول الطبيعة النووية وتركيب الذرة، وبالتالي تركيب الكون.

وأسعدني أن أجد أن الأسئلة التي حيَّرتني في تركيب الذرة، قد حيرت أيضًا دورينمات، ولكن حائل اللغة أقام بين تواصلنا سدًّا. وهكذا لم أستطع أن أسرد عليه كل تأملاتي في تلك المسألة الغريبة، مسألة المادة والكون والذرة وبالتالي المركبات والجماد والإنسان.

وكنت قد قرأت تقريبًا، ليس بشكل علمي رياضي بحت؛ إذ الطبيعة النووية تستحيل في النهاية إلى معادلات رياضية؛ إذ هكذا حطم أينشتين الذرة، بمجرد معادلات رياضية وليس بطرق معملية. إنما بشكل شبه يقيني. ولكنه في نفس الوقت مثير للخيال بدرجة لا يتصوَّرها العقل.

فالنظرية الذرية ليست حديثة، إنما هي قديمة جِدًّا تَرجع إلى عهد اليونان، حين افترض «دالتون» أن المادة مكوَّنة من جسيمات دقيقة جِدًّا سماها ذرات.

وظلَّت هذه النظرية سائدة طوال العصور الوسيطة وحتى بدايات عصر النهضة، إلى العصر الحديث؛ حيث أدلى «ماكس فرش» بدَلوِه وابتكر نظرية الكم، ثم صاحبه وتلاه العلامة الدانماركي نيل بوهر، ويُعتبَر هذان العالِمان المسئولان الأساسيان عن التصور الحديث لتركيب الذرة أو بالأصح المادة.

ذلك التصوُّر الذي يرى الذرة باعتبارها نواة ثقيلة في الوسط تُكوِّن غالبية الكتلة الذرية، وحولها تدور الإلكترونات التي تقريبًا لا وزن لها، وهو باختصار تصور يقترب تقريبًا من تصوُّرنا للكون أو المجموعة الشمسية، حيث توجد الشمس في وسط المجموعة وكأنها النواة وحولها تدور الأرض والمريخ والمشتري … إلخ. وكأنها عدو الإلكترونات الدائرة في فلك النواة.

ظهر هذا التصور قبل نظرية الكم، وجاءت مدام كوري لتكتشف أن في داخل الذرة ثلاثة أنواع من الجسيمات (غير النواة والإلكترونات)، وهي جسيمات ألفا وبيتا وجاما (أي ألف وباء وجيم)، وأن أشعة إكس ليست سوى نوعٍ من هذه الجسيمات لدَيه القدرة على اختراق الأشياء الصلبة مثل جسم الإنسان، ولكن ليس لديه القدرة على اختراق العظام مثلًا أو الرصاص.

وبظهور نظرية الكم وتطور الميكروسكوبات الإلكترونية، والطرق التكنولوجية المتطورة لفحص ما بداخل الذرة، وجد أن النواة ليست نواةً صماء كما كان يتصوَّر، ولكنها مجموعة كبيرة جِدًّا من الجسيمات المتلاصقة التي كُشف عن بعضها ولم يُكشف

عن بعضها الآخر، وفي آخر صيحات الاكتشافات أيضًا وُجد أن الإلكترون نفسه ليس له وجود مادي، وإنما هو شيء يُشبه موجة البحر مصنوع من نفس المادة التي يتكون منه الفراغ داخل الذرة.

ولا تتوقَّف الاكتشافات، ولن تتوقَّف.

وليس هذا على أية حال موضوعنا.

فالموضوع الذي حيرني ولا يزال يحيرني هو هذا: إن أصغر ذرات المادة هي ذرة غاز الأيدروجين، وهي مكوَّنة من نواة واحدة يدور حولها إلكترون واحد.

وليست كل الذرات الأخرى سوى تجمع لنواتَين من الأيدروجين مع نظائر من الإلكترونات الأيدروجينية.

بمعنى أخطر أن كل المواد التي في الكون إذا حلَّلناها إلى عواملها الأولية نجد أنها مكونة من لبنة واحدة أو عدة لبنات هي ذرات الأيدروجين أو مضاعفات لها. تلك المضاعفات التي على أساسها وضع ماندليف جدول الأوزان الذرية للعناصر. فإذا كان الوزن الذرِّي للأيدروجين ١ فالزئبق مائة والأكسجين اثنين، وهكذا.

والبلوتونيوم الذي تُصنع منه القنبلة الذرية اختاروه لأنَّه من أثقل الأوزان الذرية؛ أي إن نواته مكتظَّة إلى آخرها، ومن السهل حينئذٍ ضربها بوابل من الإلكترونات يُصيبها ويُفتِّتها ويُحدث تفجُّرَها الذري.

أعود فأقول: إذا كان كلُّ ما في الكون مصنوع من مادة كونية واحدة أصلها واحد، وتَختلف عن بعضها البعض في عدد ذرات الأيدروجين الداخلة في تكوينها، أي إن الاختلاف كمِّيٌّ محْض، فلماذا تختلف أشكال الأشياء، وأنواعها؟ لماذا هذا التجمُّع الذري يُحدث حديدًا أصمَّ وتجمُّعًا ذريًّا آخر يُحدِث خلية الإنسان العصبية التي «تُفكِّر» و«تريد» و«تعي» ما دام التركيب الداخلي للذرات واحد، فلماذا تختلف أنواع الأشياء والأجناس وأشكالها؟

أيكون هذا الاختلاف راجعًا إلى أن لكل شيء تركيب داخلي داخل ذري، وتركيب خارجي راجع إلى الشكل الخارجي الذي تتَّخذه تلك الذرات إذا تجمَّعت؟

أم أن هناك اختلافات داخل تركيب كل ذرة بحيث إنها تُنتج بجمعها شكلًا للوجود مختلفًا.

وكيف، وعلى أيِّ أساس تتجمَّع تلك الذرات وتتلاصَق لتضع الأشكال والأنواع المختلفة، فالوضع مذهل حقًّا، لكأنَّ الكون فعلًا مكوَّن من مليارات المليارات من قوالب

الطوب الدقيقة التي لا شكل خارجيَّ لها، ولكنها حين تتجاذب (على أي أساس؟ لا أحد يعرف) وحين تتجمَّع يتكون لها «شكل» خارجي نُسميه جزيء البروتين أو خلية الخشب أو قطعة النحاس.

ولماذا لم تَمضِ تلك التجاذبات والتراكيب والأشكال إلى ما لا نهاية، لماذا توقَّفَت عند تكوين التسعين عنصرًا أو أكثر، وهي العناصر التي تتكون منها مادة الكون ابتداءً من النيازك إلى جسم الإنسان وعقله وكروموزومات وراثته؟

إنها ليست أسئلة، ولكنها ألمٌ مُمضٌّ يُصيبني كلما فكرت فيها ولم أجد لها حلًّا، لا في الكتب، ولا في التأمل، ولا في لحظات التصوف والتبتُّل، قوالب طوب متشابهة يصنع منها كل ما يحفل به الكون من أشياء وحياة وظواهر، كيف؟

ولهذا أقول لنفسي دائمًا حين يُعييني الجواب: إننا لا نزال إلى الآن، حتى برغم كل تلك الاكتشافات والاختراعات، لا نزال «نستعمل» المادة في أبسط أشكالها، ونحن لا نَعرف سرَّها، بل إن بيننا وبين سرِّها مسافة بعيدة جِدًّا، تكاد تُقاس بملايين السنين الضوئية وبالغرور الإنساني.

إننا نتصور أننا قد وصلنا إلى عصرٍ كدنا نعرف فيه أسرار كل شيء، ولكن المُضحك أن القليل الذي وصلنا إليه لم يعرفنا إلا أننا لا نزال نجهل الكثير والكثير والكثير.

نحن لا نزال على شاطئ محيط المعرفة، نبلل سيقاننا في ماء الشاطئ ونظنُّ أننا أصبحنا في قلب المحيط العميق.

أيتها الذرات، ماذا فيك من سحر، ماذا فيك من مجهول؟ أيها الكون كيف أنت، ولماذا أنت، وكيف حدث؟

أيها الإنسان، أنت الوحيد الجاهل بالكونَين الأعظم والأصغر؛ لأنك الوحيد الواقف بينهما، الحائر بينهما، ولكنك أيضًا الوحيد في الكون الذي يدركهما معًا، يُدرك أن هناك كونًا أكبر منه بكثير وكونًا أصغر منه بكثير، وأنه سيظل دائمًا وأبدًا الحائر بين الكونين.

أعصاب النبات

إلى عهد قريب جِدًّا كانت معلوماتنا عن النبات تندرج تحت اسم «علم النبات» أو الـ BOTANY وكانت تقتصر على دراسة أنواعه وأشكاله الظاهرية، وتشريحه الداخلي، ودراسة خلاياه وما فيها من كروموسومات الوراثة والتلقيح ... إلخ إلخ، بمعنى أننا كنا ندرسه كما لو كان كائنًا حيًّا، هذا صحيح، ولكنه يقع في مرتبة أدنى من الحيوان، وأرفع من الجماد، كما لو كان موضعه في قاع الحياة.

ولكن في السنوات الأخيرة جِدًّا بدأت تطرأ على فهم البشرية للنبات معلومات هامة وجديدة تمامًا؛ فقد اتضح مثلًا أن النبات يحسُّ تمامًا مثل يحسُّ الإنسان والحيوان، وأنه يستجيب للمؤثِّرات الخارجية، حتى للموسيقى يستجيب، ومعنى هذا أن داخل النبات جهاز عصبي وإحساسي لم يكن الدارسون الأوائل والمشرِّحون للنَّبات قد اكتشفوه، بل هم — بعد — لم يَكتَشِفُوه إلى الآن.

والحقيقة أني أدين ببداية اهتمامي بالنبات إلى زوجتي كهاويةِ نبات من الدرجة الأولى، وإلى الصديق راجي عنايت الذي قام بترجمة عدة كتب هامة جِدًّا عن النبات أنصح القُرَّاء بالبحث عنها وقراءتها، فسوف يُذهَلون من كمِّ المعلومات الجديدة التي توفَّرت لدى الباحثين عن المملكة النباتية. أدين لزوجتي لأنها بدأت تربي في شقتنا نباتات، كانت ترعاها بعناية شديدة، وتسقيها بنفسها، وتمسح أوراقها وتقتطع المصفرَّ منها والذي مات، ولاحظت أنا أن تلك النباتات — ومعظمها نباتات ظل — تزدهر بهذه الرعاية وتَكثُر أوراقها ويزدد اخضرارها.

وحدث مرة أن سافرنا سفرة طويلة استغرقت شهرًا، وكان همُّ زوجتي الشاغل هو من سيرعى هذه النباتات. واتَّفقْنا مع قريبة لنا أن ترعاها وتسقيَها كل ثلاثة أيام مرة كما تعوَّدت زوجتي أن تفعل.

وكانت المفاجأة الكبرى أننا حين عُدنا وجدنا معظم النباتات إما ماتت أو هي في طريقها إلى الموت والجفاف، وكادت زوجتي تبكي لما حدث، وسألنا القريبة فقالت إنها كانت دائمًا مواظبة على الحضور والعناية بالشجيرات بالضبط كما أفهمتها زوجتي.

وحينئذٍ أدركنا أن سبب ذبول النبات ومواته يَرجع إلى أنه تعوَّد على أن ترعاه زوجتي، بحيث حين جاءته الرعاية من إنسانة أخرى ذبل ومات.

وهالني الاكتشاف حقًّا.

أيكون لدى النبات القدرة على أن يفرق بين إنسان وإنسان، وبين رعاية ورعاية، أيملك هذه الطاقة الإحساسية التي لا تتوفَّر إلا للكائنات العليا؟

ولم يكن هذا كل شيء.

فصديقات زوجتي — من كثرة ما كانت تُحدِّثهم عن النباتات — قلدوها واشتروا من نفس المشاتل، نفس الأنواع من النباتات.

ولكن، حدث العجب!

فقد ذبلت النباتات عند كثيرات منهنَّ وماتت.

ولاحظنا أن الذبول حدث للنباتات التي كانت لدى العاقرات منهنَّ أو «النمامات» أو من لا يَحملن في قلوبهن حبًّا كثيرًا للناس، بينما السيدات الطيبات الحنونات، ازدهر عندهن النبات، وأفرخ أوراقًا وخُضرة.

وهنا أيضًا أدركنا عن النبات حقيقة لم نكن نَعرفها. إنَّ النبات «يحسُّ» عواطف الإنسان أو الإنسانة من الداخل، ولا تصلح الرعاية الخارجية أو العناية في جعله ينمو ويزدهر، إنما هو يحسُّ باطن المرء ويَنفعِل ويتأثر به ولا يُخدَع بالمظاهر مطلقًا.

وفي قريتنا لنا بضعة فدادين ورثناها عن أبي، وبيتُنا يقع في وسط هذه الفدادين، وكان يزرع أرضنا فلاحان: إبراهيم وعبد المجيد، وكانت الزراعة قطنًا، نفس الأرض ونفس التربة ونفس الخدمة، ولكن قطن إبراهيم كان محصوله ضِعف قطن عبد المجيد، وكان هذا يحدث كل عام، وبطريقة تدعو فعلًا للاستغراب.

وكنتُ ذات يوم واقفًا أستمتع بمنظر القطن الأخضر، تلك المساحة الشاسعة من الشجيرات، وكان إبراهيم يجوس خلال القطن وقد انحنى. كان الحقل بالنسبة لي مساحة هائلة من الخضرة لا أكثر، فنادَيتُ على إبراهيم وسألته عما يفعل، فقال إنه يعتني بشجرات القطن ويقلب في أوراقها لتُواجه الشمس. وهنا سألته: أمعنى هذا أنك تعرف خطوط القطن خطًّا خطًّا؟ فقال: بل إني أعرف كل شجرة من أشجار الفدادين الأربعة

التي لا بدَّ تتجاوز عدة آلاف، وأعرف أن تلك في حاجة إلى سماد أكثر، وتلك معوجَّة ولا بد من عدلها، وتلك لم يَطلْها الماء وفي حاجة إلى ري.

وهنا فقط عرفتُ سرَّ تضاعف محصول إبراهيم.

المحير للعلماء للآن أنهم لا يعرفون بالضبط كيف «يحسُّ» النبات، فهو لا يملك كما قلت جهازًا عصبيًّا مُطلَقًا، أو إن كان يملك جهازًا عصبيًّا فلا بد أنه جهاز خاص، لا يُرى، حتى بالميكروسكوب، وأنه من نوع غريب مختلف عن الأجهزة العصبية للحيوان وللإنسان، وكأن خلاياه توصل الإحساس لبعضها البعض عن طريق إفراز مواد كيماوية تشعر بالخطر أو تستجيب للرعاية أو الموسيقى أو حتى للجو، وتقوم مقام الأجهزة العصبية المعقدة بما فيها المخ في بقية المخلوقات.

وكأن هذا كله لم يكن غريبًا عليَّ، فمنذ أكثر من عشرين عامًا فكَّرتُ في كتابة قصة عن طفل شريد لم يجد مأوًى له إلا شجرة من أشجار أم الشعور التي يُوجد في سيقانها فجوات تسمح للإنسان الصغير أن يتَّخذها ملجأ. وهذا ليس شيئًا جديدًا، أمَّا الجديد في القصة فهو أني في ذلك الوقت المبكر، وقبل أن أعرف عن النبات هذه الخواص الفائقة الحساسية، فكَّرتُ أن الشجرة ستُحس بالطفل الشريد وتدفئه وتُصبح له مثل الأم، وفعلًا وفي العام الماضي فقط كتبت القصة وأسميتها: «أُمُّه»، ونُشِرت في الأهرام.

من أجل هذا أرجوك أيها الصديق القارئ، كلما رأيت شجرة، أو شجيرة، أو حتى نباتًا شيطانيًّا، أن تدرك أنك أمام كائن حي يُحس، وينفعل، بل ويكاد يراك رؤيا العين، وليس رؤياك من الخارج فقط، وإنما ما تَحفل به نفسك في داخلها من خير أو من شر، من حبٍّ أو مِن كُرْه.

إلى صلاح جاهين

حين يريد الكاتب أن يَرثي شاعرًا مات أو استُشهد، فإنه يحاول أن يصل بكلماته إلى ذرى الشِّعر؛ فالشاعر لا يُرثى بغير الشعر.

فإذا كان الشاعر أخًا وصديقًا وزميل كفاح بدأ منذ الخمسينيات إلى الآن، فلا بدَّ أن يُحاول الكاتب أن يسمو بِشعره إلى رثاء الأخ والحبيب والصديق.

وإذا كان الكاتب زميل الشاعر في اكتئابه، صنو اكتئابه، بل حتى صنو الأماكن التي عولج فيها، فحين أدخلوه مُستشفى الكرملين ليعالج من الاكتئاب وضعوه في نفس الحجرة والفراش الذي كنتُ أرقد عليه، وكانوا — كما قال لي — يُذكِّرونه بي على الدوام.

وإذا كان المُتوفَّى شاعرًا وأخًا وزميلًا ورفيق مرض واكتئاب، فإن الكتابة عنه تُصبح في الحقيقة عذابًا ذا ثلاث شعب.

والأكثر تَعذيبًا أني — رغم أني كنتُ أحد المُعجبين المتعصِّبين لإنتاج صلاح شعرًا أو رسمًا أو تصرُّفات — فإني بحكم شخصيته، وبحكم اكتئابينا، كُنَّا نادرًا ما نلتقي، حتى إني لم أرَهُ خلال السنوات العشر الأخيرة سوى مرة أو مرتين، وكأنما كان كلٌّ مِنَّا يُحاول أن يخفف من معاناة صديقه بأن لا يضيف له معاناته.

ولهذا كان غريبًا في الأسبوع الماضي فقط أن يدقَّ جرس التليفوني ويأتيني عبره، صوت واهن مُتحشرِج: مَن؟ أنا صلاح. بذهول واستغراب وسؤال استنكار؛ لأني كنت أعرف: صلاح من؟ صلاح جاهين.

لا بد أن سببًا هامًّا جِدًّا دفعه للاتصال بي، وبعد المجاملات الذاهلة الأولى، صمتُّ، في انتظار أن يبدأ صلاح يقول لي ما هي المشكلة، فإذا بما يأتيني صوت مُطبق من الطرف الآخر: مالك يا صلاح؟ أبدًا. وسكت. وانتظرتُ. ولم يتكلَّم. أهناك شيء؟ لا، أبدًا. وصمتَ

وصمتٌّ. إذن لماذا طلبتَني؟ قلتها وأنا أضحك حتى أُخفِّف من حرجه بسؤالي ذلك السؤال، قال: أبدًا، حبيت أطلبك. فقط؟ فقط. طيب مع السلامة يا يوسف. مع السلامة يا صلاح.

ظللتُ طوال اليوم حائرًا في تفسير هذه المحادثة التي لا محادثة فيها دون أن أعثر على جواب.

ولم أكن أتصوَّر أن الجواب سيأتيني عاجلًا في اليوم التالي بدخول صلاح غرفة الإنعاش وإشرافه على الموت ثم موته.

أكانت محادثة وداع غير واعية؟

أم إحساس خفي أنه ذاهب، وأنه يُريدني أن أذكُرَه، وكأن مثله يُمكن أن يُنسى.

الغريب أني وأنا في صيوان العزاء وفي قمة الألم، حين رأيتُ نعشَه قادمًا مُرتفع الهامة محمولًا على الأعناق مخترقًا الصفوف بعد الصلاة عليه، تحشرج صوتي وبكيتُ وأنا في عزِّ البكاء تلبَّسَني صلاح الساخر، ورسم ذهني في الحال كاريكاتيرًا لصلاح جاهين، سيظهر في الصباح التالي لتشييع جنازته صورة لجنازته ونعشه يَرفع فيها عنه غطاء النعش وينظر إلى حاملي نعشه ويقول: كويس قوي إني خسِّيت لكم ستين كيلو قبل ماموت، وإلا كنتوا ماقدرتوش تشيلوني. وجعلتني صورة النكتة أنخرط في بكاء أعمق.

– ألو.

– ألوه.

– صلاح؟

– أيوة.

– أنا يوسف.

– إزيك يا يوسف عامل إيه؟

ووجدتُ نفسي أصمُت، فعاد صوته يقول عبر الأثير: سكت ليه، أمال طالبني ليه؟

ولم أُحِر جوابًا، فلم أكن أدري ما هو الجواب.

اتكلم يا يوسف إزي مصر، إزيكم، أنا استريحت، بس انتو لسه تعبانين.

– اتكلم.

ولم أتكلم.

ولن أتكلم.

فما في قلبي لا يعبر عنه كلام.

ضحك الجنازات

قرأتُ الحديث الذي أجراه ابننا الصحفي الشاب بهاء صلاح جاهين في الأهرام مع الأستاذ العميد الدكتور لويس عوض. كان أهم محتويات الحديث أن الدكتور لويس عوض ينعي في رثاءٍ جليل حركة الكبار في الأدب العربي، وعلى رأسهم أستاذنا الكبير توفيق الحكيم، وعمنا المُبدِع نجيب محفوظ، وشيخ طريقتنا القصيرة يحيى حقي، وكاتب هذه السطور. كذلك لم يَسلم كبار نُقادنا — ضمنًا من النعي — الناقدان الكبيران الدكتور عبد القادر القط، والدكتور علي الراعي.

وقال الدكتور لويس عوض فيما قال: إنه جيل — يقصد هؤلاء جميعًا الذين ذكرتهم — قد انتهى بحلول النكسة أو الهزيمة عام ٦٧، ولم يَعُد لديه شيء يقوله أو يبدعه، وإنه هو شخصيًّا قد مل الكتابة والكلام وفرغت جعبته. والحقيقة أني كنت قبلها بليلة قد فرغت من قراءة كتاب الصديق الموهوب أحمد رجب «كلام فارغ»، وهو كتاب من أعظم ما قرأت خلال الأعوام الماضية، لا لأنه يحتوي على كنوز معرفة غالية، ولا لأن حكمة الكون كله قد تلخَّصت فيه، ولكن لأن أحمد رجب نموذج فريد في الكتابة الساخرة، وإذا كان الكاتب الذائع الصيت «أرت بو كوالد» قد ابتدع طريقة أمريكية فريدة في السخرية خاصةً من الرؤساء الأمريكيين وزوجاتهم — أثناء حكمهم بالطبع — محتويًا في جعبته جدَّه الروحي «مارك توين»، وحتى «شارلي شابلن» كمؤلف، إلا أنها طريقة أمريكية فيها سُخرية ذكية ذكاء العواجيز الخُبَثاء. أمَّا صديقنا أحمد رجب فهو ساخر مصري أصيل، رُوحه من روح عبد الله النديم، وأسلوبه فيه رشاقة الكاتب العبقري الساخر المرحوم محمد عفيفي، فيه نكتة محمود السعدني الفاقعة في مصريتها وطول لسانه، فيه لمسة

صلاح جاهين الكاريكاتيرية وتلامذته من رمسيس إلى الليثي إلى محمد حاكم ... غير أن ميزة أحمد رجب الكبرى هي في نهايات «نصف كلمة» التي يَكتبها. إنه دائمًا يُجهِّز لك قنبلة مسيلة لدموع الضحك في آخر كل فقرة يكتبها، وهي قنبلة لا تَقتُل ولا تجرح، ولكنها تدفعك حتى للتأمل وكأن فيها كل الحكمة. كنت في الليلة التي قبلها قد انتهيت من قراءة الكِتاب، واستنفدتُ كل طاقتي من الضحك بيني وبين نفسي أوَّلًا، وبصوتٍ عالٍ يكاد يُوقظ من في البيت. وحين طويت الكتاب ووضعته جانبًا، قلت لنفسي: ها أنا ذا قد ضحكتُ بما يكفيني شهرًا بأكمله.

ولم أكُن أتصوَّر أني — في اليوم التالي مباشرةً — سأَضحك وأنا أقرأ حديث الدكتور لويس عوض كما لم أضحَكْ في حياتي.

وأنا أعرف صديقًا لديه عادةٌ غريبة، هي أنه ما إن يدخل سرادقًا للعزاء حتى لو كان الميت أعزَّ أقربائه، حتى تنتابه موجة ضَحك عاصفة، ولهذا لا يذهب للعزاء أبدًا إلا وهو يتلفَّع بكوفية يلفُّها حول نصف وجهِه الأسفل حتى لا تَحدث مأساة من جراء ضحكِه على هذه الصورة.

أنا أيضًا وجدتُ نفسي في هذا الموقف لدى قراءتي الجنازة التي أقامها الدكتور لويس عوض «لجيلنا» ولنفسه، فقد وجدت نفسي أَنفجِر وأضحك وأضحك حتى كدتُ أختنق.

والدكتور لويس عوض ليس أستاذي فقط، ولكنه صديق عمري، عرفتُه منذ عام ١٩٥٣، ولا أزال أحبه وأودُّه وأحتفلُ به وبكل ما يقول، وكأن اثنين وثلاثين عامًا لم تمرَّ على معرفتي به. ولكن هناك شيئًا لا بد — لكي أكون صادقًا مع نفسي — أن أعترف له أمام القراء بشيء؛ ذلك أني في مبدأ الأمر كنتُ آخذ الآراء المتطرِّفة التي تبدأ تتدفَّق من قريحته بعد أن «يسخن» تفكيره، كنتُ آخذها مأخذ الجد وأحتدُّ عليه، ويحتد عليَّ، وننخرط في خناقة فكرية ما أنزل الله بها من سلطان. ولكني جربتُ مرة ألا أنفعل بل أكثر من هذا أن «أتفرَّج» على آرائه وألا أندمج في الرد عليها، وكانت النتيجة أني بدأتُ بدل أن أغضب أن أبتسم، بل أن أضحك، بل أحيانًا أضحك كثيرًا وأحيل الموقف كله إلى موقف كوميدي صارخ.

وبالطبع هذا لا يحدث في كل الأحوال، ففي الغالب آخذ حديث الدكتور لويس عوض مأخذًا جادًّا عميقًا — حين يكون الأمر كذلك — أمَّا حين يتطرف ففي الحال أقلبها ضحكًا.

ولقد أضحكني الحديث.

وبدأت الضحك بقوله «جيلنا» مُسبغًا عليَّ شرف الانتماء إلى جيل توفيق الحكيم (٨٧ سنة) ونجيب محفوظ (٧٤ سنة) وزكي نجيب محمود (فوق السبعين) والدكتور حسين فوزي (٨٨) وكلهم أطال الله في أعمارهم جميعًا في سموق أشجار الكافور على شطِّ نيل الجيزة، جذورهم ضاربة في تربة مصر منذ العشرينيات حين بدءوا الكتابة حين كنتُ أنا لا أزال في علم الغيب، حيث وُلدت عام ٢٧، وبدأت الكتابة عام ٥٠، بينما هم عمالقة كبار بالكاد أَصلُح تلميذًا لهم. أضحكني هذا الشرف الذي أسبغه عليَّ الدكتور لويس مثلما كان صديقي الأستاذ محمد عودة أسبغ عليَّ نفس الشرف، ويقول إن أبي رحمه الله قد قيدني في شهادة الميلاد بعد مجيئي بعشر سنوات حتى يتجنب أن أدخل «القرعة» في سن صغيرة.

ثم حين أوغلتُ في المقال — الجنازة — انتابتْني تلك الموجة الأخرى من ضحك الجنازات؛ فالدكتور لويس يبدأ بإصدار حكم باتر لا نقضَ فيه ولا إبرام — إنه انتهى منذ حاقت النَّكسة بمصر — وكذلك انتهى معه ما سماه جيلنا واحدًا واحدًا بما فيهم العبد لله.

ضحكتُ لأنه منذ عام انتهاء الدكتور لويس عوض عام النكسة عام ٦٧ والدكتور لويس قد أبدع وأنتج أهم مؤلفاته على الإطلاق، كتابه المحيط عن اللغة العربية، ذلك العمل الخلاق الذي سيبقى ما بقيَت اللغة العربية، كتابه عن أعمدة الناصرية السبعة، كتابه عن جمال الدين الأفغاني، وذلك الذي أثار من الضجة وكُتِب عنه عدد من المقالات. ورغم أن معظمها كان نقدًا متحيِّزًا يعادل ما كُتِب عن كل الكتب التي طُبعت ونُشرت في تلك الحقبة. ثم على أثر خلاف حول النشر في الأهرام، فجأة قرَّر الاستقالة من الأهرام، واتخذ له مكتبًا في شارع الهرم وراح يقوم فيه بصناعة ثقيلة للحركة الثقافية ولا يزال بكل همة، ينشط ويعمل.

بمعنى أن ما أنتجه لويس عوض — بعد ما انتهى حسبما يقول — يُعادل إن لم يتفوق كثيرًا على إنتاجه قبل أن ينتهي وقت النكسة، فلماذا هذا المَعزى الكبير لينصبه لنفسه ولنا.

وإذا أخذنا بقية الجيل فستجد ما أنتجه الدكتور زكي نجيب محمود خلال السبعينيات فقط يُعتبَر في رأيي أهم كتبه على الإطلاق. أمَّا الأستاذ نجيب محفوظ فله كل عام رواية أو أحيانًا روايتان، وتُعتبَر رواية الحرافيش أو ملحمة الحرافيش في رأيي عملًا يرقى فوق مستوى العالمية، ويكفي أن يكتب كاتب في حياته عملًا واحدًا

كملحمة الحرافيش ليَخلُد أبد الدهر. و«دي سيرفانتس» لم ينتج إلا رواية واحدة عظيمة هي دون كيشوت، و«دانتي» أنتج الجحيم، وأنشأ بها فنَّ الرواية الإيطالية ولغتها، وكذلك «جوته» في فاوست، ونجيب محفوظ لم يتوقَّف، وإنتاجه من ناحية الحجم والانتظام أكثر بكثير من إنتاج أيٍّ من «تولستوي» و«دستوفسكي».

فلماذا هذا الحكم بالإعدام يا أستاذ؟

أمَّا إذا تركنا جيل الكبار هؤلاء وجئنا إلى الجيل الحائر؛ جيلي، فإنتاجه أيضًا لم يتوقف. فكتابة المقالة اكتسبت خصائص القصة، وكتابة القصة حفَلَت ببعض سخونة المقالة، وربما يكون ما أكتبه في الأهرام نوعًا جديدًا من «الأوتشرك» على رأي أستاذنا المرحوم الدكتور مندور. ورغم ذلك أيضًا لم أكفَّ عن كتابة القصة، فقد أصدرت منذ «بيت من لحم» مجموعتين من القصص: «أنا سلطان قانون الوجود» و«اعقلها وتوكَّل». ورغم المأساة التي تحياها الحركة المسرحية كتبت ما أعُدُّه في رأيي أهمَّ مسرحيةٍ كتبتها على الإطلاق، وهي مسرحية «البهلوان»، تلك التي لم ترَ النور للتسوُّس الذي حدث لمسرح القطاع الخاص والعام على حدٍّ سواء والقائمين عليه.

إذن هذا الجيل الذي حكمت عليه بالفناء رغم أنه في السن التي يجب أن يئوب فيها إلى الشيخوخة الجميلة والتأمل الأعمق للحياة، ولا يَزال ينتج ويبدع ويناضل ويخوض المعارك كأي كادِح شاب.

ولو كنتَ مثلي يا دكتور تتلقَّى إنتاج الشبان الجدد، كل عام شبان جدد موهوبون خلاقون يكتبون ويصرفون على ما يكتبون لكي يطبعوه ويوزعوه بأنفسهم، وهو إنتاج عالي المستوى تمامًا، أيُّ قصة منه حتى لو كانت لمبتدئ تفوق ما كان يكتبه الأوائل في العشرينيات «في عز ازدهار فن القصيرة آنذاك».

إذن موضوعيًّا لا يوجد ما يستدعي حكمًا بالإعدام أو إقامة جنازة؛ فالحركة الإبداعية تمشي ببطء هذا صحيح، وليس لها توهُّج الستينيات، هذا صحيح، ولكن الحركة الإبداعية غير منفصلة أبدًا عن حركة الإنتاج في المجتمع ككل. فالخلق نوع من الإنتاج، ومجتمعنا بعهد انفتاحه الملوَّث كاد يئد حركة الإنتاج في المجتمع ككل. وإذا كان هذا لم يَحدث، وإذا كانت هناك حركة عارمة تريد إعادة الإنتاج إلى سابق عهده، فلا بدَّ أن يُصاحبها حركة أشد فاعلية لإعادة الإنسان المُنتِج إلى سابق عهده. وهذا هو دور الفن والأدب والثقافة. فنحن نحيا في حالة مجاعة ثقافية وأحوج ما نكون إلى أن نُبقي على أفران الفن القليلة التي لا تزال تقدم لنا رغيف الثقافة والإبداع. وكلمة منك أيها الناقد المعلم كانت كفيلة

باستنهاض الهمم وفتح أبواب إنتاج مُغلَقة ورعاية حركة تَسبح ضد تيارٍ عنيف بَشِع يُريد أن نظلَّ نحيا في ظل التبعية البضائعية والثقافية.

وبعد أن طال ضحكي مع حديث الدكتور لويس عوض، بدأت دموع تتجمَّع في أركان عيني، ذلك أني أدركتُ المشكلة وعرفتُ أن الدكتور لويس عوض يُعاني من حالة من حالات اكتئابه وما أكثرها؛ فالرجل يحسُّ أنه يعيش في مجتمع يظلمه ويَضطهده، وهذا ليس شعورًا خاصًّا، ولكنه حقيقة موضوعية؛ فالدكتور لويس عوض هو الوحيد الباقي من العمالقة الذي لم يَنَلْ جائزة الأدب التقديرية فقط، ولكنه حتى لم يُرشَّح لها. ولو كنتُ من بعض من نالوا هذه الجائزة عن غير حق وعن غير جدارة إلا علو الصوت واحتلال المقاعد والمنابر والوجود، ولو بالقوة في الصورة كما يقولون، لو كنت واحدًا من هؤلاء لرفضتُ أن أنال جائزة الأدب بينما لويس عوض ذلك الذي لا يقلُّ دوره عن دور مندور وطه حسين والعقاد في النَّقد لم يَنَلْها وغير مرشح لها.

وأنا شخصيًّا لا أعترف ولا أَعتبِر أن جائزة الدولة في الأدب تعني شيئًا بالمرة؛ فهي لا تصنع كاتبًا، وعدم نوالها لا يَهبط بكاتب، ولم أُعِرْها التفاتًا منذ أن أُنشئت إلى الآن، ولن أُعيرَها، ولكن الأمر بالنسبة للدكتور لويس عوض مسألة مُختلفة، فإن الجامعات لا تُرشِّحه لأن الجامعيِّين لا يُكنُّون له حبًّا كثيرًا، والمجلس الأعلى للثقافة أغلب أعضائه كُتَّاب لم يكتب عنهم لويس عوض شيئًا ذا بال، ولذلك فهم يُعادونه بل ويتمنَّون زواله، أمَّا هو نفسه فهو لا يُمكن بكبرياء مصري جميل أن يَطلُب لنفسه جائزة وحتى يتطلع إليها.

الأمر إذن أمرنا نحن، نحن وزارة الثقافة ووزيرها، نحن المسئولين في هذه الدولة، نحن الكُتَّاب الذين تعلمنا من لويس عوض وسوف نتعلم عليه، كيف نسكت على أمر كهذا وكيف نبقي ماردًا مثله يُعاني من حالة اكتئاب قصوى يتمنى معها ولو حطَّم وتحطَّم معه المعبد؟ أَفَقَدْنا إحساسنا بالآخرين إلى هذه الدرجة؟!

أم أن العُملة الرديئة هي التي سادت الحركة الثقافية تمامًا، وهي التي أصبح بيدها تقدير كل شيء وكل كاتب وكل مُبدِع وإنشاء كُتَّاب كخيالات المَقاتة وسلب المكانة والرُّوح من كُتَّاب عِظام أحياء، وكأنهم بالقضاء على المُبدعين الحقيقية سوف يحتلُّون هم مكانتهم دون منافس أو منازع. فلنُظهِر لهذا الرجل العظيم الذي يحيا بينَنا بعضًا من التقدير وبعضًا من الحب، فهو مِنَّا ونحن منه، حتى مع أولئك الذين يَختلفون معه في الرأي

لا ضير عليهم من حبِّه وودِّه، وإلا لما قال الأقدمون: إن الخلاف في الرأي لا يُفسد للود قضية.

أم كان الأقدمون أحكم مِنَّا وأنضج وأكبر نفوسًا وأرحب صدورًا؟!

مهزلة دورينماتية

تلقَّيت من السفير السويسري خطاب شكر موجَّهًا إلى الأستاذ إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة الأهرام ورئيس التحرير، وفيه يَشكُر الأهرام على المأدبة الحافلة واللقاء التاريخي الذي استضاف فيه الأهرام الكاتب الكبير «فردريتش دورينمات» والعائلة المسرحية المصرية على غداء كما يقول الخطاب «غداءً ملكيًّا».

والحق أني وأنا جالس بين دورينمات وزوجته المخرجة الألمانية «شارلوت»، وأمامنا الحركة المسرحية الصوتية من كُتَّاب ونُقَّاد ومديري فرق ونجمات ونجوم، لم أَملِك نفسي من الإحساس بالسعادة؛ ذلك أن هذا الحدث، حدث أن تَجتمِع العائلة المسرحية كلها لتحتفل بأكبر كاتب مسرحي أوروبي معاصر في زيارته للقاهرة، مسألة ليست من قبيل البذخ كما تفضَّل بعض صغار الصحفيين وذكروا، ولا هي من قبيل الأبهة الكاذبة، ولكنَّها هي بالضبط ما نعنيه بكلمة «الثقافة». فالثقافة ليست كتبًا يَكتبها أناس ليقرأها أُناس، الثقافة بالأساس إحساس قوي يربط المُهتمِّين بمصير البشرية والذين يَكتبون لأنهم مُرتبِطون بهذا المصير يربطهم في مختلف أنحاء العالم بفكرة إنسانية واحدة.

ولقد كنتُ في سويسرا، قد قضيتُ ساعات مع «دورينمات» نتحدَّث في شتى المواضيع، ونشرت بعض الحديث على صفحات الأهرام، ولا أذكر إن كنتُ قد كتبت في نهاية تلك الأحاديث أني قد دعوته لزيارة القاهرة أم لم أذكر. فالواقع أني كنتُ قد وجهت الدعوة فأجابني بطريقته التي تبدو غير متحمِّسة، إنه قد قبلها، وإنها من المنتظر أن تتمَّ في نوفمبر، خاصةً وأن زوجته المخرجة في الشبكة التليفزيونية الألمانية الأوروبية تُريد أن تصور فيلمًا عن مصر القديمة والحديثة.

لم أكن متأكدًا أن الدعوة ستتم، ولكني حين عُدت إلى القاهرة اتصل بي مستر «أرزمان» القائم بالأعمال السويسري، كان السفير غير موجود وذكَر لي أنه تلقى خطابًا من «دورينمات» يؤكد فيه على أنه سيَحضُر إلى القاهرة في نوفمبر.

وهنا وقعتُ في حيص بيص؛ فعلاقتي بالسيد وزير الثقافة السابق كان مجالها محكمة باب الخلق، ولستُ في سعة من الرزق تَسمح لي باستضافة «دورينمات» على

نفقتي الخاصة ولا أستطيع الاقتراب من مؤسَّسة المسرح أو حتى الثقافة الجماهيرية لتبنِّي تلك الدعوة، فماذا يا رب أفعل؟

بعد بضعة أيام كنتُ في المركز الثقافي الفرنسي في زيارة لمعرض الكِتاب، أو بالضبط الكتب التي أُلِّفت بالفرنسية عن مصر والبلاد العربية والإسلامية، وهالني عدد الكتب التي تبدأ من كتاب «وصف مصر» إلى الآن.

وفي المركز وجدتني وجهًا لوجه أمام الدكتور ممدوح البلتاجي، رئيس هيئة الاستعلامات، وخطر لي أن أُحدثه بالمشكلة التي أوقعتُ نفسي فيها، فإذا بالرجل وبحماس زائد يقول لي: لا مشكلة، ولا شيء من هذا القبيل، ستتولى هيئةُ الاستعلامات دعوة الكاتب الكبير واستضافته وعمل كل شيء من أجل أن يأخذ هذا الكاتب العالَمي فكرة حقيقية عن بلادنا، ولكني قلت له إن هذا عمل وزارة الثقافة وأنت تعرف الوضع.

قال: من قال هذا؟ إنه من صميم عمل هيئة الاستعلامات، فعندنا إعلام داخلي للمصريين وإعلام خارجي نتولى به دعوة كبار الكُتَّاب والصحفيين، وهناك ميزانية وبرامج لهذا كله. وأن يأتي كاتب كدورينمات لمصر حدثٌ عالمي لا يُمكن أن نتركه يمر. فإني متأكد أنه إمَّا أن يكتب كتابًا أو سلسلة مقالات أو حتى مسرحية عن مصر، فمصر بالنسبة للعقلية الإبداعية الأوروبية تشكِّل مهبط وحي لا يُمكن أن تمر عليه قريحة خلاقة دون أن يُؤثِّر فيها بطريقة ما. وبعد أسبوع واحد كان الدكتور ممدوح البلتاجي قد نظَّم برنامجًا متقنًا للرحلة والإقامة، وأرسل باسم الهيئة دعوة لدورينمات وزوجته، وكان القائم بالأعمال السويسري عندي في مكتبي يُناقش معي تفاصيل الندوات التي سيعقدها «دورينمات» في القاهرة: واحدة في الجامعة، والأخرى في لقاء مع العائلة الثقافية في الأهرام، والثالثة ندوة مفتوحة في فندق شيراتون الجزيرة حيث يُقيم، والرابعة في معهد جوته الألماني. كان هذا الكلام في يوليو من هذا العام، وكنت قد وعدت «دورينمات» أن نقدِّم له عملًا من أعماله التي تُرجمت وقُدمت على مسارح القاهرة (أربعة أعمال)، وهكذا اتصلت بالمسئولين في هيئة المسرح لتحضير عمل يُعرَض أمامه باللغة العربية، واخترتُ المخرج الفنان سمير العصفوري ليُقدِّم هذا العمل باعتباره أول من أخرج مسرحية لدورينمات في مصر، واختار سمير أن يقدم مسرحية «الشهاب» لقصرها من ناحية ولمحدودية ممثليها من ناحية أخرى.

وفي نفس الوقت فاتحت الأستاذ إبراهيم نافع في حفل غداء نُقيمه على شرف الرجل في الأهرام عندنا، وقد أسعدني حقًّا أن قال لي: إنَّ كل إمكانيات الأهرام تحت تصرفك.

هكذا ترتب كل شيء.

وبدأت الشهور تتوالى: أغسطس ثم سبتمبر ثم أكتوبر، وكان وزير الثقافة قد تغيَّر وجاء الصديق الكبير الدكتور أحمد هيكل وزيرًا جديدًا ومتحمِّسًا.

وذَهبت للقائه وأعدتُ عليه قصة «دورينمات» والمسرحية التي يجب أن تقدم، فذكر لي أن الدكتور سمير سرحان اتفق مع سمير العصفوري على كل شيء، وأن بروفات المسرحية قائمة على قدم وساق.

وبعد أسبوع اتصل بي الأستاذ سمير العصفوري وقال لي: إنه رأى أن عرض الشهاب غير مُمكن، وأنه اختار مخرجًا من تلاميذه ليقدم عرضًا يستغرق ساعة يستعرض فيه مقطعًا عرضيًّا لكل أعمال «دورينمات».

الحقيقة فدورينمات كتَب ما لا يقل عن الثلاثين عملًا، وكيف سنضع هذا المقطع العرضي لكل تلك الأعمال، ولكن لثقتي في قدرة سمير العصفوري قلت: أنت المسئول، وأنت وما تراه.

وقبل وصول «دورينمات» بأسبوع لعب الفأر في عبي، فاتصلت بالدكتور سمير سرحان أطمئن على العرض، فإذا به يَذكر أن سمير العصفوري قد ذهب ليحضر مهرجان قرطاج في تونس، وأن العرض لن يُقدَّم.

وأحسستُ بجانب كبير من كارثتنا المسرحية يتبدى على أبشع صورة.

كارثة كانت قد بلغت «دورينمات» نفسه وهو لا يزال في سويسرا، فقد كانت أول كلماته لي حين قابلته في المطار أن قال إنه حزين لأن العرض المسرحي أُلغي، فقد كنتُ فعلًا أريد أن أتفرج على «دورينمات» بالعربية.

وغرقتُ في خجل لما آلت إليه أمورنا المسرحية والثقافية.

وغرقتُ في خجل أكثر حين عرفتُ أن أحدًا لم يُحاسَب على ما حدث ولا وُجِّه لومٌ لأحد، ومرت المسائل وكأنها لعب عيال نأتي بكاتب عالَمي من النادر أن يُغادِر بلده أو يحضر عروضه في البلاد الأخرى ونعدُه بتقديم عمل مسرحي له، ثم إذا بنا في آخر لحظة وبكل استهتار هكذا نقول له: معلش، تتعوَّض المرة الجاية إن شاء الله.

لقد كانت الزيارة ناجحة تمامًا من الناحية الثقافية والاجتماعية، فاشلة تمامًا من الناحية المسرحية والمناقَشة المسرحية. وربما كان الخطأ خطئي؛ إذ اعتمدت على أن لدينا مسئولين عن هذا كله، وعملهم أن يضعوا هذا ولا أقوم أنا أو غيري بكل العمل. لقد حرصت على أن أحضر أقل عدد من الندوات والحوارات التي أجراها «دورينمات» مع

التليفزيونيين ومع الجامعيِّين ومع المثقفين؛ لأني اعتقدت أنني بدعوتي «دورينمات» للقاهرة وتلبيته الدعوة يُصبح من عدم اللياقة أن أحشر في كل كبيرة وصغيرة.

عُذرًا أيها الكاتب العظيم.

وقلبي معك يا دكتور هيكل في وزارة اختلط فيها كل شيء بكل شيء، ولم يَعُد فيها مسئول واحد تستطيع أن تطمئنَّ إلى كلامه أو إلى وعده.

لماذا الفتور في حياتنا؟

أنا أكتب لقارئ فاتر الحماس، وهو ليس فاتر الحماس لقراءة ما أكتبه أنا، وإنما أعتقد أنه فاتر الحماس لكل وأي من يقرأ له حتى لو كان الكاتب من جهابذة الكتابة أو العبقرية أو التاريخ. وليس العيب في هذا أبدًا عيب القارئ؛ ذلك أني أدرك أن الكاتب أيضًا، أي كاتب لم يَعُد شديد الحماس للكتابة، بمعنى آخر: إن الحماس الفاتر أو على وجه الدقة الفتور أصبح هو الصفة الغالبة للكُتَّاب والقُرَّاء جميعًا، كما لو كُنَّا قد أصبحنا «نؤدِّي» الكتابة، مثلما «يؤدِّي» القارئ القراءة، وليس هذا أيضًا إحساسًا خاصًّا بالقراءة والكتابة وحدهما، بل بجولاتي الكثيرة في مختلف أوجه الحياة في المجتمع المصري وأماكن العمل، كنت أنتبه مِن انشغالي بالمناقَشات اللامتحمِّسة التي تدور، وأنين الشكاوى والانتقادات، على هاجسٍ مفاجئٍ مُلح، إنها علامات الفتور الواضح وانعدام الحماس.

بل إنني في تجوالي في كثير من بلادنا العربية على اختلاف النُّظم الحاكمة فيها، كان ذلك الشبح يطلُّ برأسه حتى لأكاد أراه رأي العين وألمسه حقيقةً مجسدةً واقعةً: الفتور المستشري وعدم الحماس.

وإذا عَنَّ لقارئ أن يرفع يده أو صوته أو قلمه مُعترضًا، وكثير من خطابات القراء التي تأتيني معترضة أو مؤيدة، أجدها في النهاية وبالنظرة الأعمق دليلًا ما بعده دليل على انعدام الحماس وفتور الهمة، حتى لو كان الموضوع الذي يكتب عنه القارئ مثيرًا للهمة ودافعًا للحماس.

ولقد أصابني هذا كله بالعدوى. أوَلستُ فردًا في نفس هذا المجتمع، يُعديني فتوره؟ وكنت قد قررتُ أن أستقصي كل أسباب النجاح في التجربة اليابانية الصناعية الناجحة، على الأقل لنتمثلَّ بها، وفي نفس الوقت أفتح ما استطعت قلب المواطن الياباني ووجدانه

لأكشف عن التمزُّق الهائل الذي يُعانيه اليابانيون ما بين تمدن صناعي صارخ على الطريقة الأمريكية الرأسمالية وما بين الوجدان الياباني الذي كان واجبًا أن يُفرز ثقافةً وفنًّا وحضارةً تُوازن ذلك التقدم التكنولوجي الهائل، وتُعيد التوازن إلى العقل الياباني والضمير الياباني والإنسان الياباني بشكل عام. ولكن اسمحوا لي أن أعترف بهذا، أحسستُ أني أؤذِّن في مالطة، أو ربما في جزيرة شكوكو (وهي إحدى الجزر الأربع التي تتكوَّن منها بلاد اليابان)، أحسستُ أني أتكلَّم عن مجتمع ناجح لمجتمع فقد الأمل والطموح أن يَنجح، وعن تقدُّم صناعي هائل في مجتمع بالكاد يحاول الاحتفاظ بالصناعات التي أقامها منذ خمسين عامًا، وأنني أتحدَّث عن بلاد يَميل فيها الميزان التجاري لصالح اليابان بزاوية تكاد تصل إلى ١٨٠ درجة، إلى مجتمع تكاثرت عليه الديون الخارجية وأُثقل بفوائد الديون إلى درجة تكاد تميل في غير صالحه بزاوية تكاد تصل أيضًا إلى ١٨٠ درجة.

ووجدتُ الفتور يدبُّ إلى مشروعي، ومفاصل طموحي لإعطاء الصورة تتكلَّس، ويُصيبها الوهن.

وكدتُ أُصاب بل أُصبتُ فعلًا، بإحباط يكاد يَمنعني من الاقتراب من القلم أو الورق.

وحينذاك، وفي نوبة ثورة على الفتور وعلى نفسي وعلى انعدام الحماس الذي يَزحف كالطاعون غير المرئي على الإرادات في مجتمعي، قرَّرتُ أن أجعل موضوعي هذه المرة، هو هذا الموضوع نفسه موضوع فتورنا وعدم حماسنا لأي شيء على الإطلاق.

فمِن غير المعقول، ونحن الذين كان إذا مسَّ الفلسطينيين شيء، نقوم قومة رجل واحد، وإذا مسَّ مسلمًا ضُرٌّ أو اعتداءٌ قامت المظاهرات وعُقدت المؤتمرات وانتابتنا حُمَّى وفتحنا باب التطوع وأرسلنا فعلًا مقاتلين إلى فلسطين أو غيرها.

غير معقول أن يكون هذا موقفنا في الماضي القريب جِدًّا، ثم نقرأ الآن عن المذابح التي تجتاح معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، ومِن مسلمين أو على الأقل يَنتمون لدين الإسلام؛ منظمات أمل، وجند الله، ولا يتحرَّك لنا ساكن. ولولا تصريحات مبارك وإداناته، ولولا وفد أحزاب المعارضة وعلى رأسه ذلك الرجل المخلص الطيب إبراهيم شكري، لحسبتُ أن المرض قد وصل بنا إلى الشلل التام. نحتفل بأعياد الطفولة ثم نُفاجأ أن هؤلاء الأطفال يُحشَرون كل ١٢٥ في فصل، ليتلقوا «العلم». أيُّ علم يتلقونه وهم إذا أرادوا التنفُّس، مجرد التنفس واستنشاق الأكسوجين لن يجد الواحد منهم ما يكفيه للتنفس ساعة؟ وأيضًا لا يتحرك لنا ساكن، ولا ينتفض وزير التربية ويفتح الله عليه بشيء يفعله أو يقوله.

نسمع عن مصريين سُجناء في إيران، ويقصر حماسنا حتى عن أن نَطلب من الصليب الأحمر، ولا أقول الهلال الأحمر؛ لأني أعتقد أن الحاكمين في إيران لا يؤمنون بأي تنظيم أحمر حتى لو كان هلالًا إسلاميًّا عربيًّا، وبالذات لو كان إسلاميًّا عربيًّا.

تتحدَّث الدنيا كلها، وتدين، وتسخر، وتحتجُّ على أن أمريكا وإسرائيل تزوِّدان فارس بأسلحة وصواريخ لإبادة العرب المسلمين في العراق، والدنيا كلها قائمة على قدم وساق تتحدَّث عن هذه الفضيحة، بل تلك الجريمة النكراء من إدارة ريجان ومخابراته ومؤسسته، ونحن وكأن لا حياة لمن تنادي، وكأن الذي سيُباد بتلك الأسلحة فئران تجارب وليس مواطني العراق العرب والمسلمين من سنة وشيعة، وحتى من مصريِّين يعملون في العراق.

ولا أريد أن أسترسل، فلست هنا بسبيلي إلى انتقاد موقف السلطات من تلك الأفعال، ولا لوم الأحزاب، مُعارِضة أو مُؤيِّدة، ولا التجمُّعات الشعبية والجماهيرية، فأنا هنا وأقسم على هذا لا أريد أن ألوم أحدًا، إني إنما أسميتُ الظاهرة التي أسميتها مرة بحالة «التولة» التي أصبحنا نعاني منها، أو ما سميتها مرة بالرمال الناعمة التي تترسَّب دون أن نشعر في مفاصل الإرادة المصرية، الفردية والجماعية، ونُصيبها بالثقل، وبالتصلُّب، ثم أخيرًا أعوذ بالله بالشلل.

أجل!

أريد، بالسرعة البطيئة، أن أمرِّر حياتنا أمامي، وأمامنا، فمن يدري، ربما نعرف السر، أو الطريق إلى السر.

وأبدأ بالفتور تجاه القراءة، وبالذات قراءة جرائدنا.

ولا أقول جرائدنا المصرية فقط، ولكن كل الجرائد التي تصدر بالعربية.

أعتقد أنني لست وحدي، ولكن قراء جرائدنا قد لاحظوا في الفترة الأخيرة بالضبط خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، ظاهرةً انفردت بها صحافتنا دون صحافة العالم، وأقصد بتلك الظاهرة هذا الطوفان من الذكريات والمذكرات، وبالذات عن الأحداث التي جرت في عهد الرئيس عبد الناصر، بل ومنذ قيام ثورة ٢٣ يوليو. ذكريات ومذكِّرات، وكأننا قد وصلنا إلى محطة استراحة سياسية، حقَّقنا فيها كل أهداف مرحلة ماضية. وقطعنا مشوارًا تقطعت فيه أنفاسنا، وآنَ الأوان، ليس لنستريح من وعثاء المشوار، وإنما لنَجلِس ونتوقَّف ونُوقف التاريخ وسريان الأحداث، ليَروي كلٌّ مِنَّا ما حدث له، من وجهة نظره الخاصة،

وليُرِيَنا كيف كان البطل الأوحد لهذه الفترة أو الواقعة أو الوقائع، وكيف أنه وحده خلص مصر من ذلك المطب أو غيره، وأن لولاه لحدث لمصر ما لا تُحمد عقباه ولانحرفَت الثورة وابتلعها التيار، أو لَيَرويَ لنا بعض عمد فترة ما قبل الثورة الكارثة التي حدثت في مصر بعد قيام الثورة، وأن مصر لو لم تَقُم فيها ثورة أصلًا لكانت أحسن حالًا بكثير، ولما عشنا المآسي التي جلبتها علينا ثورة ٢٣ يوليو و«دكتاتورها» جمال عبد الناصر.

أو يحدث العكس، ويتولى آخرون إعادة كتابة الفترة، ليوضحوا إلى أي حد كان لهم الفضل الأوَّل في بناء السد العالي، أو تأميم قناة السويس، أو خروج مصر منتصرة في حرب ٥٦، ويتنصَّل الجميع من هزيمة ٦٧، أو يرون أنهم السبب في انتصار ٧٣، وكأن الذي صنع كل تاريخ الفترة المادية وانتصاراتها هي مهارتهم وعبقريتهم واتِّباع عبد الناصر لنَصائحهم أو استبداده برأيه وتنحيتهم، أو أن طريقة السادات في الحكم هي السبب. باختصار كل واحد منهم يَخرج من مذكراته بطلًا لا يُشقُّ له غبار.

لم أقرأ لأيٍّ منهم اعترافه بخطأ اقترفه لنتعلَّم نحن والأجيال القادمة منه، لم أقرأ لأيهم هفوة واحدة، بدرَت له. كلهم رجال سياسة كاملون مُنزَّهون، والعيب كل العيب إمَّا على هذا الدكتاتور أو ذاك.

ولم أرَ مهزلة مُذكِّرات حدثت في تاريخ البشرية مثلما رأيتُ هذا الوابل من المذكِّرات يَنهال على العقل المِصري والعربي، وكلُّها مذكِّرات دُفعت فيها أثمان باهظة وخرج أصحابها بالثروة والمجد والخلود، وخرجنا نحن بالانطباع الوحيد المُمكن، أنهم كلهم بطريقة أو بأخرى كذابون، منافقون، عاشوا يتمرَّغون تحت أقدام الثورة وعبد الناصر والسادات، واستأسدوا جميعًا الآن.

بل خرجنا بانطباع أهم: أننا فقدنا الثقة فيما يُكتب، وفتر حماسُنا للقراءة؛ فمعظمنا كان حيًّا وشاهدًا على ما حدث، وإذا كان الكذب على الميت حرام، فالكذب على الحي والأحياء جريمة خُلقية ما بعدَها جريمة.

السبب الثاني لهذا الفتور الذي يَشعر به القارئ تجاه ما يُكتَب هو هذه «المُودَة» التي اجتاحَت صحفنا ومجلاتنا، «مُودَة» تحوُّل أساتذة الجامعات ومدرسيها وأعضاء مجالس الشعب والشورى بل وحتى بعض الوزراء السابقين والحاليِّين والسفراء وكل من هبَّ ودبَّ إلى الكتابة في الصحف.

فأوَّلًا هؤلاء جميعًا ليسوا كُتَّابًا، والكتابة ليسَت أن تُمسك برأس موضوع ما، وكلها مواضيع لا تُهمُّ القارئ العادي في شيء. وأمسِكْ أيَّ جريدة من جرائد هذا اليوم بالذات،

أو جرائد الأسبوع الماضي كله، ستجد صفحات الرأي في جرائدنا الثلاث مملوءة بمواضيع غريبة؛ مثل العلاقة بين التخطيط والتنفيذ في مجال البحث العلمي أو تنظيم الأسرة أو برامج التليفزيون أو خروج المرأة إلى العمل. هذه ليست رءوس المواضيع على وجه أكيد، ولكنها شبيهة كثيرًا بالمواضيع التي يتناولها هؤلاء الناس من «الكُتَّاب» الجدد، فإذا جئتَ إلى طريقة العلاج فسوف تكتشف أنها طريقة واحدة تُكرِّهك في القراءة؛ إذ لا بد أن يسوق «الكاتب» مقدمة طويلة جِدًّا مملوءة بأشياء مثل «لوحظ في الفترة الأخيرة» أو «قبل الدخول في الموضوع لا بد من كذا أو كيت» أو «كمُقدمة لدراسة المشكلة لا بدَّ من القول إنه ...» طريقة مملَّة لا علاقة لها بفن الكتابة، وبالذات للصَّحافة، من قريب أو بعيد، وإنما على أحسن الفروض تَصلُح محاضرات عقيمة من النوع الذي يبدأ جمهوره يتململ بعد الدقائق الخمس الأولى من المحاضرة؛ إذ يكون قد يئس من الدخول في الموضوع.

ثم ...

لأنَّ معظم هؤلاء «الكُتَّاب» الجدد من أساتذة الجامعة ومعلِّميها، فإنني لأعجب لأستاذ جامعي، مجال حديثه بين طلبته ومجالس كليته وجامعته، يترك هذا كله ليُخاطِبَ جمهورًا لا يعرفه ولا يعرف اتجاهاته، ويخاطبه وكأنه يُلقي محاضرة على طلبته. إنني لا أعرف مكانًا أسمى لأستاذ الجامعة ومدرسها من مدرَّج محاضراته ولقاءاته بطلبته واجتماعاته بهم في أُسَرهم أو مجالات نشاطهم الجامعي. ليست مهمة أستاذ الجامعة أن يكتب للصحافة، إنَّ مهمته أسمى وأجل؛ أن يُربي ويعلم وينشئ معلِّمين للشعب وأساتذة، إنه أبوهم الروحي وصانع طموحهم ودليلهم في بحر العلم والتربية الشاسع، ولكن شهوة الشُّهرة والذيوع أقوى بكثير من متعة الجهد العميق لخلق إنسان جامعي. لقد بدأت الكارثة بمودة اختيار الوزراء من بين أساتذة الجامعة، ولهذا أصبح كل أستاذ يَطمح في الانتشار العام والشهرة خارج منصب الأستاذية الرفيع؛ إذ من يَدري لعل وعسى تصنع منه مقالة أو بضع مقالات مرشحًا أثيرًا للوزارة!

وقد يقول قائل إنَّ هؤلاء الأساتذة يصنعون من مقالاتهم في الجرائد والمجلات نوعًا من «الجامعة الشعبية»، وهذا قول مردود عليه؛ إذ إنهم للأسف لا يُحسنون الحديث إلى جمهور الصحف والمجلات، ولا يُحسنون أيضًا أصول الكتابة وجذب انتباه القارئ؛ لأنَّ تفرُّدهم الحقيقي وقدرتهم الحقيقية هي في «الأستذة» وليست في تدبيج المقالات الصحفية؛ فالمقالة الصحفية «فن» و«علم» و«موهبة» لا علاقة لها بالتدريس أو البحوث.

ذات يوم وأنا أراجع في كتاب التشريح المشهور في كلية الطب «جرايز أنا تومي»، وهو كتاب ضخم من آلاف الصفحات، وجدتُ ضمن الشهادات التي يَحملها كاتب الكِتاب

شهادة .B.A ومعناها ليسانس آداب، واستغربت أن يكون أحد مؤهِّلات عالِم التشريح ليسانسيه آداب، وسألتُ أستاذي الإنجليزي فقال لي إنَّ أي عالم في بريطانيا لا يَجرؤ على كتابة أي مرجع علمي إلا بعد حصوله على شهادة في الآداب لأنَّ المرجع العلمي ليس مجرد صف المعلومات، ولكن كتابة المرجع في حاجة إلى قدرة على «الكتابة» حتى يَستطيع الطالب أن يستوعب الحقائق العلمية، وهي مكتوبة بنوع من الأسلوب الأدبي المتين.

وهذا عن كتابة مرجع علمي في التشريح.

فما بالك وهؤلاء «الكُتَّاب» الأساتذة يكتبون لجمهور عريض تحتاج الكتابة إليه إلى قدرة فائقة على جذب الانتباه وإثارة حب الاستطلاع والدخول إلى قلب الموضوع بطريقة بارعة!

هذه بعض أسباب الفتور، فتورنا في قراءة الصحف وفتورنا أيضًا في الكتابة التي أصبحت عمل من لا عمل له، واجتنابًا متعمَّدًا لكل مشاكل الحاضر الشائكة واللجوء إلى الماضي، وذكرياته، أو بالأصح الهرب إلى الماضي وذكرياته أو إغراق القارئ في مواضيع هامشية جِدًّا وغير هامة بالمرة تُخمد فيه الرغبة في الاطلاع أو القراءة.

ولكن الفتور في حياتنا متشعب ومتسرطن، ومعشش في قراراتنا وعملنا ومواجهاتنا وحتى في سلوكنا اليومي.

إنه بالكاد يبدأ.

سكلانس الفتور

كُنت أعرف أن هذا سيحدث، فلم يكن الموضوع الذي كتبتُه في الأسبوع الماضي عن فتور حماسنا أول موضوع أكتبه، وإذا بالخطابات التي تأتيني ردًّا عليه أو مناقشةً له، خطابات لا علاقة لها البتَّة بلبِّ الموضوع. وهذا ما كان يَدفعني للعجب، فأعتقد أن اللغة التي أكتب بها لغة سهلة، مُمكن قراءتها لكل من «يَفُك» الخط، والطريقة التي أتبعها في تناول الموضوع تُسهِّل كثيرًا الوصول إلى لبِّه، ومع هذا فالقراء أو بعض القراء الذين تَصلني خطاباتهم يبدون وكأنهم لم يقرءوا الموضوع أصلًا أو على أكثر تقدير قرءوا عنوانه وبضعة مقاطع منه.

ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعَلني أبدأ كلامي عن فتور حماسنا بالكلام عن الكتابة والقراءة، فالكتابة شيء هام جِدًّا لحياة الناس، عاديِّين أو غير عاديِّين، وإذا بحث كل مِنَّا في تركيبة عقله وقيَمِه وجد أن معظمها راجع لما قرأه لغيره، علمًا أو تربيةً أو ثقافةً أو حتى قصصًا، ولست أجد في هذا المجال تعبيرًا أفضل من مقطوعة من تلك القصيدة الزجلية التي أرسلها الأستاذ عبد الحميد عبد العظيم محمد (عضو اتحاد الكُتَّاب) والتي يقول فيها:

هل مشكلتنا اقتصاد   أو شيء في علم النفس
أو فكر وارد مضاد   وبيشتهي لنا الخفس

* * *

اعرف يا صاحبي السبب   واركب جناح الصعب
وادي الأمان للأدب   واحي في الشعب الأمل

وافتح لي قلب الأديب   يكتب لنا ... نقرا
دي الكلمة أحسن طبيب   للي بيستقرا

* * *

دي الكلمة هي الأمل   فجر الحياة والنور
من غيرها تلقى العمل   يشبه سلاح مكسور
والكلمة طوق النجاة   لو حرة مش زايفه
تخرج ما بين الشفاه   واضحة ما هش خايفه

هكذا تصورت أن البحث عن أسباب الفتور في حياتنا لا بد أن يبدأ من الكلمة، من كُتَّابها، وينتهي بقرائها. وحين استعرضت جرائدنا ومجلاتنا، التي هي المصدر الرئيسي للكلمة في حياتنا، وجدت أن أحد الأسباب الرئيسية لفتور الكلمة الصحفية راجع إلى أنَّ مواضيع الناس ومشاكلهم الحقيقية لا يُكتب عنها، وأن الجرائد — حتى جرائد المعارضة — تكاد تتحوَّل إلى منابر لعرض المشاكل الشخصية لمُواطِن وقع عليه ظلم أو يطلب ترقيةً أو علاجًا ... إلخ.

وأيضًا وجدت أن الصحافة قد أُصيبَت بما يُشبه المرض، حين هاجر إليها علماؤنا وأساتذة جامعاتنا وكافة فئاتنا المِهنَية، بل وأعضاء مجلسَي الشعب والشورى وكثير من كبار الموظفين المُحالين إلى المعاش. ترك كل منهم مجاله الحقيقي واستسهلَ الجلوس إلى المكتب وتدبيج مقالة من النادر تمامًا أن تحتوي رأيًا جديدًا أو فكرةً نيرةً، وإنما هي تتمشَّى مع الرأي الغوغائي العام ولا تُحاول أبدًا فتح أعين مجتمعاتها على حقائق قد تصدم ولكنها تدفع حتمًا للتمعن والتفكير وإصلاح الخطأ.

أسوق كل تلك المقدمة لأردَّ على خطاب كريم تفضل به عليَّ الأستاذ الدكتور يحيى الجمل الوزير السابق والأستاذ بكلية الحقوق جامعة القاهرة. والخطاب طويل ومهذب ورقيق، وقد كنتُ أودُّ نشره بالكامل لولا ما خصَّني به الأستاذ الدكتور من أوصاف وصفات لا أستطيع أن أُضمِّنها بابًا يخصني.

يقول الدكتور يحيى الجمل:

> ولكن أرجو أن تأذن لي أن أَختلفَ معك في بعض ما جاء في مقالك — وليس معه كله — تفسيرًا لظاهرة الفُتور في قراءة الصحف عندما ذهبت إلى أن شيئًا من ذلك يرجع إلى ما يَكتبه بعض أساتذة الجامعة في الصحف من مقالات.

وقد أكون أنا واحدًا من هؤلاء الأساتذة الذين عنَيتهم، وقد لا أكون. وليس هذا هو السبب أني أمسكتُ القلم لأكتب لك. إن أستاذ الجامعة يا سيدي خاصةً في الكليات النظرية هو أساسًا صاحب قلم، وأداته من التعبير عن فكرته هي الكلمة، أمَّا زملاؤك من أساتذة الطب وغيرهم من أساتذة العلوم والهندسة فقد لا يكون القلم وسيلتَهم الأولى للتعبير، وإن كان ذلك لا يحرمهم أن يكونوا من ذوي الأقلام الرائعة مثل أستاذنا وأستاذك الدكتور محمد كامل حسين، وأستاذنا وأستاذك الدكتور أحمد زكي أستاذ العلوم، ولم يَمنعه ذلك من أن يكون واحدًا من أحسن من كتبوا المقال العلمي الأدبي.

ولا حاجة بي إلى ذكر أستاذ الجميع الدكتور طه حسين، ولا أستاذنا الكبير أطال الله في عمره وأعطاه الصحة والعافية الدكتور زكي نجيب محمود. ويَمضي الدكتور يحيى قائلًا: أنا لا أذكر أن ثمَّة أمثلة سيئة ينبغي لها ألا تكتب، وكم من الصحفيين المُحترفين لا يستحق إلا أن يُحرَق بكلامه.

وأظن يا صاحبي أن العبرة هي بما يُكتَب وليس بصفة الكاتب وكونه صحفيًّا محترفًا أو أستاذًا جامعيًّا، وقل لي بالله عليك، ألا ترى معي أن أحد الأسباب القومية للفتور التي لم تعرض لها في مقالك هي غياب أو «تغييب» القضايا الكبرى المصيرية في صحافتنا، القضايا التي تشدُّ الناس وتدفعهم دفعًا في آن معًا؟!

ليعذرني الدكتور يحيى الجمل أني ضغطتُ بعض مقاطع من خطابه لضيق الحيز، ولكني لم أمس معنى واحدًا من المعاني التي أشار إليها.

وأعتقد أنه على حق في رأيه القائل بأن التعميم شيء ضار، وأن العبرة بما يُكتب وليس بمن يكتب. والمذهل أن هذا كان موضوعي الذي تحدثتُ عنه، وحين نقدت هجرة أصحاب المِهَن والمكانات الأخرى إلى الصحافة لم أقصد هجرتهم كأشخاص أو كأساتذة، وإنما أقصد هجرة الحابل والنابل، والذي يعرف كيف يكتب والذي لا يَعرف، والذي يُدرك بالذكاء وبالسليقة الموضوع الهام الذي يجب أن يتناوله والذي يكتب لمجرد أن يكتب ولمجرد أن اسمه يظهر في الجرائد.

ويَحضُرني من هذا المجال ما يكتبه صديقي الدكتور ميلاد حنا؛ فميلاد حنا من أعظم أساتذة الإنشاءات والإسكان في مصر، وحين يكتب في جرائدنا عن هذا الموضوع فإني أقرؤه بنَهَم؛ لأني «أعرف» و«أتعلم» عن مشكلة الإسكان منه، أمَّا حين يكتب إذ

لا قدر الله كتَب عن مشكلة العلاج والطب الوقائي في مصر، فإني لن أقرأ له. وليس معنى هذا أن على كل أستاذ متخصِّص في موضوع أن يحصر نفسه في تخصُّصه؛ فالدكتور حسين فوزي طبيب عيون سابق وأستاذ في العلوم البحرية، وأنا أقرأ له تحليلاته لموسيقى بيتهوفن وموازار وهايدن وسترامتسكي وغيرهم بأقصى ما أستطيع من مُتعة.

أعود لموضوعنا فأقول إنَّ كثيرًا من المقالات التي تراها في جرائدنا يكتفي الإنسان بقراءة عنوانها فقط، فإذا ما حاول قراءتها وكانت لعالم أو لأستاذ جامعة أو لعضو في مجلس الشعب، فإن هذه الصفات كلها لن تُجدي في حمل القارئ على قراءة موضوع لا يعرف صاحبه كيف يَكتبه. والأمثلة التي ضربها الدكتور يحيى الجمل هي خير دليل على ما أقول؛ فطه حسين كاتب، وكامل حسين كاتب، وزكي نجيب محمود كاتب، وأحمد زكي كاتب، وأحمد أمين كاتب، وإبراهيم ناجي الطبيب شاعر، وعلي محمود طه المهندس شاعر، ومرسي جميل عزيز التاجر شاعر، فلا علاقة بين موهبة الكتابة والقدرة على الكتابة أو قول الشعر وبين وظيفة الكاتب أو الشاعر. فإذا ما كتب الموظفون بحكم وظائفهم وليس بحكم مواهبهم فتَرت حماسة الناس قطعًا لقراءتهم.

وبعد الكُتَّاب لا بد أن نأتي لصحافتنا نفسها، فما كادت صحافتنا «تؤمَّم» أو تنظَّم عام ١٩٦١ حتى تحوَّلت دُور الصحف إلى دواوين حكومية. زمان كان المخبر الصحفي إذا جاء بخبر هام من وزارة كافأه رئيس التحرير أحيانًا بخمسمائة جنيه أيام كان الجنيه جنيهًا (هذه الواقعة فعلها الأستاذ محمد حسنين هيكل مع محرِّر شاب). زمان كانت الأقسام المختلفة تَجتمع وتقدح زناد تفكيرها وتَكتشف أهم الأحداث والوقائع التي تهمُّ الناس ويريدون القراءة عنها.

اليوم لم يَعُد شيء من هذا يحدث، اليوم يذهب محرر الحوادث إلى القسم ويتلقَّى من ضابط المباحث بعض القضايا الطريفة، وبهذه المناسبة أحبُّ أن أهمس في أذن أصدقائنا كبار ضباط الشرطة أنني من كثرة نشر أسمائهم في كل واقعة حتى لو كانت ضبط بائعة لبن تغشُّ اللبن وأن هذا تم بناءً على توجيه اللواء فلان وتكليف العميد فلان بعمل فرقة بحث بقيادة العقيد فلان والرائد فلان والملازم علان. ما هذا أيها السادة؟!

إن معظم الضبطيات التي تتمُّ تكون نتيجة لبلاغات يتلقاها البوليس من مواطن يعرف سر مواطن يُعاديه ويُبلِّغ عنه الشرطة، فما الداعي لكل هذه القوائم. إنها أيضًا هواية النشر والشهرة، وليس هذا بالشيء السيئ؛ فالنفس البشرية لها نَوازعها، ولكن أن

يكون نشر الأسماء وأسماء كبار الضباط على الفاضي والمليان فهو أمر لا أجد له نظيرًا في العالم كله، وأخشى ما أخشاه أن يُقلِّد العاملون في الإذاعة والتليفزيون هذا ويَذكُروا في عناوين برامجهم الطويلة بناءً على توجيه السيد الوزير صفوت الشريف والأستاذ حسين عنان رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون تكليف السيدة سامية صادق رئيسة التليفزيون واجتماع السيدة آمال مكاوي رئيس القناة الأولى مع السيدة مديحة كمال رئيسة القناة الثانية، ثم تكليف المُخرجة إنعام محمد علي بالاتفاق مع المؤلفة فتحية العسال وإدارة إنتاج يحيى العلمي وبتقديم جانيت فرج، يتمُّ تقديم برنامج خمسة سياحة الذي طول مقدمتِه شهر ومدته دقيقة ونصف.

صحافتنا فعلًا فقَدَت الهمة، بل ولم يَعُد بينها منافسة، والصحفي الذي يعمل فيها مثل الذي لا يعمل؛ يتقاضى مرتبه وعلاواته، والجريدة تصدر كل يوم وهي مليئة بالكلام المجموع المصفوف المرتب. ماذا تريدون إذن أكثر من هذا؟

أخبار الوزارات ترسلها الوزارات، وأخبار الاجتماعات يُرسلها المجتمعون، وأخبار الدولة يرسلها مجلس الوزراء، والتحقيقات الصحفية هامشية. وأحلم ذات يوم أن أقرأ تحقيقًا صحفيًّا عن: لماذا وكيف تخسر شركة المحلة ٤٥ مليون جنيه مع أن غزل القطن ونسجه وتصنيعه يدرُّ على تايلاند وحدها التي لا تزرع القطن وتستورده من الصين خمسمائة مليون دولار سنويًّا.

إنَّ الصحوة الكبرى التي نُنادي بها دائمًا، وبحَّ صوت الرئيس مبارك من المناداة بها، تبدأ في رأيي بصحوة جرائدنا ومجلاتنا، فهي وحدها التي تنظِّم إيقاع المجتمع وتبطئ به أو تسرع به أو تئوب به إلى سكون وركود والفتور الشديد وانعدام الحماس.

الموضوع لا يزال لم يُستكمل.

ولكن وصلتني هذا الصباح رسالة طريفة، واضح أن كاتبتها لا تزال وافدة «طازة» على مجتمعنا، واقرءوها معي، فهي فعلًا تستحق القراءة:

> **سيدي الفاضل!**
>
> لا أدري من أين ولا كيف أبدأ، فالكلمات تتزاحم وتتدافع وتريد أن تنقض كلها دفعة واحدة على الورق، لكنني أحاول ابتلاع غضبي قليلًا، أحاول أن أكبح جماح تيار اليأس المندفع بداخلي، اليأس من الإصلاح!

فأنا إنسانة لم ترَ سنوات الخمسينيات المضيئة بنُور الثورة، ولا سنوات الستينيات الذهبية المشرقة في كل مجالات العمل والإنتاج. رأيت فقط — أو لنَقُل وعَيتُ — سنوات الانفتاح العظيم وما تلاها، ثم جاءت الثمانينيات وأنا عطشى — كالكثيرين من أبناء جيلي المحروم — إلى أي بارقة أمل أو مشروع ثقة، كُنَّا مستعدين للثقة في إبليس نفسه إذا رأينا عليه بوادر الهداية، لكن — وآه من لكن هذه، دائمًا تكون متبوعة بخيبة أمل — لم نجد إلا سلسلة انهيارات تهون بجانبها كارثة انهيارات المباني والعمارات على رءوس مَن فيها؛ فهذه مجرد انهيارات مادية قد تُروِّعنا، ولكنها لا تُسلمنا إلى اليأس، أمَّا الانهيارات التي أعنيها فهي الانهيارات القاتلة التي لا تُبقي ولا تذر، انهيارات معنوية تترك الإنسان في حالة انعدامِ وَزْن، تتركه وقد تهيأ تمامًا وأصبح كالأرض المُمهَّدة لاستقبال بذور الحقد والكراهية والرفض للحياة نفسها وليس للأحياء فقط!

لا أعتذر عن هذه المقدمة الطويلة لأنها تجيب عن سؤال طالَما تردَّد كثيرًا في السنوات الأخيرة: لماذا يلجأ الشباب المثقَّف لعباءة التطرف الديني؟!

أو على الأقل: ما سرُّ حالة اللاانتماء الحادة التي تعدُّ من أهم سمات هذا الجيل (أقصد جيلي)؟!

والآن لنتحدَّث عن السبب الأساسي الذي حرك قلمي بهذه الفضفضة. لاحظ أنني أستخدم كلمة فضفضة تعبيرًا عن يأسي من قُدرتك على مساعدتي أو حتى مجرد الرد على صراخي، إذن أنا أعفيك من هذه وتلك.

كاتبة هذه السطور خريجة حديثة، تقدَّمتُ لأداء ما تصوَّرتُ أنه واجب وطني على خريجات الجامعة، أقصد برنامج الخدمة العامة الموازي للواجب الوطني المفروض على الفِتيان، ويشاء حظي أن يصادف ذلك إجراء التعداد العام للسكان والمنشآت والإسكان.

والحقيقة أنني سعدتُ بهذه المصادفة لأنني ضمنتُ أني سأُؤدي عملًا فعليًّا خلال هذه الفترة.

وبدأنا نَنتظم في الدورات التدريبية التي أُقيمت خصيصًا لتدريبنا على القيام بهذه المهمَّة وجاءت لحظة التوزيع، فكل مجموعة من الفتيات تقوم بالعمل في منطقة محدَّدة يُفترض أنها أقرب موقع عمل بالنسبة لسكن الفتاة لتوفير الأمن للفتاة من ناحية ولضمان تعاون أهالي المنطقة في الإدلاء بالبيانات الصحيحة من جهة أخرى.

وكل مجموعة من الفتيات يَعملْن تحت إشراف مُسجِّل، وكل مجموعة من المُسجِّلين يعملون تحت إشراف معاون، والمعاونون يتبعون مفتشًا، وهكذا في تسلسل هرمي حتى نصل إلى رئيس الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء.

وبعد أن تعرفت على المسجِّل الذي سوف أعمل تحت إشرافه وصحبنا إلى موقع العمل أنا وزميلاتي ليسلمنا المكان على الطبيعة، ويوضح لكل مِنَّا حدودها من حيث البداية والنهاية والمنازل الواقعة في نطاقهما، إذا بأحد المسئولين والذي يُعتبر إحدى الحلقات المتقدمة في ذلك التسلل الهرمي الذي ذكرتُه آنفًا يتدخَّل لإقصاء إحدانا عن هذه المنطقة لتستبدل بها أخرى موصى عليها (من فوق)، فهي شقيقة أحد المسئولين عن مشروع التعداد وترغب في العمل في هذه المنطقة دون سواها لتكون قريبة من صديقتها التي تعمل في منطقة أخرى مجاورة لنا.

والشيء المثير للسخرية والمرارة في نفس الوقت أن تلك التوصية صدرت عن أحد هؤلاء المتشدقين بحب مصر والمردِّدين دائمًا لعبارات مصلحة الوطن العليا، ومصر أوَّلًا ... إلى آخر هذه الكليشيهات المطبوعة على ألسنة بعضهم من كثرة ما ردَّدوها.

أعترف أن خطبه الحماسية انطلت علينا في بادئ الأمر، حتى أتى بهذا التصرُّف الذي هدم ما ظل يبنيه طوال أسبوعين في محاضرات نظرية، أوحى إلينا خلالها أن الأخلاق لا تتجزَّأ، فمَن يرغب في مجاملة الناس يجب أن يراعي أن تكون هذه المجاملة على حسابه هو وليس على حساب الوطن أو أي إنسان آخر. لقد قال كثيرًا وكثيرًا، لكن تصرُّف واحد نقض كل أقواله، ولأن الموصى عليها ليس لها أي حق في أن تحتلَّ مكان أيٍّ مِنَّا؛ حيث إنها لا تزال طالبة وتشترك في التعداد تحت بند الرغبات الشخصية، وحيث إن مكلَّفات الخدمة العامة لهن الأولوية في تلبية رغباتهن بالنسبة للتوزيع الجغرافي للعمل؛ فقد تمسَّكنا بالمنطقة التي استلمناها فعلًا وإزاء هذا الإصرار اضطروا للجوء لحلٍّ وسط وهو الإبقاء علينا مع ضم الموصى عليها إلى مجموعتنا، وبهذا يتم تقسيم عدد الشقق الذي من المفروض أن تنجزه مجموعتنا على خمس فتيات بدلًا من أربع، ولهذا انخفض نصيب كل مِنَّا من ٢٢٥ شقة في المتوسط إلى ١٨٥ شقة في المتوسط، هذا في الوقت الذي تعاني فيه مناطق أخرى من ندرة العدَّادين،

والتي كان من المفروض أن تغطي احتياجاتها من الذين يشتركون في التعداد برغبتهم الشخصية.

قد تقول لي: وما الضرر؟! لقد استفدتِ أنتِ وزميلاتك بتخفيف العبء عنكن، ولكَ أقول: لقد استفدنا أيضًا بالاصطدام بالوساطة والمحسوبية في أول خطوة لنا من حياتنا العملية، وما أعظمها من فائدة!

والسؤال الآن: لماذا أنتَ بالذات الذي أبعث إليك برسالتي هذه؟!

والإجابة هي: سلسلة المقالات التي تنشرها لك جريدة الأهرام والخاصة برحلتك إلى اليابان، والتي تؤكِّد فيها على أن البيروقراطية هي سبب تخلُّفنا وتأخرنا، ولكن أحيلك إلى كارثة التوصية، إلى الكوسة يا سيدي، فهي السبب ليس في تأخرنا فقط، ولكن في اهتزاز ثقتنا في أنفسنا، في افتقادنا للقدوة الحسنة، وأتصور أن دراسة طرق التخلص من هذه الآفة يجب أن تسبق دراسة النظم الإدارية في بلادنا ومحاولة إصلاحها.

فليس بالإدارة وحدها تَرتقي الأمم وتتقدم، ولكن بالإنسان، سواء كان مديرًا أم مُدارًا! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ماجدة منصور حسن

تعليق: هل وضعت هذه الرسالة يدَنا على خيبة الأمل التي تعتري الشباب والشابات وتدفعهم إلى التطرف وإحراق كل شيء؟

وداعًا أيها المجلس وإلى غير لقاء

مهما تكن الأسباب التي حدت بالرئيس حسني مبارك إلى حل مجلس الشعب (أو فلنُسَمِّه الاستفتاء حول حل مجلس الشعب؛ إذ النتيجة معروفة) مهما تكن الأسباب، فإن الفرحة التي عمت الناس جميعًا — إلا أعضاء المجلس بالطبع — لم تكن فرحة أناس مراهقين يُهلِّلون لأي تغيير مهما كان ذلك التغيير، وإنما هي في الحقيقة فرحة شعب ناضج قديم مجرب مُدرك تمامًا لماذا يفرح إذا فرح، ولماذا يَغضب إذا غضب. وبصرف النظر عن دستورية أو عدم دستورية المجلس المنحل، فما رأيت في حياتي مجلسًا أجمع الناس على عدم فاعليته مثل ذلك المجلس المنحل. مجلس تشكَّل كملابس المجاذيب في الحسين، أو كخبز الشحاذين (من كل بيت لقمة وطعم ولون ونوع) كان يحتوي معارضة وفيه تمثيل صوري لأحزاب، ولكن قانون انتخابه وهؤلاء الذين ركبوا موجة الحزب الوطني وبعض الأحزاب الأخرى ليكون لهم الحق في الترشيح جعله لا يُمثل أبدًا إمكانات شعبنا الوطنية والسياسية، إنما هو بقايا ورواسب الذين احترفوا الترشيح والانتخاب وبرعوا في أساليب التسلُّق والنفاق، منذ أيام هيئة التحرير إلى الحزب الوطني الديمقراطي، لا أحد (إلا القليل جِدًّا) يمثل مذهبًا أو اتجاهًا أو لديه برنامج ما لحل مشاكلنا أو إصلاح أمورنا، لا أحد يهمه إلا وضع شخصي متربع عليه وأحيانًا يتكسب منه ويصبح قريبًا من الوزراء والكبراء وذوي النفوذ، في الحقيقة مجموعة من البشر كنتُ أراهم في التليفزيون وأحاول قراءة تعبيرات وجوههم، وما تحويه أدمغتهم، فلا أجد في عين أيٍّ منهم بريقَ حماس أو قدرة على إعمال فكر، أو أملًا ولو ضئيلًا في تلك الوجوه المنطفئة التعبير أن تصنع لنا أو لبلادنا شيئًا، مُوافقون؟ ترتفع الأيدي كرايات الجيش المهزوم تُوافِق، وهي لا تعرف لماذا توافق إلا لأن الرأي أو القرار صادر من الحكومة. المعارضون، مجموعة قليلة محفوظة من الأيدي، تُكمِّم الأغلبيةُ أفواهها وتصرخ كالأطفال المتشنِّجين، وتدق الأرض بأقدامها

احتجاجًا على رأي مخالف يُقال، ولو كان هذا الرأي المخالف نفسه أكثر خدمةً لمصالح الشعب أو الحكومة، ولكن لأنَّ قائله مدموغ بأنه معارض أو من الجنس المنبوذ، فلا بد من إسكاته وكتم أنفاسه، والتشويش عليه حتى يخمد رأيه. كنتُ أرى هذا، ويراه غيري، فأقول لنفسي: يا ربي، ما فائدة هذا المجلس وما فائدة هؤلاء الناس؟ ولماذا تلك الميزانية الضخمة تُنفَق على «شكل» ديمقراطي لا معنى له ولا مضمون بالمرة إلا أن يُقال إن عندنا أحزابًا وعندنا مجالس وعندنا حرية رأي، بينما ما عندنا ليس إلا «ترحيلة» و«أنفار» جيء بهم ليحتلُّوا الساحة، ويُخلوها من أي فكر أو نبض أو جهد صادق في سبيل مناقشة أمورنا ومشاكلنا والخروج بحلول حقيقية ممحصة، تُفيدنا وتفيد أولادنا من بعدنا.

إنه في الحقيقة لم يكن مجلسًا، ولكنه كان «طبقة» احتلَّت كراسي الحكم والتمثيل النيابي ومجالس المدن والقرى واللجان والمراكز الحساسة، احتلَّتها منذ زمن بعيد، وتلوَّنت وتشكَّلت مع كل تغيير في الرئاسة والقيادة يَحدُث، ولا تزال تحتل الساحة، بعيون لا تعرف الخجل، وبفَتْوَنة محترفي الشجار وإطفاء الأنوار وفض الموالد.

وأكثر ما آسف له أني لم أقل هذه الكلمات التي تعبر عن رأيي الحقيقي، وهذا المجلس قائم وموجود، كنت مستعدًّا أن أقولها لقوم يَعقلون، ولأناس يعرفون ويُقدِّرون حكمة الرأي وحرية إبدائه. أمَّا هؤلاء فلم يكن ممكنًا، بل كان مستحيلًا تمامًا أن تقول لهم الرأي الصادق، خاصةً لو كان رأيًا فيهم هم شخصيًّا. إنك حينئذٍ لن تقابل بالآراء الأخرى أو بالردود المكتوبة أو المقالة، ولكنك ستقابل بالهراوات، والاتهامات.

مرحبًا إذن بقرار حل هذا المجلس.

ولكن هذا ليس كل شيء؛ فنحن لا نريد أن نحلَّ مجلسًا لنأتي بنفس أعضائه، متنكِّرين أو بنفس أرديتهم. لا نريد أن نهزَّ رُوح الأمة بقرار إجراء الانتخابات ليتمخَّض الأمر عن عودة «ريما لعادتها القديمة».

بصراحة!

لا نُريدها مجرد انتخابات تُجرى لإحلال وضع دستوري محل وضع غير دستوري.

ولكننا نريدها انتخابات لتحقيق الهبَّة التي نادى بها الرئيس مبارك، وتحقيق الصحوة والانفجارة السلمية البانية التي نادَينا ونُنادي بتحقيقها. نريدها انتخابات تُوقظنا ونستيقظ بها، تردُّ لنا الروح، ونرد بها الروح لبلادنا وحياتنا ومجريات أمورنا. نريد وجوهًا غير الوجوه، وأيدٍ قوية، تؤيد بقوة إذا أيدت وتُعارض بقوة إذا عارضت.

لا نريدها «ترحيلة» تأييد وتشويش على الرأي الآخر، وإنما مجلس عقلاء — سواء أكانوا مؤيدين أم معارضين — يَعتبر كلٌّ منهم أن الآخر أو الآخرين لا يقلُّون حبًّا لنا ولبلادنا ولمصلحتنا عنه، إذا استمع إلى الرأي يجيد استماعه، وإذا عُرضت المشكلة ينكبُّ عليها دراسةً وتحليلًا ووصولًا إلى رأيه واجتهاده الخاص في حلها.

مجلس يليق بمصر ٨٧، فمنذ مائة عام وأكثر كانت مجالسنا النيابية والتشريعية وحتى الاستشارية أكثر قوةً وفاعليةً ونُضجًا من تلك المجالس التي مللنا وجودها منذ أول مجالس ما قبل وبعد عام ١٩٥٢ إلى الآن. مجلس يفخر المصريون بأنه مجلسهم وقيادتهم الجماعية الحقيقية.

ويفخر هو — هذا المجلس — أنه مجلس مصر الداخلة على القرن الواحد والعشرين، مصر القادرة على أن تُصبح ديمقراطيتها نموذجًا للديمقراطية في العالم الثالث كله، القادِرة على إفراز العلماء والمفكِّرين والقادة والنواب الذين لا يقلُّون كفاءةً ورجاحةً وثقةً بالنفس عن نظائرهم في دول العالم الأوَّل.

إنَّ أكثر ما يُميِّز الرئيس حسني مبارك هو حساسيته لما يعتمل في قلب الناس، وما يدور وراء أقنعة ابتساماتهم، وحتى سكوتهم إن سكتوا. وذلك الاجتماع الذي عقده معنا الرئيس محمد حسني مبارك عقب زيارته لمعرض الكِتاب كان حريًّا أن يتحوَّل إلى مؤتمر مصغَّر للمثقفين والكُتَّاب يفتح لهم الرئيس قلبه ويفتحون له قلوبهم. وأعتقد أن الرئيس حرص في العام الماضي، وفي هذا العام أيضًا، على تقليد الاجتماع بالكُتَّاب والمثقفين في عيد الكِتاب لهذا المعنى. ولكن القلوب، قلب الرئيس وقلوبنا، ما كادت تتفتَّح حتى انبرى أصحاب الأصوات العالية الغليظة يُدافعون عن الرئيس وسياسته، وكأنه معاذ الله موضع مساءلة، في حين أن الحديث كان موضع استفسار ومناقشة، علَت أصواتهم وصخبُهم تُثبت للرئيس أنهم هم وهم وحدهم الذين يتبنَّون سياسته ويؤمنون بها ومستعدُّون للاستشهاد في سبيلها، في حين أنهم في رأيي ليسوا سوى «كذابي زفة»، وأن أولئك الذين يُريدون مناقشة الرئيس وفتحوا قلوبهم له ومعرفة ما في قلبه هم أولئك المقاتلون المخلصون الذين — عندما يجدُّ الجدُّ — هم الذين سيقفون يدافعون بصدورهم وأرواحهم عن ذلك الحاكم المصري المتواضع في غير تكبر، الديمقراطي بحكم التكوين، الهاوي لرفع الشعارات ثم الضرب تحت الحزام في الظلام.

أجل.

مرحبًا بقرار حل ذلك المجلس.

ويا شعبنا العظيم، ها قد جاءت الفرصة وانتَخِبوا مجلسًا يليق بنا وبكم، فإن التفريط في صوت أيٍّ منكم، وأداء الانتخاب وأنتم منومون بالقرابة والمحسوبية والكلام المعسول، هو في رأيي خيانة.

فليَعتبِر كلُّ مَن ينتخب مَن لا يؤمن بأحقيته لتمثيل الشعب المصري كله أنه قد خان الأمانة، أو بمعنًى أدق خان مصر، مصر التي لا بد أن ترفع عن كاهلها الكآبة والفتور وفقدان الهمة واليأس التي استشرت في الفترة الأخيرة، وتتطلَّع إلى مستقبل سريع توجده وتخلفه وتحتلُّ به مكانتها الجديرة بها.

المستورد الخفي

تابعتُ بذهول حكاية الألبان المجفَّفة الحاملة لكمٍّ من الإشعاع القاتل. وأعترف أن متابعتي للموضوع جعلتني أعتقد أن حياتنا لا يُمكن أن تمضي هكذا أبدًا، وأننا وصلنا إلى نقطة ما بعد الخطر.

ودعونا من الحديث عن تلوث جو مصر — والقاهرة على وجه الخصوص — بحيث أن تلوُّثَها أصبح يعادل عشرة أضعاف الحد المسموح به للتلوث في أي مدينة أو مجتمع بشري. لا أذكر الرقم على وجه الدقة، ولكن ما أعرفه أن التلوث في أجواء القاهرة هو أعلى معدَّل للتلوث في العالم.

دعونا من هذا.

ودعونا من التلوث الضجيجي الذي تَحفل به مدننا وقرانا، صباحًا ومساءً، وفجرًا وليلًا، وفي كل وقت.

دعونا أيضًا من هذا، فليس ذلك هو موضوعنا هذه المرة.

فنحن نعرف كل تلك الحقائق المرعبة عن الظروف غير الملائمة للحياة التي يعيش فيها الإنسان المصري.

ومع هذا فنحن صابرون، في انتظار الجنة؛ فالجنة — هكذا قال الله سبحانه — للصابرين.

ولكن حكاية اللبن المُشع تلك قصة لا يَدري الإنسان أيموت ضحكًا منها أم يموت كمدًا، فهي قصة — كما يقولون — لها العجب.

إنها جريمة، قصة جريمة عادية من الجرائم الكثيرة التي يرتكبها المجرمون الساعون إلى الربح ولو على حساب حياة البشر، شركة ألمانية مجرمة، أنتجت كمية هائلة من الألبان، حين فحصتها وزارة الصحة الألمانية وجدت أن نسبة الإشعاع بها أضعاف أضعاف النسبة القاتلة للإنسان، سواء كان طفلًا أو رجلًا، وهكذا أَمَرَتها الحكومة الألمانية بالتخلُّص من تلك الألبان، ولو كانت آلاف الآلاف من الأطنان. ودخلت الشركة في مفاوضات مع الشركات الأمريكية (أو اللجان الحكومية، لا أعرف بالضبط) التي تخصَّصت في دفن النفايات الذرية والتخلُّص منها، لتتخلَّص من ذلك اللبن القاتل، ولكن السلطات الأمريكية رفضت أن تقوم بالعمل، لكثافة الإشعاع، ولم يبقَ أمام الشركة الألمانية إلا أن تقوم بإعدام الألبان بنفسها، وإعدام تلك الكمية الهائلة وبطريقة لا يتم بها إعدامها فقط ولكن أيضًا التخلُّص من الإشعاعات الذرية الكامنة فيها، عمل مكلف جِدًّا، وهكذا فكر عقل مجرم شرير في تلك الشركة الألمانية في أن لا يتخلَّص من تكاليف ومجهودات إعدام الألبان فقط، ولكن أن يبيع تلك الألبان نفسها، ويحول الخسائر المتوقعة إلى ربح رهيب باهظ.

وهكذا أطلق سماسرته في دول العالم الثالث؛ لأنه يعرف أن تلك الدول لا تُدقِّق كثيرًا في فحص وارداتها الغذائية وبالأخص لا تُدقق كثيرًا في المحتوى الإشعاعي لتلك الأغذية ومقاديرها.

وهكذا التقى هذا السمسار بمُستورِد مصري، مجرم هو الآخر، واتفقا على الصفقة، يشتريها المصري منها ويبيعها بأي سعر، أو حتى بإبعادها عن ألمانيا بلا سعر ولا تكلفة إعدام.

ووصلت الشِّحنة الأولى التي احتوت على ستة وعشرين ألف صندوق على مركب شحن إلى مياه الإسكندرية، وجرت، أو كانت جارية عملية الإنزال إلى الشاطئ تمهيدًا لتمريرها من الجمرك وبيعها في الأسواق بنفس السعر الذي تُباع به الألبان السليمة. وكان كل شيء جاريًا في صمت وعلى أتم ما يكون من السرية والتوفيق، إلى أن حدث ما لم يكن أحد — لا الشركة الألمانية ولا المستورد المصري — يتوقعه. وأعلن رئيس وزراء المقاطعة الألمانية عن الصفقة الإجرامية، بل وحدَّد الجهة التي أُرسلت إليها الشِّحنة القاتلة، ميناء الإسكندرية بالذات.

وكانت صحافتنا حسَنةَ النية تمامًا، فنشرت تصريح رئيس الوزراء وخبر وصول الشحنة، وخبر إنزال محتوياتها.

وغضب الرأي العام، وانصبَّ غضبه على سؤال واحد: من هو المستورد المصري الذي ارتكب هذه الجناية العظمى في حق مصر وأطفالها وآدميِّيها. إلى هذا الحد كانت الأجهزة المصرية صامتة صمت القبور، وكأنها هي الأخرى في انتظار إعلان اسم المستورد ليتمَّ القبض عليه وعقابه، ولكني فوجئت كما فوجئ الناس جميعًا في مصر بالأجهزة المصرية وقد بدأت تتحرك.

بيان لمجلس الوزراء أن مصر لا يوجد بها أي لبنٍ مُشعٍّ وأن لا صحة لما نشَرَته الجرائد.

بيان من وزير الصحة يؤكِّد أن جميع الأغذية المستورَدة ومنها الألبان تخضع لفحص ميكروبيلوجي وكيميائي وإشعاعي دقيق، وأنه لا صحة لما قاله رئيس وزراء ألمانيا ونشرَتْه الصحف المصرية بحسن نية أو على الأصح (بسذاجة وغفلة).

وأنا أعرف الدكتور محمد راغب دويدار وزير الصحة، وأعرف أنه كان من أكفأ أطباء الوزارة الذين عركوا جميع مناصبها ومستويات تلك المناصب إلى أن أصبح بكفاءته وتفانيه في عمله وزيرًا للصحة، وهو ربما أول وزير صحة يأتي من قلب أطباء وزارة الصحة أنفسهم وليس من خارجها كما جرت العادة.

بل وأعرف أنه لا يُعدُّ مسئولًا أبدًا عن تسرب أي غذاء فاسد أو مُشع، وإنما المسئول هو جهاز يخضع لإشرافه؛ إذ هو لا يذهب بنفسه إلى الموانئ التي تَرِدُ إليها الأغذية ليفحصها.

وأعرف أن مجلس الوزراء لا علاقة مباشرةً له بإجراءات فحص الأغذية، إنما علاقته بها علاقة سيادية أو إشراف سياسي.

ولذلك كان صدور تلك البلاغات التي تُكذِّب رئيس وزراء ألمانيا الذي «تجرأ» وأعلن عن فساد ألبان ألمانية وحذر منها، أي فضَح هو بلاده وشركاتها، وكأنه هو المُجرم الحقيقي أو هو الكذاب الذي يَفتري على شركات بلاده ويتهمها بالغش والإجرام.

وحينما نقرأ أن الشِّحنة لا تزال في المركب خارج رصيف ميناء الإسكندرية، وأن ما هبط عينات للفحص ليس إلا، وحينما أقرأ أن السلطات أمرت بإرجاع السفينة من حيث أتت، أقرأ أشياء متناقضة تمامًا، من نفْي قاطع أن لبنًا مشعًّا أو فاسدًا قد استورد إلى مصر، إلى تأكيد أن الشحنة جاءت وفرَغت وكانت في سبيلها إلى السوق وإلى المستهلك، وحينًا أقرأ أن الباخرة مَحجوزة بعيدًا عن الرصيف، وحينًا أقرأ أنها أُعيدت.

ولكنني أبدًا أبدًا لم أقرأ شيئًا لا عن مجلس الوزراء، ولا عن النائب العام ولا عن أي جهة قضائية أو حجر صحِّي أو إدارة صادرات أو واردات عن اسم ذلك الجني الغريب

الذي تعاقَد وشحن وجلب اللبن المُشع القاتل، ولا يَجرؤ أحد على إعلان اسمه، بل بدلًا من هذا يقومون نيابةً عنه بنفْي التُّهمة الكلية، وإبرائه من تهمة إدخال مواد قاتلة على هيئة غذاء للأطفال كانت العلبة الواحدة منه كفيلة على الأقل بقتل طفل، أي تهمة الشروع في قتل ٢٦ ألف طفل مصري بريء بسبق إصرار ووعي وترصد.

وأغلب ظني أني لن أقرأ اسم هذا المستورد ما دام مجلس الوزراء — بجلالة قدره — قد برأه، وأنكر وجوده، وأنكر أصلًا وجود جسم الجريمة، وكأن جريمة كبرى لم تكن قد تمَّت أركانها جميعًا بحيث إن أقل عقاب لُمرتكبها كان لا بد أن يكون السجن المؤبد إن لم يكن الإعدام.

أجل، أيها القراء الأعزاء.

إنَّ الذي قام بهذه الجريمة مصري عنده طاقية إخفاء باتعة الأثر، بحيث قام بكل ما قام به أمام سمع وبصر مجلس الوزراء وجميع أجهزة الدولة دون أن يَراه أو يعرفه أو يسمع عنه أحد.

هل تفعلون مثلي وتموتون من الضحك.

أم تموتون كمدًا.

اختاروا أيًّا من الطريقتين، فكلتاهما أهون بكثير من الموت بالإشعاع السرطاني، وفي كل الحالات ستموتون دون أن تَعرفوا أبدًا اسم ذلك المجرم القاتل الذي لا يُريد أحد أن يُفصِح عن اسمه.

إني أتحدَّى أجهزة الدولة بكافة مستوياتها أن تعلن اسمه وصفته؛ إذ يبدو أنه أقوى كثيرًا من أجهزة الدولة.

ثلاث قصص جديدة أقدمها وأعتز بها

كاتبة جديدة وامرأة جديدة

لا زلت أذكر تلك الليلة، كنتُ في زيارة للصديقة نوال السعداوي وزوجها الدكتور شريف حتاتة، وهما في غِنًى عن التعريف؛ فنوال كاتبة مفكرة ثائرة قصاصة ككتلة مُلتهبة من الشمس، انفصلت واستقرَّت على الأرض ولا تزال شمسية مُلتهبة، لم تَبرُد بعد، ولا أعتقد أنها ستَبرد. وشريف حتاتة قضى نصف حياته مَسجونًا سياسيًّا ودرس الطب بنبوغ ولم يُزاوله، والآن أصبح من الروائيين الجدد والمعدودين في مصر.

كنتُ في زيارة لهما وعرَّفاني بابنهما وابنة نوال «منى» صاحبة القصة التي اخترتُها هذه المرة. من أول لحظة أحسست أن هذه الفتاة التي لا تتكلَّم إلا نادرًا فيها شيء خفي ما؛ ولهذا لم أفاجأ أبدًا حين ذكرَت لي نوال أن منى تكتب قصصًا. بيت من الكُتَّاب، يا له من بيت!

المهم قرأتُ لها القصة، وفي الحال أحسستُ أنها كاتبة، وستكون، بل أيضًا أحسستُ نوع كتابتها. إنه نساجة «كانافاه» من الأحاسيس الدقيقة التي تصدر عن نفس ناعمة جِدًّا، متمردة جِدًّا، طبيعية تمامًا وغير طبيعية بالمرة.

وإذا لم تكن هذه صفات أو بعض صفات الفنان، فماذا تكون؟

شيء واحد فقط دفعني كي لا أندفع في التفاؤل، مخافة أن تكون القصة التي قرأتها هي أول وآخر قطفة من قرص العسل.

ولكن، يا لفرحتي! إن ظني خاب؛ فقد راحت منى تكتب وتنشر، وأرسلت لي منذ أيام مجموعة كاملة من قصصها استعدادًا لإصدار كتاب.

وقرأت المجموعة.

صحيح أن الدائرة القصصية دائمًا تدور حول منى، منى الشابة الإنسانة، الأنثى غير الراضية عن كل شيء، ولكنها تفعل هذا بفنية وبعمق، وبحكمة تتجاوَز سنها وذاتيتها. وليس هذا غريبًا على كاتبة شابة تقول على لسان إحدى بطلاتها (وبطلاتها دائمًا فيهنَّ شبه كبير منها) تقول:

> وأخذت أستعيد علاقتي بقلمي، تلك العلاقة التي لا أتذكر بدايتها، كل ما أعرف أني أكتب منذ إدراكي أنني أشغل حيِّزًا في الفراغ، منذ رغبتي ألا يظل فراغًا. أكتب منذ تساءل عقلي في عالم يُثرثر ولا يجيب، أكتب منذ أن ارتعشت عواطفي بحثًا عن بعض الشمس، أكتب منذ اكتشافي أنني امرأة في مجتمع يُحركه الرجال، علاقتي بقلمي حميمة تتجاوز إحساسي بالراحة، تتجاوز فرصة مصادقة اللغة وفرصة إظهار تجدد الأفكار. علاقتي بقلمي كعلاقتي بملامحي وأعضاء جسمي، علاقة نفسية وعضوية، أحملها داخلي، أتنفس بها، أتحرك خلالها، أحلم معها، أغضب من أجلها وأهدأ فيها.

اقرءوا معي إذًا هذه القصة لمنى حلمي. والجديد فيها أنها قصة قد تبدو من الخارج ذاتية، ولكن المُمعن فيها يصل إلى مياهٍ أعمق بكثير، إلى إحساس جديد، لامرأة جديدة، حتى لو كانت كاتبة قصة جديدة.

د. يوسف إدريس

الدائرة الذهبية

بقلم منى حلمي

حينما كانت أصابع يدي خالية من الدوائر الذهبية، كان يَزورني في مكان عملي. يجلس مواجهًا لمكتبي مأخوذًا بمكانتي بين الزملاء والزميلات.

بدقتي في مراجعة الأوراق، ويَندهِش لتلك الأهمية التي تكتسبها فور توقيعي عليها. يقول وهو يَشرب القهوة: «تُعجبني المرأة العاملة ذات الوضع المتميز.» وأتذكَّر مرةً جاءني بعد خلاف وقع بيني وبين رئيستي في العمل، فإذا به يُشجِّعني على التمسُّك بموقفي. وحين أكدت له أنني لن أتراجع، حتى لو اضطررت للاستقالة قال: «أحترم المرأة التي تدافع عن رأيها الحر.»

كُنَّا نلتقي مرتين كل أسبوع، وفي إحدى المرات اتصل تليفونيًّا يسألني تغيير الموعد بسبب ظرف طارئ واقترح يوم الأربعاء. قلت: «أُقدِّر ما حدث، لكنني أخصص يوم الأربعاء للجري والسباحة، لا أستطيع تأجيل رياضتي، هل تقبل أنت الآخر اعتذاري؟» بعد لحظةِ صمتٍ رد قائلًا: «أقدر وأفهم جَيِّدًا. تُعجبني المرأة التي تمارس الرياضة، الآن عرفتُ سرَّ رشاقتك ونضارة وجهك.»

وقبل استقرار الدائرة الذهبية الحاملة اسمه في يدي اليمنى بأسبوع واحد، رآني في الطريق مع آخر. عرفته به قائلةً: «هذا فلان صديقي كُنَّا في ندوة أدبية نُناقش قصتي الأخيرة. والآن نحن ذاهبان إلى نادي السينما، لمَ لا تشاركنا إذا رغبت؟»

في اليوم التالي قال وهو يحتضن يدي: «أحسدك على هذا التنوع الخصب في حياتك. تعجبني المرأة التي تفصل بين الحب والصداقة، المثقَّفة، تُعجبني المرأة الفنانة.» سعدت به وقلت: «منذ زمن أبحث عن رجل مثلك.» سألني: «هل تزوجينني؟» قلت: «أتزوجك.»

وفي مثل هذه الليلة بالتحديد، انتقلت الدائرة الذهبية الحاملة اسمه إلى يدي اليسرى. عام مضى، ليس وقتًا طويلًا، لكنه كان كافيًا لإطفاء لمعانِ الدائرة المحاصِرة مِعصَمي.

جاء الرجل المأذون في أحوال الناس الشخصية بدفتر كبير وعينين منزعجتَين من أبغض الحلال عند الله. قال بنبرة امتزج فيها السعال بالدهشة والشفقة وإن تفوَّقت نسبة السعال: «أعوذ بالله من غضب الله! ليه بس الطلاق؟ الستر كويس يا ناس!»

فعلًا، له حق، ليه الطلاق؟ أحببته واخترته من دون كل البشر. من أجله فعلت ما كنت أعتقد أنه مستحيل، من أجله لم أصدِّق أمي لأول مرة في عمري. قالت حينما قررت الزواج منه: «أنتِ دائمًا حرة، لكنني لا أرتاح لعينيه.» واستلزم الأمر عامًا لأعرف لون عينيه الحقيقي.

فعلًا، ليه الطلاق؟ وقد عشنا وقتًا طويلًا معًا قبل تنقلات الدائرة الذهبية. لم يمضِ إلا عام. وها أنا بالرغبة نفسها والإصرار نفسه أطلب من الرجل نفسه إبطال مفعول الدائرة الذهبية. قال زوجي للمأذون: «أكَّدت لها مرارًا يا سيدنا الشيخ أنها لا تستطيع فك الارتباط.» يردُّ المأذون بنبرة سعال صافية: «يا سيدي المهم الزوج، أي أنت، هل تريد الانفصال؟» بنظرة موجهة إلى شرودي يردُّ زوجي: «وهل أنا مجنون؟ أنا لم أشعر بعد أنني تزوجتُها.»

أفيق من شرودي على صوت المأذون الغليظ، المُمتزج هذه المرة بنسبة أقل من السعال ونسبة كبيرة من القسوة: «يا ستي لا يُمكن أن يُطلِّقَك لمجرد عدم رغبتك في البقاء زوجته.» قلت: «إنك لا تفهم الأمر. أنا لا أريده أن يُطلقني، بل أنا التي تريد أن تُطلِّقه!» بنبرة خالية من السعال، من الشفقة ومن القسوة، مُمتلئة فقط باندهاش غاضب ومُستاء، يرد ناظرًا إلى زوجي: «مزاح هذا أم ماذا؟ رغبتُكِ ليست كافية، ليست قانونية. وقبل أن تُتعبونا معاكم يا ناس ادرسوا القانون كويس، سلام عليكم.» نهض واقفًا، أسند استياءه على الدفتر تحت إبطه ورحل مرسلًا نظرة ساخرة إلى زوجي.

يجلس على المقعد باسترخاء ويقول لي: «لا تحاولي، ستبقين زوجتي.» داخلي انفجار لا يَنفجِر، في عيني دموع تأبى السقوط. شيء ما في أعماقي أنهى الأمر ويُريدني أنا الأخرى إنهاءه.

ووجدتني أنتفض فجأة. تذكَّرتُ شيئًا كان على المأذون معرفته. نسيتُ أن أقول له: «إنني أعيش مع غريب، رجل آخر غير الذي رآه معي منذ عام.» الكلمة تُدهشني، تؤلمني. أستعيد الماضي فتقل الدهشة ويزداد الألم.

بدأت الغربة بنوعٍ من التلميح المغلَّف ببعض الحياء، ثم انتهَت بالسفور غير المبالي بأبسط الأشياء. سألني: «لمَ تعمَلين؟ أنا لا أحتاج إلى عملك، إيرادي يَكفي ويفيض.» أصابني ذهول، فهو يتكلَّم وكأن عملي فقط من أجل الاحتياج المادي. وحتى لو أنني لا أحتاج مرتَّبي كيف يتخيَّل أنني أقبل أن يُطعمني أحد. والأغرب أنه وكأن عملي شيء خاص به، وبالتالي يُمكن أن يقع في نطاق ما يحتاجه وما لا يحتاجه!

ويوم الأربعاء، اليوم في الأسبوع الذي يُجدِّد حيويتي، أصبح موعدًا منتظمًا للشجار. يسألني بمنطق يُعكِّر نضارة وجهي: «لماذا أمارس الرياضة، لمن أحافظ على رشاقتي طالَما حصلتُ على الضمان (يعني زواجنا)، مع مَن أمارس السباحة وأشرب الشاي بعد الجري؟!»

ويمتد الحصار ويكتمل ذهولي حين يرتفع صوته بعد كل مرة تُنشَر لي قصة أو مقال أو قصيدة. يقضي طول الليل في مناقشةٍ لا يُوقفها إلا إصابته بالإرهاق أو زوال صوته أو سماع أذان الفجر الذي يحرص على صلاته حاضرًا. تُعذِّبه التساؤلات: مَنْ يا تُرى إلهامي، أهي تجربة خاصة، هل عشتها قبل معرفته، بعد معرفته أم أعيشها الآن، لمن تلك المشاعر المتوهجة في القصيدة؟

لم يَعُد يفهم صداقتي بزملائي الفنانين من الرجال، بل لم يَعُد يتقبَّلها. بعد كل تليفون من زميل، بعد كل لقاء مع صديق في ندوة أدبية أو في نادي السينما، يتساءل باندهاش يدهشني: «لماذا تُصادقين رجلًا وأنا موجود؟» وعرفت ويا لقسوة المعرفة أحيانًا، عرفت أنه لا يتصور صداقة بين المرأة والرجل إلا لأربعة دوافع محدَّدة. إمَّا للتخطيط للزواج، للتسلية، أو فرصة لبيع الجسد، أو قتل ملل الزواج. بالطبع أستبعد الدافع الأوَّل، لأنني لا أستطيع ممارسة تعدد الأزواج. وظلَّت الدوافع الثلاثة الأخرى تُحاصرني بالشكوك. والأخطر من هذا أنه يُحاول إقناعي بأن كلًّا من الرجل والمرأة لا يُمكِن أن يجتمعا إلا على المستوى البيولوجي.

دافعت عن نفسي المُتهَمة، دافعت عن قناعات عقلي. أدافع دون سلاح، دون اقتناع أنني حقيقة في هذا الموقف. وحين امتدَّت جرأته إلى السؤال لماذا أنا هكذا، لماذا أصلًا أكتب، لماذا لا أطيع؟ عرفتُ أنني رغمًا عني استُدرجتُ إلى معركة، تُجبرني على التسلُّح.

ما زال جالسًا أمامي مُشعلًا سيجارة كرهتُ رائحتها، تُصيبني بغثيان ودُوار لكنني لا أتهاوى.

تماسكتُ، فكرتُ، تذكرت شيئًا، أشياء، قررت.

نزعت الدائرة الذهبية، رفع رأسه باندهاش، ألقيتُها في منفضة السجائر. دهشته تتحول إلى ملامح غاضبة. التقطتُ حقيبتي واتجهتُ نحو الباب قائلةً: «ليس كافيًا وليس قانونيًّا أنني لا أريدك أليس كذلك؟ بالنسبة إلى قانوني أنا، فالأمر كافٍ.» لم أنتظر تحوُّل غضبه إلى أمر آخر وأسرعتُ بالنزول.

على الطريق الممتد مع النيل، تمضي بي سيارتي الصغيرة. إحساسي أفتقده منذ زمن يداعبني. أعرف أنني أنهيتُ الأمر. أعرف أنني لن أتردَّد كعادتي أحيانًا بعد الاستقرار على قرار، وأنها الليلة الأخيرة في بقائي زوجته وفقًا لقانوني الخاص في الأحوال الشخصية.

وأعرف أنني أمتلك هذه السيارة الصغيرة، وأمتلك الشقة التي نسكن فيها، وأمتلك دخلًا معقولًا، وأمتلك رصيدًا كبيرًا في البنك، وأمتلك قطعة أرض في الريف، وأمتلك سُمعة أدبية مميَّزة. لكني لا أعرف هل في هذا الزمن يكفي امتلاك الإنسان للأشياء ليمتلك حريته؟! هل هو أمر متعمد. زمن يُسهِّل علينا امتلاك الأشياء، ليُعوِّض بها عجزه عن ضمان امتلاكنا لحريتنا؟

لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة الآن، بيت أسرتي، بيت أخي، بيت أختي. غرفة مفردة في أحد الفنادق. أم أستمر في القيادة حتى أصل إلى بيت الأسرة في الريف وأظل هناك فترة.

لا أعرف لماذا وكيف تغيَّر بهذا الشكلِ المخيف، المُضرِّ له. لا أعرف كيف؟

لا أعرف إن كانت فكرتي عن المشاعر والزواج قد تأثَّرت، لا أعرف إن كنت سأثق برجل آخر بعد ذلك، لا أعرف لو كان العام الماضي شيئًا آخر غير الحب، لا أعرف أشياء كثيرة تداخَلَت داخلي في لحظة واحدة.

لكنني على الأقل أعرف شيئَين بمُنتهى الدقة والتأكد:

أعرف أنه بالرغم من تبعثُر وفوضى أفكاري ومحاولتها البحث عن ترتيب، إلا أن مبادئي ما زالت مرتبة، لم تَفقد مكانها. والشيء الآخر الذي أعرفه بل وألمسه، أن أصابعي عادت — كعادتها — خالية من الدوائر الذهبية.

القصة من وراء حجاب

منذ بضع سنوات بدأت مجموعات قصصية ترد إليَّ من الجزيرة العربية ومن دول الخليج. صحيح أن معظمها لكُتَّاب رجال، ولكن الكثير منها أيضًا كان لكاتبات. وهذا هو المدهش حقًّا؛ فالمرأة العربية في دول الخليج والجزيرة تكاد تكون معزولة عن الحياة العامة؛ فكثير منهن يعملن طبيبات ومدرسات وموظفات بنوك (البنوك المخصَّصة للنساء) ولكن وجودهن ككيان مستقل، وكقوة سياسية أو اجتماعية يكاد يكون على هامش الحياة العامة تمامًا.

ولكن المرأة هناك كائن حي مثقف مطَّلع يموج بكل ما تموج به النفس البشرية من أهواء وطموحات، غير أن أهواء وطموحات ذات سقف منخفض تمامًا لا يُسمح لها باختراقه. ومن أجل هذا وضعت المرأة همها في الكتابة، ففيها تتنفَّس، وبها تقول، الكتابة شعرًا أو نثرًا، وإن كانت القصة تحظى بالنصيب الأكبر.

وعكفتُ ذات يوم قريب على تلك المجموعات القصصية النسائية أدرسها، ليست دراسة قارئ عابر ولكن دراسة متفحِّص، يعرف، أو يزعم أنه يعرف القوة الضاغطة التي أخرجت الكلمة من قاع النفس إلى الورق.

وبعدما انتهيت من عدة مجاميع اكتشفتُ أني لم أكن أقرأ قصصًا بالمعنى المفهوم لكلمة القصة، حتى بالمعنى الحديث لها، ولكني كنت أقرأ شيئًا أو نوعًا آخر من الكتابة لا هو بالقصة ولا هو بالقصيدة، لا هو حكاية ولا هو خواطر متناثرة. نوع جديد وغريب من الكتابة ابتكرته المرأة العربية القابعة بعيدًا عن مجريات الأمور لـ «تفعل» به شيئًا يؤكِّد لها أنها كائن حي، لإنسان له قُدرة الانفعال والفعل. فعل كتابي يَخرج تحت ضغط محموم، وهذا الضغط القاهر المحموم يتدخل في تشكيله إلى حدٍّ أن يبدو للقارئ وكأنه

لغز، فهي تريد أن تقول ولا تريد أن تقول، تريد أن تُعبِّر ولا تريد أن يُدرك تعبيرها، أكاد أقول سرَّها، أحد.

وهكذا وجدتُ نفسي أضع اسمًا لهذا النوع من الكتابات النسائية الجزيرية والخليجية: القصة من خلف حجاب.

فلنقرأ معًا هذه القصة للكاتبة السعودية «رقية محمود الشبيب»، ويُهمنا جِدًّا أن أعرف رأي كُتَّاب القصة ونُقَّادها وحتى قُرَّاءها فيما ذكرت. فلعلي أخطأت التشخيص، والعصمة لله وحده.

د. يوسف إدريس

من ليالي شهرزاد

رقية محمود الشبيب

الأولى

يُدخل يدَه في أنفه في عملية تقعُّر داخلي لعقله الباطن. يتذبذب الشوق في عينيه، يتذكر، «هذه ليلتي» تُثرثر شهرزاد، حكاياها صفراء، لم يقصر الليل كما تعود، يَتململ شهريار، يتسرَّب الوسن إلى جفنَيه، أحمل زخمًا من المشاعر، لك وحدك. لم يَضِع العمر على أرصفة الانتظار كما يتوهَّم — هو — ويتوهمون.

هناك بقية

ما برحت تبحث عن نواجع الطُّرُق للإقناع، لكن ... الفشل ... تسكنها الحيرة، أسراب الأماني لم تَزُرها منذ خلفته بين الـ «نعم» والـ «لا».

البُعد يفرز آلامًا موجعة (يجب أن نتجاوز ذاتنا) هذا ما تُفكِّر فيه يا أنت!

الجرح في كبريائها أكبر من عنفوان رجولته، علمها حديثه سطحية كل الكلمات والحروف ضنين القلب «به».

وهم لا زالوا «يزجون قلاصهم صوب الشمال لأيام أخر». قيثارة الليل تعزف لحن احتضاره، بمُدية النهار يقتل كل يوم. ذوت الكمائم على الأغصان منذ افتقدتك. هل شفك الوجد؟

ببساطة، أنا لا أملك خيال شاعر. امرؤ القيس كان يحب «ليلاه» في كل النساء فتغزَّل بهن «بصفاقة».

وشهريار قتلهنَّ بتوحُّش. كلاهما يفتقد الوفاء في حواء، ويفتقد البطولة. إنها تبيح لنفسها حرية الأحلام فتربح وتخسر واقعيتهما. تذوب الكبرياء المزيفة دائمًا، وَشْوَشَة الليل، ودفق العطاء في أعماق شهرزاد تبحث عن الترياق، لكن …

الثانية

شهر زاد تحكي عن ليالي البطولة، شهريار يبدو ضجرًا، انتهى زمن البطولة يا قدس فيك منذ ابتلعت الأرض بشرة جثة صلاح الدين، نحن في زمن الثرثرة والنوم، والموت غدرًا، «ابن الوليد» كلنا يعرف أمنيته. رائعة الأماني عندما تكون مشاعًا، عندما يكون الإيمان بالله عظيمًا عندها تتحلَّل النفس البشرية من الاهتزازات. يا لبنان «فخر الدين» يا أم «الأبجديات» تُقرَع أجراس كنائسك حزنًا، زمن البطولة أتراه انتهى؟ تراتيل القداس في كنائسك تتعالى لتُعانق أذان مساجدك. أين الحب، يا بلد الحب؟ ثم ماذا يا شهرزاد؟ حديثها يقتل شهريار، لا يحب الدم حديثًا، وهو يَسفكه كل ليلة!

عجيب أيها الإنسان يا صعلوك كل الأزمنة. تتسكَّع في منعطفات الحياة، وتحطُّ لسانك، وتبلع ريقك اللزج، وتبحث عن حكايات شهرزاد، تُثرثر بها إليك، تفتلُ شاربك، تستعرض قواك، يتفصد العرق من جبينك، تنفعل عندما تتصوَّرها، (خيالك واسع) هي تحبك ولا شيء غير هذا.

الثالثة

شهرزاد حدثته عن تاريخ الحب في كل العصر. غرام «دونكيشوت» امتطى جواده، امتشق حسامه، ليُنقِذ «نبيلته» من أنياب العمالقة. خياله عقيم. أيها العاشق المهزوم، طواحين الهواء وسيفك الخشبي، يَصرُخان بك … مجنون، مجنون يا عشاق التاريخ، يا للعار! في زماني يصفونكم بالأساطير.

يلهث شهريار خلف الحكاية وكيف …؟ تبرق عينا شهرزاد بوميض النصر، يا حواء آدم يهزم معك كل يوم ألحان جنائزية تعزف كل ليلة مشيعة الآمال و… و… لم أمارس المشي في الجنائز لسبب واحد، هو إيماني بأن الحب لا يموت.

كما الودق ... حبُّها ... يُحاصرها بشدة واستمرار. تُهاجر الأفراح في كل المواسم، نداء يذوب يتلاشى قبل أن يبلغ الشفاه (عشيات الحُمى أتراها رواجع؟) يرخي الليل سدوله، تحلم بخاتم الحكيم، أحلام عاجز، يا مشلولة الآمال كفى. وابل من الدمع ينهمر.

الرابعة

«حكاية قديمة»، في غابر الزمن.

واحد صنع سيفًا، وآخر قطع الطريق بهذا السيف، وثالث انتصر بالسيف نفسه أيضًا. في زماننا «الهَرِم» جِدًّا، «انقلبت المفاهيم، وتغيَّرت المقاييس، وتلوَّنت الغابات».

كلهم اشتركوا بالنصر وبالهزيمة، ولكن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء.

متوازيان، كيف؟!

عملية توازٍ رغم التكافؤ.

الثاني والثالث تحالَفا، والآخر سلك دربًا آخر.

ثم ماذا؟

انتهت الحكاية «القديمة الجديدة» معًا. المسافات تتجذَّر، تتضاءل، قلعة الصمود تدكُّ حصون الانتظار بمِعوَل اليأس، أسوار «قلبي» قوية.

لكن تل الزعتر سقط. البطولة لا تكفي، التضحية لا تصنع واقعًا أفضل.

يمطُّون ألسنتهم كأعمدة مباخر، اللهب يلفح الوجوه، متى يصبح الحب كالخبز اليومي؟ لم تعد تُطربني معاني الهيام بعيونهم الشمالية، فقدت بريقها.

نتناوب ازدراد لقمة العيش هنا من قصعة الغربة.

الخامسة

«بلقيس» يا ملكة التاج، و... أطلقوا البخور، اجمَعوا الكهان، ثم ماذا؟ يا ملكة البلد السعيد، خابت حضاراتٌ حكَمَتها النساء.

حواء لا تُجيد إلا الحب، والعتاب، والشكوى، والدموع، والعناد.

حواء لا تعرف الحياد، لا تملك قانونًا، شريعتها أن تُعطي وتعطي، لكنها تأخذ الأضعاف، تتحمَّلين مرارة البُعد يا نفس، الليل يهذي بحكايات شهرزاد، والمسافات لا تنتج إلا سرابًا.

مُنحنَيات الوقت لم تَعُد عزاءً، يا بلقيس بهرتك دنياه، وتلاشى شموخك، والأمل أتراه فُقِد أم لا يزال مُختبيًا في ركن قصي؟

الذاكرة هرمة.

يا زمان الوصول تكسَّرت النصال على النصال، تَفقس الأيام حلمًا واهمًا.

ويعود «الهدهد» يا بلقيس يحمل البشائر.

قلائد المُلكِ تُلقينها عند أول لقاء، كُهَّانُك وجنودك وقُوَّادك وأموالك لا يملكون ميزة الانبهار، وتَرفضينهم كرجال، وتحكمينهم كرعايا فقط، واعتقدتِ أنكِ انتصرت «يا بلقيس»، لكن تحلَّلتِ من كل شيء، تركتِ العرش والتاج وذهبت إليه.

عُدتِ امرأة ككل النساء.

تغريك الحكمة والحماية، وأشياء تغزل من خيوط الفجر يا شهرزاد وشاحًا للقاء لم يتم.

أيها الزمن، يا مشجب الآمال والآلام!

أين شهرزاد؟

كما لا يستطيع أحد أن يعرف الذرة، إذ كانت تعرف أيام اليونان بأنها أصغر مكونات الكون، بمعنى أن الكون كله ركب من كرات بالغة الصغر، تضع لبنات منشأ الجماد والإنسان والحيوان وكل ما في الكون. هذه كانت نظرية «دالتون» في تركيب الكون، ثم ظلت التغيرات تحدث إلى أن اكتشف أن الذرة ليست هي أصغر مكوِّنات الكون وأن داخل تلك الذرة الصغيرة توجد أجسام أصغر مثل البروتون والإلكترون والبوزيترون والنيوترون ... إلخ، ثم أخيرًا جِدًّا اكتشفوا أيضًا أن هذه الجسيمات ليست هي نهاية الصغر في مكوِّنات الكون، دائمًا داخل تلك الجسيمات جسيمات أصغر وأصغر ... وهكذا أعود فأقول إنَّ أحدًا لا يستطيع أن يعرف بالضبط ما هي الذرة، كما لا أحد يستطيع أن يعرف بالضبط ما هو الكون الأكبر، كل تلك التعريفات والتقريبات مُحاولات مِنَّا لإعطاء «شكل مفهوم» لأشياء لم نَرَها ولم نَعِرفها، بل من المستحيل أن نراها ونعرفها.

وهذا هو بالضبط الوضع في القصة القصيرة وبالذات القصة القصيرة الحديثة، فهما شكل ومضمون فنِّيان لا يُمكن تعريفهما على وجه الدقة، شيء غير مجسَّد ولا يُمكن أن يُقال عنه مثلًا إنه قصة (أي حدوتة) قصيرة أو مجموعة أحداث تؤدِّي إلى نهاية، أيِّ نهاية، أو محاولة للتعرُّف على العالم الداخلي للإنسان، كل تلك الأقوال محاولات ميئوس

منها لتعريف ما لا يُمكن تعريفه. وإني لأمسك بكتب النقد، المعاصر، والحديث، وأقرأ عن فلان هذا القصاص الذي بدأ يكتب في كذا وله كذا مجموعة، وكل تلك المعلومات البيبلوجرافية، وأحيانًا أضحك بصوتٍ عالٍ؛ فالقارئ والقصة لهذا الكاتب بالذات يخرج أعماله كلها من أوسع باب للقصة القصيرة ونصْبها في نطاق الحكايات أو الإشاعات أو التمائم أو يضعها في سلَّة المهملات.

وليَعذرني القارئ أني هذه المرة عن عمد، سأُطيل في تقديم قصة العدد؛ لأنَّ المقصود بهذا الباب ليس تقديم كاتب جديد كل مرة أو قصة جديدة، إنما هو باب فكَّرتُ فيه أساسًا لخدمة قارئ القصة وليس كُتَّابها، باب يعرف منه القارئ رأسه من قدميه، يستطيع باستيعابه أن يعرف أن ما يقرؤه فنًّا أو أنه شيء آخر غير القصة والفن.

والقصة من أوائل الفنون التي أفرَزَتها القريحة البشرية، وحكايات جداتنا هي أول فن نتلقاه ونُصغي إليه وينمِّي لدينا كل حواسنا الأخرى من قدرة على الخيال، إلى التفكير في إمكانية تغيُّر الواقع، إلى التسلُّل برفق إلى عوالم الفن الأولى من مسرح ودراما ورواية، بل وفكر خالص.

ولكنها لكي تفعل هذا لا بد أوَّلًا أن تكون قصة، وكثيرًا ما نعترض، نحن الأطفال المستمعين، حين يَشرد خيال جداتنا ويخرج عن الخط الفني للحدوتة، ويأخذ احتجاجنا شكل طلب قصة أخرى لأن هذه «قصة بايخة».

والقصة كفنٍّ بدأت بالحدوتة، ولا يزال للحدوتة سحرها حتى عند الكبار، ثم تطوَّرت الحدوتة إلى النكتة عند الكبار (وحتى عند الصغار) والنكتة هي حكاية قصيرة جِدًّا، حادَّة جِدًّا، لاذعة جِدًّا، لأثرها أو على الأقل أثر النُّكتة الناجحة لا يقلُّ عن أثر رواية من مئات الصفحات.

ثم مع ظهور الصحافة بدأت القصة القصيرة المكتوبة، وبدأت كخطابات مثل مقامات الحريري ونوادر الجاحظ وقصص بوكاشيو الإيطالي، ثم تطوَّرت أكثر على يد موباسان الفرنسي حين أضاف إلى خط الحكاية لمسات التجسيد والتصديق للقصة، ففي الحكايات كنت حين تقول مررت من أمام نافذتها، فأشارت لي فدفعتُ الباب ووجدتُه مفتوحًا ودخلت وكان ما كان، كان الناس يُصدِّقون، ولكن عصر النهضة الفكرية والفلسفية والعالمية في أوروبا وظهور «كانت» بالذات كفيلسوف صناعته الشك إلى أن يَثبت اليقين، وضع على القاصِّ عبءَ أن يَغترف من الواقع قليلًا، ويُقلِّل من الخيال والكذب الأكبر إلى أن وصلنا إلى عصر إدجار ألن بو وتشيكوف بالذات.

على يد هذَين الكاتبين خُلق فن القصة القصيرة الحديث؛ فهي قصص صحيح أصلها خيالي تمامًا، ومادتها مصنوعة من الخيال، ولكنه خيال مجسَّد في «واقع» يكاد يُشبه الواقع الذي نحياه، ولقد وضعت «واقع» بين قوسَين؛ لأنه في الحقيقة ليس واقعًا ولكنه شبيهٌ للواقع، توءم الواقع، ولكنه التوءم غير الموجود إطلاقًا بحذافيره مهما فتَّشنا عنه. فمثلًا قصة السيدة ذات الكلب اللعبة، قد تجد مثيلًا لها في الواقع، ولكنها كما حدثت في القصة هي نسيج وحدها ولم تَحدث إلا حين كتبها تشيكوف.

الحقيقة أن ظِلَّ تشيكوف وإدجار ألن بو وبعض الكُتَّاب الأيرلنديين ظلَّ يرزف فوق فن القصة القصيرة ردحًا طويلًا من الزمن، وأثَّر في أجيال وأجيال من الكُتَّاب، منهم كبار جدًّا مثل هيمنجواي، وصغار جِدًّا مثل بعض من يُحاولون نشر قصصهم هذه الأيام ولا يعرفون أنها ظل باهت لما كتبه تشيكوف في أواخر القرن التاسع عشر.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية حدثت ثورة في عالم القصة القصيرة، بمثل الثورة التي حدثت في الرواية بظهور يوليسوس لجيمس جويس، وبدأت حركة تمرُّد على طبيعية تشيكوف، وشاعريته الرهيفة؛ فالعالم الآن قد أصبح أكثر غلظةً أو الإنسان أصبح في حاجة إلى نخاسات أقوى لتُحرِّكه.

ومن العجيب أنه، في مجال الرواية، نجحت أوروبا في ثورتها، وظهرت الرواية الجديدة على يد الأب روب جرييه، وناتالي ساروت، وميشيل بوفور وغيرهم من أمريكا وإنجلترا.

أمَّا الأمر في مجال القصة القصيرة فقد حلَّ التطوُّر من حيث لم يكن يتوقَّع أحد، هنا من مشرقنا العربي، بل بالتحديد من مصر، وعلى يد جيلنا نحن. ونشأت مدرسة مصرية عربية جديدة تمامًا في كتابة القصة القصيرة، إن كانت قد تأثَّرت بكُتَّاب الغرب فهذا شيء طبيعي ولكنها فعلًا أصلية ومعاصِرة.

حدث هذا في الخمسينيات من هذا القرن، وقد كان حريًّا أن تتسلَّم الأجيال الجديدة الراية وتُطوِّر ما وصلنا إليه وتصل به إلى آفاق أكثر محلية أو أكثر عالَمية، ولكن للأسف حدثت نكسة وعاد فريق كبير من الكُتَّاب المصريين إلى التأثُّر بكُتَّاب الرواية الفرنسيين المحدثين أي عُدنا إلى التأثر والاقتباس وحتى التعريب مرةً أخرى بعد أن كان كل هذا قد انتهى وبدأت حركة إبداعية مستقلَّة لها خصائصها المُميزة وأصولها الشعبية الضاربة في أطناب التاريخ.

ومنذ أواخر الستينيات بدأت تظهر قصص سمَّاها البعض قصص الحساسية الجديدة، وقرأنا تحت هذا العنوان أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، أي كلام، أي معنى

شعري، أي تخريف، ولم لا؟ هذه هي الحساسية الجديدة وبالصدف البحتة وصلتْني قصَّتان لكاتب واحد. قرأتُهما فدُهشت، فهو أوَّلًا كاتب حساس فيه رهافة منقطعة النظير، ولكن المشكلة أنه تتلمذ على المبشِّرين بالعودة إلى التأثر بالغرب وبالرواية الفرنسية الجديدة، فكانت هذه «القصة» واقرأها معي.

رائحة الخريف

قصة شمس الدين موسى

١

مرت أيام الشتاء برياحه الباردة التي تلسع الجلد وتكوي النفس فتتولَّد بداخلها رغبات حميمة للالتصاق، بينما المعاني التي كانت تَنبثِق خلف بعضها تندفع كنهر. كانت تمرُّ منزلقة عبر دروب نفسه فتتحوَّل إلى ألفاظ وعبارات حادة ومَسنونة تشقُّ طريقها متسلِّلة نحو وعيها الغض الذي كان يتفتح كزهرة.

كان يرى عينَيها تتألقان بالحيرة والتساؤل أمام كل معنى جديد يتماسُّ مع روحها. أحس بأجزاء جسدها كمحطة استقبال تتفاعَل مع جميع ما أوصله بهذا العالم، الذي بدأت تُوجِّه قلبها الصغير كي يحتضنه ويعانقه وفق مقاييس ابتكرتها نظراتهما، ولمساتهما، وهمساتهما بعد هروبهما من الضجيج.

في تلك الأوقات كان لسع البرد لا يكاد يصل إلى ما تحت جلده. كانت آثاره تزول على موجات الدماء الحارة التي تتدفَّق في العروق أثناء اندفاعها.

٢

تفتَّحت المعاني التي كانت تبدو غامضة، فأزهرت عشرات الورود الملوَّنة التي نقعت في الندى الصباحي، وامتلأت الحديقة الجميلة التي كانا يتسابقان على حشائشها الخضراء والمصفرَّة، تحيطهما مشاعر الرغبة في التواصل والامتزاج.

كانت الأجنة قد بدأت طريقها نحو الاكتمال والتحقق بداخل أحشائها، بعدما استقبلت البذور وسط عواصف الشتاء الباردة.

بدت الكلمات ناعمة كمياه النيل التي تمدَّدت كبساط بني اللون بعد انقشاع لحظات الحيرة والتساؤل والخوف مع ليالي الشتاء الطويلة. لم يكن تيار المشاعر طوفانًا، بل كان عشقًا وجريًا وعناقًا طويلًا وسط الزهور والورود الملونة، وتحت أشرعة المراكب التي تسبح فوق مياه النهر التي كانت تبعث الأمل غير المحدود الذي سوف يأتي بعد ذلك، وبدا انتظارًا طويلًا مملًّا. وكانت قد عرفت الكثير.

٣

عادت الأحلام السديمية الهائمة تتكوَّر متحدِّدة في نقاط صامتة قبلما تتضح لها تضاريس تحدد شكلها. حاول القلب القَلِق أن يتلمس تلك التحديدات الغامضة فلم يستطع. تلمس وجوده بداخل الصور الملونة، والكلمات الفنية الرجراجة، واللمسات التي اعتادتها أيديهما أثناء عناقهما الطويل المتواصِل. كان العرق المترَّبُ يُغطي كل شيء. كادت الكلمات الحلوة تنزلق بعد بدء زوال رائحة الورود وتلاشي ألوانها الجميلة، عندما بدأ الإحساس الرمادي الغامض بينهما يَنبث في طيات متتاليات من الوهم والتوجُّس الذي لم يكن قد أصبح مطلقًا، والرغبة في التوقف دون الاسترسال، وحالات التفرد الجديدة التي اختارتها ولم تكن قد برزت من قبل. كانت دائمًا مصاحبة لارتفاع الحرارة اللزجة على صفحة وجهها الأبيض، الذي أحبه وحفظ ملامحه، مع احتقان العينَين اللتين كانتا تتحركان تحت لفح الهواء والتراب والعرق، بينما صوت أقدامهما الأربعة يتصاعد في خشوع، أثناء اصطدامهم بالأرض على طريق المقابر، الذي يَصِلُهم بالنهر.

٤

ظلَّت المصاحبة مستمرة، مع ساعات الحب، والعِشق، والعناق، والأيام تتوالى حاملةً سرَّها الذي لم تتلاشَ طلاسمه، حتى سقطت أوراق الأشجار مصفرَّة ذابلة، وظهرت المساحات الطينية الكبيرة، التي انحسرت عنها الخُضرة كجزر داكنة وجافة، وسط جنة الحشائش التي انغرست فيها الأقدام من قبل. تحوَّلت تحت أشعة الشمس اللافحة إلى بُقَع كبيرة مترِبة يتوالد فيها الغبار مرتفعًا إلى أعلى بعدما تَحمله رياح الخريف المُؤذِنة بالبرودة التي

أوصلت إلى نفسه مشاعر غامضة حزينة. كانت الأوراق الصفراء تتناثَر فوق صفحة النهر الكبير الذي شاهد لحظة الميلاد والتواصُل وتلمس المعاني الكبيرة، التي كانت ستُنبت سنابل القمح والورود الملونة.

وكانت لحظات العذاب الحزينة التي تتسرَّب إلى أعماق النفس بغموضها الآثر الذي له طعم خاص كثيرًا ما يعود ثانيةً فيذكر قلبه بتلك الأيام والرغبات عندما كانت البذور قد بدأت تتحول إلى كائنات تتكوَّر، ثم تتمدَّد فتستطيل، ثم تستدير متكورة ثانيةً، لكنها توقفت عن النمو، وبدأت في مرحلة الذبول بعدما أدركت سرَّ الانقسام الذي كانت تُخفيه عنه عندما انزلق وعْيها بعيدًا متجرِّدًا على استمرار قانون الحلول الذي حلَّ بها من قبل. كانت قد عرفت كل شيء، ولكنها أبت الاستمرار والحلول. تركته يزول ويتلاشى في الموجودات، فبلعَتْه مياه النيل في نهاية الطريق العريض، ولم يكن له شاهد يشهد عليه بين الشواهد التي كانت تَرتفع خلفهما في سموق حزين تحت أضواء النجوم التي بدت مُتخاذِلة وغائبة.

شمس الدين موسى

ولولا حُسن الحظ لوضعت قصته الأخرى جانبًا، ولكن قرأتُها فوجدت أن هنا قصة، لا أستطيع أن أقول أين أو كيف، فكما قلتُ لكم لا يَستطيع الإنسان أن يعرف القصة، ولكن حين تقرءونها معي ستُحسون أن هنا قصة وقصة حديثة، وفيها حساسية، وحساسية مرهَفة وفعلًا جديدة، فلنقرأها معًا:

المتفرج: قصة شمس الدين موسى

إنني لست مسئولًا عن ذلك.

كلماته ذات جرس خاص، كان ينفخ فيها شحنة كبيرة من ذاته. يصل صوته إلى آذان مستمعيه من خلال نوع من الرنين يُثير الانتباه. له آراء في أشياء كثيرة متعارضة، قليلون هم الذين ينجذبون إليه، ولا أستطيع أن أحدِّد هل أنا من هؤلاء القليلين الذين يَنجذبون إليه أم من الكثيرين الذين لا يثيرهم وجوده؟

تذكرت أنني عرفتُه منذ سنين طويلة كما عرفه غيري وكانوا كثيرين، لا يُمكن ذكر عدد من عرفوه عن قرب، وربما يوجد في لحظة ما محاطًا بمن يمثل أجيالًا ثلاثة. كذلك أستطيع أن أحدد أنه لا يمكنني ذكر عدد السنين التي عرفته خلالها دون ذكر أحداث،

وأفراح، ودموع تكون قد سجلتها الذاكرة مثل حرب ١٩٥٦، وأول قصة قرأتها، وحبِّي لأول فتاة، وأنباء صعود الإنسان إلى القمر … إلخ طوال كل تلك الأحداث التي تداخَلت معالمها مُمتزجة بالسنين والأيام. كان دائم التطلع إلى الأفق، رغم قامته التي لم تكن طويلة. لم يجرب ذلك الارتفاع المقصود فوق أصابع القدمين، كما لم يكن يتعمد أشياء كثيرة، فلم يُعرف عنه في يوم حبه للتمايز عن الآخرين. كانت جوانب التمايز في حياته ملحوظة لمن يَقترب منه ويتأمَّله بدقة، وكانت تتمثَّل في نوع الحياة التي يحياها، ويعمل على إخفائها بقوله: إنني لست مسئولًا عن ذلك!

وعندما أراجع ملاحظاتي القديمة والحديثة عنه أُقرِّر دون تردد أنه لم يُجرِّب السير بمفرده، بل دائمًا ما يُسارع إلى مصاحبه الآخرين، كما لم يجرب حب الفتيات، أو الرقص في الحدائق، أو زيارة المتاحف، أو السفر، كما لم يعرف طعم الخمر أو المخدرات، ولم يشغل نفسه بعمل المستحيلات، لكنه كان يحب مشاهدة كل ذلك، وجمع الكتب، مع قراءة الحروف المطبوعة، إلى جانب غرامه الشديد برواية الأخبار؛ مَن أحبَّ! ومَن فشل! ومَن سُجن! ومَن سافرَ! ومَن أصبح مليونيرًا! ومن سرق! ومن تحوَّل عن آرائه! لم يأخذ عليه أي واحد ممن يعرفونه أنه يسكن بالأدوار العليا؛ لأنهم يَعرفون ردَّه المباشر الذي تكرَّر كثيرًا.

إنني لست مسئولًا.

لكنه كان دائم التأمل في حياة سكان الأدوار السفلى؛ كيف يعيشون؟ وماذا يأكلون؟ وبماذا يحلمون؟ وعيناه دائمًا تتركزان بداخل مكان ما، لعله يفتش عن شيء، لكن المؤكَّد أنه لم يعثر عليه. ظن أنه وجد ما يبحث عنه عندما تزوج، اختفى عن كل الأماكن التي كان يجب أن يوجد فيها، وضعفت حالة الشغف التي كانت تنتابه في مواجهة الأوراق المطبوعة، كما تلاشى إحساسه بضرورة رواية الأخبار أو سماعها، لكنه سرعان ما عاد بعد ذلك إلى طبيعته القلقة والمتأملة. ومجمل ما قيل عنه بعد عودته إلى طبيعته الأولى أنه لم يتغيَّر، ولا يزال يبحث عن شيء غير معروف لأحد، وهو — أيضًا — لا يعرفه.

اقتنع كل الذين تعرَّفوا عليه أنه يُمثِّل حالة لا تتكرَّر كثيرًا وجديرة بالتعرف عليها.

قال البعض عنه إنه يريد إعادة تشييد العالم.

وكان هناك من يقول بأنه يُضيع وقتنا بثرثراته.

كما وصفه آخرون بأنه حالة مرضية.

ووسط كل ذلك، كانت كلماته تذهب متلاشية، وربما تصل إلى آذان البعض فيدركها بطريقة خاطئة، فتظهر أصداء تلك الكلمات متناثرة هنا وهناك.

وما سبَّب الحيرة للكثيرين من أصدقائه، أنه كان لا يعترف بصداقتهم رغم أنه يقضي معهم الكثير من الأوقات. كان يُعلن لي دائمًا أنه من أنصار الصديق الواحد؛ فهو يعرف أن معرفته بهؤلاء طارئة. وما أدهش الجميع أنه دائم التطلع إلى التفاصيل الدقيقة، ولا يعجبه شيء. كما كان ساخطًا على كل شيء، وقلما اعترف بخطئه عندما تفشل آراؤه. كان يوعز الفشل للظروف، وما يطلب تحقيقه اليوم سرعان ما يرفضه في الغد، بل إنه كثيرًا ما يُضبَط بمدح شيء معين ونقيضه في نفس الوقت. كان دومًا يجد العبارات التي تُبرِّر الموقف الذي ضُبط بداخله. رفضه المتفائلون بينما يُعلن رفضَه للمتشائمين، وكان هو البادئ دائمًا لكل مَن يَصِل إلى تلك المساحات الغامضة بداخله. عندما توصلت زميلتُه التي شعَر نحوها بالحب — وأَسَرتْه بوجودها وشخصيَّتها — إلى تشخيص حالته قذفها بأقذع الألفاظ، وسقطَت كلماته التي كانت تحمل الرنين في فوهة الآمال المكبوتة، وارتسمَت معانيه القليلة في عينَيها فوق حروف وألفاظ تحوَّلت بفعل التكرار إلى نوع من الأكلشيه المُميَّز. انفرد بي في الفترة الأخيرة لأوقات طويلة. أحسست في وجودي معه بخاصية دوران الزمن. بدت حروف وكلماته كعجوز دبَّت فيها الشيخوخة. بل كثيرًا ما حلا له رسم الغضون فوق صفحة وجهه. لم يكن يُخفي ذلك ما يُصيغه من جمل تأخذ شكل العبارات المأثورة.

وما يُمكن أن يذكر له في الأيام الأخيرة أنه كان يردِّد مُفلسفًا حالته، إنه لا شيء، إنه مجرد متفرِّج، متفرِّج على كل شيء، لكنه لا يَشترك في عمل شيء. وبذلك وضع أمام الجميع تفسيرًا حار البعض كثيرًا في التوصُّل إليه.

شمس الدين موسى

من حسن الطالع أيضًا أن القصتين لكاتب واحد حتى لا أكون قد ظلمتُه، ولكن المهم أننا تتبعنا لنماذج قصصية متعدِّدة سنَقترب أكثر وأكثر من مفهومنا لما هي القصة. فأنا شخصيًّا لا أعرف ما هي القصة القصيرة، وكل مرة أكتب فيها قصة قصيرة، أحاول أن أعرفها لنفسي أو أكشفها، وغالبًا ما لا تصادف الرضا عندي، فأكتب مرة أخرى.

وربما لهذا لا زلت أكتب.

وإلى اللقاء مع كتاب جديد وقصص جديدة.

د. يوسف إدريس

كلمة توضيح

لأسباب كثيرة بعضها أكاديمي أو بعضها مسرحي، ولطلبات أكثر، كلها ترجو بإلحاح أن أدلها على الكتب أو الأمكنة التي يَعثُرون فيها على الحوارَين الحافلَين الذين أجريتهما مع الكاتب المسرحي السويسري الكبير «فريدريك دورينمات»، ومع الكاتب المسرحي الأمريكي الكبير أيضًا «أرثر ميللر».

وها أنا ذا بناءً على تلك الطلبات والرجاءات أجمع اللقاءَين في كتاب واحد، وفي فصل أخير واحد.

دورينمات في مصر

قبل أن نستأنف هذا الحوار مع دورينمات، والذي سيقول فيه آراء عن الإسلام وعن إسرائيل وعن المسرح والفلسفة والفن، وحتى عن نفسه، قبل هذا أحب أن أقول للقراء خبرًا، إنَّ دورينمات سيزور القاهرة في نوفمبر القادم، فبعد الحوار الحافل الذي دار بينَنا قلت له: هل تحبُّ أن تزور القاهرة؟

وجدته يتردَّد.

فقلت إنها ليست دعوة رسمية، إنها دعوة شخصية مني أنا، أو بالأصح هي دعوة من مجلس إدارة جمعية كُتَّاب ونُقَّاد ومخرجي المسرح التي أتشرَّف بكوني مسئولًا عنها ونائبًا لرئيسها شيخ كُتَّابنا المسرحيِّين توفيق الحكيم. إنني باسم هؤلاء المسرحيِّين أدعوك لزيارة القاهرة. قلت له هذا رغم علمي أنه يكره السفر، ليس فقط إلى خارج سويسرا، وإنما حتى إلى خارج «نيوشاتل» التي يُقيم فيها، وله سنين لم يُسافر أبدًا إلى الخارج. ولكني قلته اعتمادًا على نوع من الفراسة الداخلية أَلتقِطُ وأُحسُّ بها الناس أو بما في الناس بطريقة ما أزال لا أعرفها، تمامًا مثلما جاءتني فكرة زيارته وأنا عند أخت ذلك الناشر في أحد وديان جبال الألب.

وها أنا ذا لا أفاجأ — وإن كان مفروضًا أن أفاجأ — حين قال: إني أتمنى زيارة القاهرة، فعلًا، وكذلك زوجتي «الجديدة طبعًا»، فزوجته السابقة التي عاش معها أكثر من ستة وثلاثين عامًا، والتي رسَمها بأكثر من طريقة، والتي كانت معبودته كما يقولون، وتوقَّعوا أن يموت أو على الأقل يتوقَّف عن نشاطه الفني تمامًا بعد أن ماتت، الذي حدث أنه تزوَّج بعدها من شابة ألمانية تعمل مخرجة في شبكة التليفزيون التي تُغطِّي منطقة

أوروبا الناطقة بالألمانية، ألمانيا والنمسا والجزء الألماني من سويسرا وبعض أجزاء من يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا.

قلت: سيكون رائعًا لو صحبَتْك زوجتُك، وأرجو أن نستطيع أن نُدبِّر لها برنامجًا خاصًّا باعتبار أنك ستكون مشغولًا ببرامج أخرى.

قال: لا حاجة بك لأي تدبير، فهي تعشق مصر، وطالما صرحت لي بأنها تريد أن تصنع فيلمًا عن مصر، وأعتقد أنها ستفعل ذلك إذا ذهبنا. وجهت له هذه الدعوة حتى لو كنت سأدفع تكاليفها كلها من جيبي المتواضِع الخاص، فنحن في مصر منذ زيارة سارتر للقاهرة بدعوة من مؤسسة الأهرام، ومنذ زيارة جارودي بدعوة من الأهرام أيضًا، لم نُحاول أن ندعو كاتبًا أو مفكرًا عالميًّا لزيارة مصرنا التي يُحبها العالم بقدر ما نَضيق نحن — أحيانًا — بها.

وحتى قلتُ لنفسي: لو وجدتُ المبلغ المطلوب كبيرًا فسأُحاول أن أقنع الأستاذ إبراهيم نافع أن يقدِّم لي قرضًا أو عونًا أو تدفعه النخوة ليقول: بل الأهرام هو الذي سيتكفَّل بنفقات الزيارة.

ولكن حين عُدت إلى القاهرة — وطبعًا لأسباب لا يجهلها القارئ — لم أشأ أن أعرض أمر هذه الزيارة على وزارة الثقافة، خاصةً وهي مشغولة بالماضي تمامًا وترميمه. قابلت الدكتور ممدوح البلتاجي صدفة في افتتاح معرض الكتب الفرنسية التي كُتبت عن مصر والعرب والمسلمين منذ العصور الوسطى إلى العصر الحاضر — موضوع سأعود إلى الحديث عنه فيما بعد إن شاء الله — ووزارات الثقافة والعلاقات الثقافية في البلاد الأخرى مشغولة تمامًا بإقامة علاقات ثقافية وثيقة بين بلادها وبين غيرها من البلدان وبالذات بلدان العالم النامي، وفي مقدمتها بطبيعة الحال، قائدة هذا العالم الثقافية: مصر.

لا يكاد يمر شهر إلا وثمة معرض أو فرقة موسيقية أو فرقة مسرح أو رقص قادمة من الهند أو كوريا، وبالذات من فرنسا. إنَّ الفرنسيِّين يقومون بنشاط ثقافي هائل في القاهرة، معهد آثار، معهد لغة، ترجمة كتب مصرية إلى اللغة الفرنسية، معارض، دعوات للكُتَّاب لزياراتها والاحتكاك ثقافيًّا وفنيًّا بها، مهرجانات أفلام، مؤتَمرات كان آخرها مؤتمر للعلاقات المصرية الفرنسية، مؤتَمر حافل، كان على رأس المشتركين فيه المفكِّر الفرنسي العظيم مكسيم رودنسون. ذلك أن العلاقات الثقافية لم تَعُد في عالم اليوم ترفًا، أو دعايةً، إنها هي الروابط الحقيقية التي تجذب الشعوب إلى حضارات الشعوب، وبالتالي

إلى فهمها والتعاطف مع سياستها وخطواتها إلى التقدُّم. ومثل الفرنسيين هناك معهد جوته بنشاطه الهائل، ومعهد ليوناردو دافنشي الإيطالي، والمعهد البريطاني ينفق بسخاء على تعليم المصريين اللغة الإنجليزية والثقافة الإنجليزية، ناهيك عن النشاط الثقافي الذي تقوم به السفارة الأمريكية والجامعة الأمريكية، وكأن تنافسًا هائلًا قائمًا بينها لخلب لب المصريين ثقافيًّا وفنيًّا. وهذا هو في رأيي التنافس الوحيد المفيد لنا تمامًا. وقد كان مفروضًا أن تقوم مصر — أقصد الوزارات والإدارات الثقافية الكثيرة المُبعثرة بين وزارة الثقافة وإدارة العلاقات الثقافية بها، وإدارة العلاقات الثقافية بوزارة الخارجية، والأخرى التي بوزارة التربية والتعليم أو التعليم العالي لا أعرف — كان مفروضًا أن توحَّد هذه كلها في مؤسسة ثقافية واحدة للعلاقات الخارجية وللثقافة الداخلية أيضًا، كهيئة «البروهيلفسيا» السويسرية أو غيرها، ولكن تقول «لمين»؟ المُهم، قابلت الدكتور ممدوح البلتاجي، وذكرت له عَرَضًا عزمي على دعوة «دورينمات» وقبوله الدعوة، فوجدتُه بحماس منقطع النظير يصرُّ على أن تقوم هيئة الاستعلامات باستضافة الرجل الكبير وبمُشاوَرات مع السيد صفوت الشريف وزير الإعلام تمَّ الاتفاق على برنامج كامل للزيارة، وحتى ذكرت الفيلم الذي تُريد زوجة دورينمات عمله عن مصر لعرضه في الشبكة الألمانية الأوروبية.

قال: إنَّ إمكانيات الاستعلامات كلها ستُسخَّر من أجل إنجاح العمل.

وهكذا أرسلَت هيئة الاستعلامات دعوة رسمية — عن طريق السفارة السويسرية في القاهرة — إلى «دورينمات»، بها برنامج مفصَّل واتِّفاق مع الثقافة الجماهيرية على عرض مسرحية لدورينمات مما سبق عرضه له في القاهرة، ولستُ أدري لِم الثقافة الجماهيرية، ولماذا لا يكون المسرح القومي الأب هو الذي يقدمها، وتحدَّد للزيارة بالاتفاق مع «دورينمات» نوفمبر القادم إن شاء الله.

هذا هو الخبر.

ونعود الآن إلى ما كُنَّا فيه في الأسبوع الماضي، ونتذكر الحوار حتى نحيط بالموضوع.

قال: إن الحرية الحقيقية هي في إدراك محدودية القُدرة البشرية على فهم الكون.

قلت: بالضبط. ففي مفهومي أن الصراع الحقيقي هو بين رغبة الإنسان العارمة في التحرر من أي نظام (بما فيه النظام الكوني نفسه) وبين قدرته المحدودة على الفكاك من أسر هذا النظام؛ إذ لو فكَّ منه تمامًا لفقد صفته البشرية ونظام وجوده كإنسان.

قال: ولكن النظام في رأيي ليس خارج الإنسان. إنه داخل الإنسان نفسه.

قلت: ولكني هنا أتحدث عن الإنسان ليس كفرد، وإنما كمجموعة إنسانية، كمجتمع؛ فالإنسان لا يحيا بمفرده، ولا يوجد مكون من مكونات الكون بمفرده أبدًا. حتى الذرات

توجد في مجتمعات ولا بد من نظام يحكم وجودها الجماعي؛ فالأصل في وجود أي شيء هو وجوده الجماعي.

قال: أنت تقول إن الإنسان لا يُمكن أن يعيش خارج نظامه الإنساني، وأن النظام لا يُمكن أن يعيش خارج الإنسان. فكيف عالجت هذه المعادلة المُستحيلة؟

قلت: بالصراع حول من يكون السيد: النظام أو الإنسان؟ وضحكَ وضحكتُ، ولكنني أردفتُ: إنَّني أَعتبر أن الإنسان إنسان بقدر تمرُّده على نظام وجودِه وبقدر قوة تَمرُّده تكون قوته كإنسان صحيح، إنه تمرُّد ميئوس منه، إلا أن الاستسلام الكامل للنظام، لأي نظام موجود، هو الاستكانة والسكون، هو الموت.

قال (وكأنما يُغيِّر مَجرى الحديث): رغم أن أرسطو يقول إن الإنسان كائن سياسي، إلا أنني أعتقد أنَّ الإنسان كائن (ذكري-أنثوي) وأنا أرى أنك لم تتحدَّث عن الرجل والمرأة باعتبارهما النظام الأساسي للمجتمع البشري.

قلت: لو كان الرجل والمرأة وحدهما على سطح الكرة الأرضية لأصبح هذا هو النظام الإنساني، ولكنهما لم يُوجَدا هكذا بمُفردهما إلا في قصة آدم وحواء. هما موجودان باستمرار داخل مجتمعات مثلهما مثل أدقِّ الكائنات.

قال: ولكن هذا كما قلت لك مجرد تصوُّرنا نحن لوجود المادة في هذه المرحلة من إدراكنا العلمي. ولهذا فأنا أُفضِّل النظرة الفلسفية لأنها تقوم على افتراض منطق للوجود، وهي في نفس الوقت ليست حقيقة علمية، إنها خيال علمي مثلها مثل الروايات والمسرحيات مجرد افتراضات وليست حقيقة علمية مُمكن إثباتها بالميكروسكوب أو التليسكوب.

قلت: أمعنى هذا أنَّك لا تَعتقِد أن هناك حقيقة موضوعية «حقيقية» موجودة خارجنا؟

قال: هناك حقيقة — هذا لا شكَّ فيه — ولكنَّنا لا نُدرك إلا أجزاء من تلك الحقيقة، أي تلك الأجزاء نُدركها، هذا هو السؤال. بل إنه مهما كان تفكيرنا حتى لو كان تفكيرنا عبثيًّا فنحن بالضرورة نُمسك بجزء ولو ضئيل من الحقيقة. بالضبط لو كُنَّا نُمسِك ببطارية كشافة نجول بها في أنحاء غرفة مُظلمة فلا نرى في المرة الواحدة إلا أجزاء من مُحتويات الغرفة قلت: أو كما يقولون عن النملة حين لا يُمكنها أبدًا أن ترى الفيل كله، إنها ترى نتوءات وأشياء بارزة وهضبات إنما لا يُمكن أن تُدرِك — أو حتى تَتخيَّل إذا كان باستطاعتها أن تَتخيَّل — أن هذه كلها تُشكِّل كائنًا هائل الحجم حيًّا اسمه الفيل.

ولهذا دعني أسألك يا أستاذ دورينمات سؤالًا سوف يَبدو كأسئلة اللقاءات الصحفية، ألا تَعتقِد أن الإنسان كتلك النملة كما قلنا تَكتسِب كل يوم بتكنولوجيتها واكتشافاتها

وإدراكاتها المتقدِّمة قدراتٍ أكبر بكثير من حجمها الصغير، بحيث إنه مِن المُمكن لهذه النملة أن تكبر تمامًا ويَكبر خيالها وتَكبُر عيونُها حتى تصل إلى درجة تستطيع أن ترى الفيل فيلًا فعلًا.

قال: مُمكِن أن تَكبُر النملة فعلًا وتكبر حواسها كما قلت، ولكن الفيل أيضًا لن يظلَّ كما هو، إنه هو الآخر لن يظلَّ نفس الفيل، سيظل يكبر ويكبر.

قلت في سرِّي وله أيضًا: هكذا يُجيب الأستاذ المسرحي دورينمات. وأضفتُ لنفسي: لا بد أن جزءًا كبيرًا من موهبة الكاتب المسرحي أن يَعرف كيف يسأل السؤال الصحيح ويعرف أيضًا كيف يُجيب، حتى على نفسه، الإجابة الصحيحة.

ولكني كنت قد بدأت أتبيَّن شيئًا من ملامح ذلك الكاتب الداخلية، فهو قد درس الفلسفة وعشقها، وأنا قد درست العلم وعشقته، وصحيح أن الاثنين طريقان للحقيقة مُختلفان تمامًا ولا يتفقان إلا على النهاية الواحدة، ولكني هكذا قلت لنفسي أفضل طريق العلم ومن قبيل حب الاستطلاع حاولتُ بجدية خطيرة أن أدرس الفلسفة فلم يُقنِعني أيها بالمرة. أجل بدأت أتعرَّف على الكاتب الداخلي فيه ومن لمعات عينَيه بدأت أنا الآخر ألمح علامات تعرفه عليَّ.

قلت: كما قلت لك يا أستاذ دورينمات، لقد قرأتُ بعضَ آراء النقاد عن مسرحك، ولكني أنا شخصيًّا أعتقد أن أحدًا منهم لم يَكتشِف خاصيَّتك الأصلية، وهي قدرتك عن طريقتك في اختراع الفانتازيا والأسطورة العصرية، لاختراق عالَمنا الحالي بطريقة تُعرِّيه تمامًا. فهل أنت معي في هذا؟ وهل نستطيع أن نُسَمِّيَ مسرحك الفانتازيا «الخيالية» الحديثة؟

قال: إن الفانتازيا جزء لا يتجزأ من التركيب «العقلاني» للإنسان، إن الخيال في معظمه منطقي أيضًا. إن الرياضة هي المعادل المتخيَّل للوجود المنطق، ومع هذا فالرياضة أيضًا فانتازيا لأنها تخيُّل للأشياء على هيئة أرقام أو رموز. إنك في الكتابة تحتاج إلى اكتشاف الرؤية المتخيَّلة الأولية سواء كانت رؤية عظمى أو غير عُظمى، ولكنَّها رؤية جديدة مختلفة، بعد هذا الكشف الأوَّل تُصبِح عملية الكتابة للمسرح وكأنها لعبة شطرنج محسوبة خطواتها. ففي مسرحية مثل أوديب مثلًا نجد الرؤية العظمى تَهبط عليه على هيئة نبوءة من آلهة الأوليمب تقول له إنه سيَقتُل أباه ويتزوَّج أمه مثلًا. ويريد أوديب أن يتجنَّب هذه النبوءة أو الرؤية فيتجنبها بواسطة خطوات منطقية محسوبة، مسرحيًّا أو تراجيديًّا كما تحب أن تُسميها، ثم نجد أننا قد وصلنا مع أوديب إلى نقطة

لا تخضع للحساب، لماذا يَذهب إلى تلك المدينة «طيبة» التي فيها أمه وأبوه على وجه التحديد، هذه المسألة تحدث صدفة إذ هنا لا بد أن يعمل قانون الصدفة.

قلت: ولماذا لا تُسمِّيه قانون القدر أو الحتم؟

قال: لأنه كان من المُمكن ببساطة أن يذهب إلى مدينة أخرى. حتى لو أجريت عليه قوانين الحتمية كما تُسميها، كان من الممكن أن يختار أقرب مدينة أو أجمل مدينة أو أشهر مدينة، أمَّا أن يختار «طيبة» بالذات، فهذا أمر لا يُمكن أن تحكمه إلا الصدفة والصدفة وحدها.

قلت: إنه أمر في رأيي لم يَحكمه قانون الصدفة، ولكن حكَمَتْه إرادة المؤلف المسرحي الإغريقي الذي كتَب أوديب الأولى.

قال: إن هذا الكاتب أيضًا لم يكن يَحكُم نفسه وهو «يؤلف» هذه الصدفة.

قلت: إذن أنت معي أن هناك قوة أو دافعًا أكبر من الصدفة هو الذي جعله يختار هذا الاختيار.

قال: ولكنه اختيار يَفرضه العمل الفني المسرحي.

قلت: ولكن الفن المسرحي ليس في حدِّ ذاته قوة تستطيع أن تفرض قوانينها أو مسارها.

قال: في الحقيقة إننا نحن الكُتَّاب لا نعرف القوانين التي تحكم خَلقنا للشخصيات في الأحداث.

قلت: والمصادفات.

قال: والمصادفات.

قلت: ماذا عنك أنت؟ ألم تُحاول أن تتعرف على طريقتك التي بواسطتها تختار الأشخاص والأحداث والمصادفات؟

قال: سأقول لك شيئًا عن مسرحيتي «علماء الطبيعة» (وهي مسرحية في مفهومها العام جِدًّا تقول إن بعض علماء الطبيعة الألمان ادَّعوا الجنون ولجئوا إلى مصحة أمراض عقلية خوفًا من أن تُنتزَع منهم المعلومات عن القنبلة الذرية ويَستعملها هتلر في إبادة الجنس غير الآري كله) استطرد قائلًا: إنَّ العلماء الأمريكان وصلوا مثلًا إلى اكتشاف القنبلة الذرية لأنهم كانوا يَعتقدون أن العلماء الألمان سيَسبقونهم إلى اكتشافها، هكذا ظن أينشتين الذي كان قد هاجر إلى أمريكا وأبو القنبلة الذرية «أوبنهيمر» وغيرهما. وصحيح كان هناك تجمُّع كبير لم يكن في نيتهم أن ينتجوا قنبلة ذرية أبدًا، وأن هتلر لم يَكن يَحفل

كثيرًا بجهود العلماء في الحرب وكان يُسمِّيهم «اليهود البيض» لأنهم كانوا في معظمهم من تلاميذ وأتباع أينشتين اليهودي.

في مسرحيتي «علماء الطبيعة» يلجأ أحد أبطالها لمصحة الأمراض العقلية؛ لأنه يعرف خطورة المعلومات التي اكتَشَفها ووصل إليها وماذا يُمكن أن يصنع بها هتلر وعصابته النازية. لقد تجنب ما أراد تجنُّبه باللجوء إلى ادعاء الجنون ودخول المصحة، ولكنه في المصحة يقع بين يدي طبيبة المصحة المتحمِّسة للنظام بنفس الطريقة التي يقع فيها أوديب «بالصدفة» في يد أمه «طيبة»، وهذا هو ما يُمكن أن نُسمِّيَه «بالقدَر» الذي لا يُمكن للإنسان أن يتجنبه.

قلت: يسعدني هذا الحديث تمامًا يا أستاذ دورينمات، فقد كنت أرى إنتاجك وأنا أقرؤه وأُشاهده مجرد نصوص مسرحية رائعة أرى واجهتَها الخارجية فقط، أمَّا الآن فأنا أرى دورينمات الكاتب، دورينمات الداخلي وهو يعمل وكيف يُبدع فكرته. أراه حتى وهو يُحرِّك أبطاله بطريقة ميكانيكية رياضية محسوبة مقدمًا كلعبة الشطرنج، ولكن لتسمح لي يا مستر دورينمات أن أختلف معك؛ فالأبطال ليسوا أشياء تخضع تمامًا لقوانين الرياضة والحساب. إني أعتقد أنك تُقلِّل من قيمة أبطالك بهذا الحديث. إني أراهم كائنات حية نابضة، أكثر حياة ربما من البشر العاديِّين، وهذا هو بالضبط المسرح، إننا لا نُسَمِّي الشخصية المسرحية «بطلًا» عبثًا، إنه بطل لأنه من المحتم قطعًا أن يكون غير عادي حتى لو كان رجلَ شارع، أو على الأقل تكون عاديته غير عادية تمامًا.

قال: هذا طبيعي جِدًّا. إن الأبطال المسرحيِّين مجرد نظريات على الورق، تتحول إلى كائنات حية على المسرح. وهذا عمل كاتب المسرح.

قلت: أم عمل المخرج؟

قال (بما يُشبه الاستنكار): أرجوك لا تُذكِّرني بالنجوم والمخرجين، إن تدهور المسرح الألماني الحالي سببه ارتفاع تكاليف الإنتاج المسرحي من ناحية ومن ناحية أهم هؤلاء المُخرجون النجوم، فكل مُخرج منهم يريد أن يكون هو «نجم» العرض المسرحي وأن يُحسَّ الجمهور رغم عدم ظهوره أنه هو النجم، وهذا بالطبع لا يحدث إلا على حساب المسرحية والممثلين.

إني أقصد أن أقول إن النص المسرحي يبدو كالنظرية على الورق، ولكن الكاتب المسرحي الحقيقي هو الذي يكتب بتصور أنه هو الذي سيُخرج المسرحية، وهكذا ينبض النص بالحياة، على المسرح.

قلت: بمُناسبة «النبض بالحياة» ألاحظ يا أستاذ دورينمات أن العلاقة بين الرجل والمرأة في مسرحك لا تحتلُّ أهمية كبيرة في كونك الفني، رغم ما ذكرته لي آنفًا من أن الرجل والمرأة أساس النظام البشري.

قال: ذلك لأن الموضوعات (التيمات) التي أتعامل معها لا تَحتلُّ فيها قضية العلاقة بين الرجل والمرأة مكانًا هامًّا. ولكن هناك أعمال لي تحتل فيها هذه العلاقة مكانًا بارزًا. ولكني «وكأنما بعد تفكير» معك أن العلاقة بين المرأة والرجل ليست في المحل الأوَّل من اهتماماتي.

قلت: لماذا؟

قال: لأنها ليست موضوعي الرئيسي. أنا لا أعاني من مشكلة في علاقتي كرجل بالمرأة. لقد تزوَّجتُ لمدة ٣٦ عامًا، وماتت زوجتي الأولى، وتزوجت مرة أخرى.

قلت: سمعت عن قصة حبك العظيمة تلك.

قال: أي قصة حب؟ الأولى أم الثانية؟

ووقعتُ في حيرة، فقد ذكر لي الكُتَّاب السويسريون سامحهم الله أنه كان يكاد يَعبد ويكتب من أجل زوجته الأولى، أمَّا الثانية فلم يأت لها ذكر بالمرة إلا أنها أصغر منه عمرًا كثيرًا. وها هو الرجل يُؤكِّد أن القصة الثانية احتلت مكانة قصة استغرَقَت ستة وثلاثين عامًا في بحر عامين أو أقل.

قلت: تقول يا أستاذ دورينمات إنك لا تهتم بعلاقة المرأة بالرجل لأنك رجل سعيد في حبك وفي زواجك، أمعنى هذا أن لا نكتب إلا عن المواضيع التي لا تسعدنا؟!

قال: وهل كتب كاتب عن علاقة حب سعيدة، إننا لا نكتب عن العلاقة بين الرجل والمرأة إلا إذا كانت مأساة. وأنا لا أخترع مآسيَ لا أُحسُّها، وليست علاقة الرجل بالمرأة مشكلتي.

قلت: إذن ما هي مشكلتك يا أستاذ دورينمات.

قال: مشكلتي أننا نعيش في عالم جميل جِدًّا، أو بالأصح مُمكِن أن يكون جميلًا جِدًّا، ولكنه في حقيقته قبيح جِدًّا جِدًّا.

قلت (وأنا أتلفَّت وأرى المنظر من حجرة مكتبه ومرسمه لوحة عبقرية تطل على بحيرة كأنها من بحيرات الجنة والبيت والمدينة والجبل وكل شيء جميل جِدًّا): أنا لا أرى عالمك هذا قبيحًا أبدًا يا أستاذ دورينمات، فكيف تحسُّ قبح العالم الخارجي وأنت هنا في كل هذا الجمال؟!

قال (ضاحكًا): في الحقيقة أنا كنت أتحدَّث عن قبح الأفكار السائدة في عالمنا. إن دنيانا الحاضرة هي مصحة كبرى للأمراض العقلية في نظري. إن مسرحيتي الجديدة (مثلها مثل علماء الطبيعة) تدور أيضًا في مصحة أمراض عقلية، حيث يقوم كل مريض عقلي بتقمص شخصية تاريخية ما داخل المصحة؛ فأحدهم يعيش «كنابليون» ويتصرَّف ويُفكِّر مثله، وهناك مريضة تتوهَّم أنها «جان دارك»، وتَندمِج إلى درجة أن تحسَّ أنها مثل «جوديت» التي ورَد ذكرها في الأساطير وتحاول أن تعالج «نابليون» من تقمُّصه بالنوم معه كما فعلت «جوديت». وهناك مريضان يتقمَّصان شخصية «ماركس»، أحدهما «ماركس» كما يحب أن يراه الروس والآخر ماركس فوضوي، وهناك ماركس ثالث لا يظهر أبدًا، وهو الوحيد الذي قرأ رأس المال في «المراكسة» الثلاثة.

قلت: لقد حاولت قراءة رأس المال عدة مرات، ولكني كنتُ أتوقَّف فاشلًا.

قال: حتى لينين نفسه لم يقرأه كله. بل أعتقد أن ماركس نفسه لم يكتبه كله، ولكن «أنجلز» ساعده في كتابته. ومن المُضحك أنهم قد وجدوا أخيرًا خطابًا أرسله الناشر الذي كان قد تعاقد مع ماركس على نشر كتاب رأس المال وتأخر ماركس في تسليم أصول الكِتاب وخطاب يُنذره فيه الناشر بأنه إذا لم يَنتهِ من الكِتاب في بحر شهر فسيَعهد إلى غيره بكتابته.

قلت: وتصوَّر لو كان أحد غير ماركس كتب رأس المال. كان الأمر يُصبح مسرحية لدورينمات أليس كذلك؟ ولكن، معنى هذا أنك درست الماركسية يا أستاذ دورينمات.

قال: لقد قرأتُ كثيرًا لماركس.

قلت: ودخلتَ مصحَّة نفسية (وضحكت).

قال: ولماذا تضحك؟ فعلًا دخلتُها. توجد مصحة أمراض نفسية قريبة جِدًّا من هنا، ومديرها صديقي، وكثيرًا ما أذهب إلى هناك، وهي مصحة قديمة يَرجع تاريخها إلى الوقت الذي كانت فيه هذه المنطقة تتبع بروسيا، ولقد دخلها كثيرٌ من الكُتَّاب الأوروبيين المشهورين مثل «هيرمان هسه» و«كورناد ماير» و«لوبيدس». ومن المضحك أن «بيتر بروك» (المخرج الإنجليزي المشهور أو بالأصح أشهر مخرج في تاريخ المسرح الإنجليزي) حين ذهبتُ معه لنتفقَّد المصحة تمهيدًا لإخراج مسرحية علماء الطبيعة على المسرح، كانت مساعدة مدير المصحة لها «قتب»، وكانت عالمة طبيعة، وحين قدمتها إلى «بيتر بروك» قائلًا: هذه هي عالمة الطبيعة، كادت تُجنُّ من الفرحة لأنها ظنت أنها ستُمثل الدور في المسرحية.

لاحظ دورينمات أني كثير التطلُّع — وهو يتحدث إلى المترجم بالألمانية — إلى اللوحات التي تكاد تملأ جدران المرسم، وكم كان بودي أن أتحدث عن دورينمات الرسام؛ فهو لا يقل موهبة عن دورينمات المسرحي أو القصصي، غير أنه بدلًا من اختراع الأسطورة الحديثة في المسرح تموج رسوماته بالأساطير المُستوحاة من التوراة والإنجيل، فقد كان أبوه قسيسًا بروتستنتينيًّا، وأمه مُدرِّسة في مدارس الأحد التي تتبَع الكنيسة، وطفولته مليئة بهذه المتيولوجيا التوراتية إلى درجة التشبع، واللوحة الموجودة هنا هي واحدة من أكثر من مائتي لوحة صدرت في كتاب عن دورينمات الرسام، كتاب غالي التكاليف تمامًا إلى درجة أنه لم يُطبع منه إلا مائتان وخمسون نسخة فقط في العالم كله، وكان كريمًا فأهداني في نهاية الزيارة النسخة رقم ٥٩ من هذا الكتاب المرقوم.

لاحظ كثرة تطلعي فقطعنا الحوار وقام يُريني بعض لوحاته ويريني كيف يرسم؛ فمكتبه واسع جِدًّا، منخفض بحيث يَصلُح للكتابة والرسم، وعلى جانبه الأيمن دائمًا ورقة بيضاء (٣٥ × ٢٥سم) معدَّة لكي يَبدأ فجأة، ربما وفي وسط كتابته، يرسم، ويتأمَّل ما رسمه ويمزقه ويعود يرسم.

ليت المساحة وصبر القارئ يَسمحان بحديث أطول عن هذا الفنان الغني الغريب، ولكن مرة أخرى أقول: «ما باليد حيلة.»

عُدنا للجلوس وشرب الشاي والنسكافيه، وقلت آن الأوان لمحاكمة الأستاذ دورينمات.

قلت: هل مُمكن أن أسألك بعض الأسئلة المحركة. (لمحت الترحيب الكامل في ملامحه): ماذا فعلتَ أنتَ ككاتب من العالم الأوَّل لعالَمنا الثالث؟ كيف ترانا أنت أيها المواطن في العالم الأوَّل؟

قال: أنا حقيقة مواطن في دولة أوروبية، ولكني دائم التتبُّع لما يحدث في عالمكم. أنا أعرف الكثير عن أمريكا اللاتينية وأفريقيا والشرق الأوسط. حين كنتُ في أمريكا صدمت تمامًا بما رأيتُه في مستوطنات الهنود الحمر، ولدرجات الفقر غير الإنساني التي يعيشها الهندي الأمريكي هناك، وقد جعلتْني تلك التجربة أغير كثيرًا من أفكاري حول التقدم ومفهوم الحضارة ودور أوروبا وأمريكا. أنا لم أقرأ كثيرًا في تاريخ الشعوب الإسلامية والإسلام، ولكنني شديد الإعجاب بالحضارة الإسلامية في العصور الوسيطة، وما استحدثه العرب والمسلمون من اكتشافات في علوم كالرياضة والفلسفة إلى درجة أن كثيرين من الأكاديميِّين الأوروبيِّين كانوا يعرفون العربية ويَدرُسونها ويتعلمون منها منطق أرسطو

وفيثاغورس وأفلاطون دون أن يلموا بالإغريقية نفسها. ولقد كان الإمبراطور الألماني «فردريك الثاني» شديد الاهتمام بالدارسين للغة العربية والمستشرقين، وكثيرٌ من التراث الإغريقي وصل إلى أوروبا عن طريق ترجمته من اللغة العربية وليس الإغريقية. أجل، في ذلك الوقت (حوالي القرن الحادي عشر الميلادي) كانت النصوص الإغريقية تُقرأ في أوروبا في ترجماتها العربية وليس الإغريقية.

قلت: إنني سعيد أن أسمع هذا منك.

قال: إنني أعرف أن أوروبا أحدثت امتدادات حضارية وثَقافية داخل عالمكم والعالم أجمع، ولكني أعرف أن تأثير الفكر الإسلامي والعربي كان قويًّا على أوروبا أيضًا إلى درجة أنْ أثَّر في تفكير الفيلسوف العظيم «سبينوزا» نفسه، ذلك الذي وصل إلى أن الله (في كل الأديان) مبدأ واحد موجود في كل زمان ومكان. لقد تأثَّرتُ بتفكير «سبينوزا» تمامًا، فقد كان يهوديًّا ولكنه ترك اليهودية وحوكم من أجل هذا، ولكنه لم يُصبح مسيحيًّا أيضًا ونبذ العالم، وعاش في قرية هولندية، وعمل كصانع نظارات ليأكل عيشه بعرق جبينه (إذ كان هذا هو المبدأ الذي وصل إليه)، بل إنه استغل قدرته العلمية واستطاع أن يحسب كم نظارة عليه أن يَصنعها في اليوم لتكفيَ عيشه ويتبقى جزء يكفي لجنازته حين يموت.

قلت (ضاحكًا من حكاية الحساب الدقيق للنقود هذا، خاصة السويسريين منذ قديم الزمان): لقد كان سويسريًّا تمامًا في هذا!

قال: ولكن المسألة بالنسبة إليه كانت أكبر من مجرد القدرة على الحساب والتدبير. كان هذا يعني لديه حرية الإنسان من كل قيد حتى قيد الوظيفة وأكل العيش. قد تَستغرِب، ولكني أعتقد أن هذا النوع من التفكير الذي وصل إليه سبينوزا كان هو الذي أدَّى في النهاية إلى ظهور أينشتين والنسبية. لقد بنى أينشتين نظريته النسبية مُستفيدًا من نظرية الكم التي اكتشَفَها «ماكس بلانك» و«نيل بوهر»، ونظرية الكم تَعتمِد على قانون الاحتمالات، أو قانون الصدفة، وكان «أينشتين» يُعارض هذا تمامًا باعتبار أنه يُلغي فكرة الخالق الأوَّل: الله.

قلت: اسمح لي. أنا لم أدرس نظرية الكم أو النسبية دراسة أكاديمية، ولكني على الأقل أعرف أن نظرية الكم تؤكِّد أن مكونات الذرة وعلى رأسها الإلكترون تدور في مسارات «حتمية» لا تتغير إلا بفعل قوى «حتمية» من خارج الذرة أو حتى لو افترضنا من داخلها، فأي دخل للصدفة هنا؟

قال: إذا كانت تزعجك كلمة الصدفة، فسمِّها الاحتمالات.

قلت: أعتقد أننا لن نتفق حول هذه النقطة، فأنت تفكر كعالم رياضي فيلسوف. يعجبك «سبينوزا» و«كانت» والفلاسفة الرياضيون، أنا أفكر بمنطق آخر تمامًا، منطق بيولوجي حيوي، أبسطه أن أقول لك إن وجود موهبة مثل موهبة «دورينمات» يَكسِر حتمًا قانون الاحتمالات أو الصدفة؛ إذ هو يخضع بالضرورة لعوامل، أو لقوانين أعمق بكثير من قوانين الاحتمالات، قوانين حين تكتشفها البشرية ستنظر إلى قانون الصدفة وقانون الاحتمالات كما نَنظر نحن الآن إلى جدول الضرب بالمقارنة إلى إمكانيات الحاسب الإلكتروني غير المعقولة، فلندع هذا الموضوع جانبًا إذن، فنحن على رمال شاطئ المحيط العلمي، مجرد رمال الشاطئ وأمامنا الأبعد والأربح والأعمق بكثير جِدًّا مما عرفنا أو سنعرف.

قال: إذن عم سوف نتحدَّث؟ عن التصوف مثلًا؟

قلت: ولماذا لا نتحدث عن إسرائيل وزيارتك لها وكتابك عنها؟

قال: فعلًا هذا موضوع أريد أن أتحدث فيه. إنك لم تَقرأ كتابي عن إسرائيل، ولو كنت قد قرأته لعرفت أن أملي خاب تمامًا في إسرائيل بعد زيارتها. لقد تغيَّرت إسرائيل كثيرًا. كنت أظن في مبدأ الأمر حين قامت إسرائيل أنها ستُصبِح دولة أذكياء قد حملوا معهم الحضارة الأوروبية وسيتولون نشرها في الشرق، ولم أكن أتصوَّر أن يتحوَّل هؤلاء القوم الذين عانوا من الاضطهاد إلى دولة كالمؤسسة العسكرية أو ما يُمكن أن نسميه «إيران اليهودية» دولة عسكرية تحتل وتُبيد وتقتل. والخطأ القاتل الذي وقعت فيه إسرائيل كان نتيجة لانتصاراتها السهلة على بلاد عربية كانت خارجة لتوِّها من تحت وطأة الاستعمار. إن إسرائيل تقول إنها دولة ديمقراطية، ومن المعروف أن الديمقراطية هي التمثيل الصحيح لفئات الشعب، فهل الفلسطينيون المقيمون في إسرائيل ممثَّلون في الحكومة والكنيست الإسرائيلي بنفس النسبة (تقريبًا ١:٢).

إنني أعتقد أن هناك مكانًا للدولتَين الإسرائيلية والفلسطينية، وكان يُمكِن للدولتَين أن تُقيما معًا تجربة جديدة في بابها، دولة علمانية واحدة فيها العرب وفيها اليهود.

قلت: أتعرف يا أستاذ دورينمات أن هذا هو بالضبط المطلب الأساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية التي تُسميها الحكومة الإسرائيلية منظَّمة إرهابية لا بد من إبادتها.

قال: هذا ناتج من خوف إسرائيل من المنظَّمة. إن الجانبَين أصبحا الآن يخافان بعضهما إلى درجة استحالة قيام دولة واحدة تحتويهما.

قلت: ومَن المسئول في رأيك عن هذا الخوف المتبادل؟

قال: لقد كان العرب واليهود يحيَون معًا منذ نهاية القرن الماضي في سلام وتعاون، حتى أيام الاحتلال التركي المسلم. وكان منطق اليهود في إيجاد دولة إسرائيلية أن إسرائيل كانت أرضهم أيام الاحتلال الروماني، وأنهم حاربوا الرومان ثلاث حروب كبرى، وحين حاقت بهم الهزيمة تفرَّقوا في العالم شتاتًا.

قلت: ولكن العرب أيضًا حاربوا الرومان في العصر الإسلامي الأوَّل، حاربوا بضراوة، وحرَّروا ما يُسَمَّى الآن بالشام (سوريا وفلسطين والأردن).

قال: ولكن هل كانت هناك دولة عربية في فلسطين أيام الاحتلال الروماني؟

قلت: ليس بالمعنى العصري لكلمة دولة، ولكن القبائل الإسلامية كانت هناك.

قال: اعذرني؛ فأنا أتحدث هنا من موقعي ككاتب ليس طرفًا في صراع، ولا أستطيع أن أرفض تمامًا حق اليهود في إقامة دولة إسرائيل، ولكني أؤمن تمامًا بحق الفلسطينيين أيضًا في إقامة دولتهم ووطنهم.

وهنا قام دورينمات وأحضر نسخة من الكِتاب الذي كتبه عن المشكلة الإسرائيلية العربية، وأخذ يُطلعني على فقرات منه لا تتعدَّى المعاني السابقة. واستغربت في الحقيقة، فمعنى هذا أن الرجل كان قد استعدَّ أيضًا للقائي مثلما استعددتُ له؛ فهو قد علم الصفحات بأوراق صغيرة، وخطَّط بالأحمر تحت الفقرات المذكورة ليسهل له الرجوع إليه أثناء نقاشنا وكأنه كان متأكدًا أننا لا بد أن نتطرَّق إلى هذا الموضوع وموقفه منه. وكم كان باستطاعتي أن أتشنج أو ألقي عليه محاضرة طويلة عن تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، ولكني قدَّرت، إذا كان الرجل يحمل هذا القدر من التفتُّح لمعرفة الحقيقة وإدراكها، فإن خير ما يُمكن عمله، أن أدعوه لزيارة القاهرة ومقابلة أولئك الذين يتولون شرح القضية لنا نحن في حين أن مهمَّتهم أن يشرحوا وجهة النظر لمن هم في حاجة ماسة وحقيقية لها، حسني النية هؤلاء الذين خدعتهم آلة الدعاية الإسرائيلية التي لم تُقابلها أبدًا ردود عربية معقولة ومقبولة وعادلة وصادقة في حين أنها فعلًا وفي الحقيقة كذلك.

هو قادم إذن في نوفمبر، وكسْبُ كاتب عالمي مسموع الكلمة أهمُّ كثيرًا جِدًّا من عقد مؤتمر لا يحضره إلا المتعاطفون معنا والمؤيدون، وتُنفق عليهم الآلاف، وفي أحيان كثيرة

لا نظفر من ورائها إلا خبرًا سهلًا في صفحة داخلية من جريدة أوروبية، هي في معظم الأحيان معادية. لقاء حافل، مع كاتب حافل، وما أذهلني فيه هو تعاطفه معنا، ذلك الذي لا نَعرفه، ولم نحفل بأن نعرفه.

وإلى اللقاء يا دورينمات الكبير في نوفمبر القادم، إذا شاء المولى، وهو على كل شيء قدير.

لقاء حافل مع دورينمات

حين كُنت طالب علم أقرأ المراجع الطبية، وأقرأ أحيانًا كتبًا لأساتذة الأدب في القرن التاسع عشر، كانت صورة أولئك الأساتذة سواء في العلم أو الأدب تأخذ عندي طابعًا مُبالَغًا فيه تمامًا، كنتُ أتصوَّر أن ذلك الرجل العظيم الذي باستطاعته أن يكتب هذا المرجع أو يحيط به، بل أحيانًا يكتشف ويخترع تلك المعلومات لا يُمكن أن يكون مثلنا أبدًا. وكنت لا أفعل هذا عن تصور رومانسي لإنسان خرافي أو من عالم آخر كتب أو ألَّف، ولكن الكاتب أو العالم يُعطينا فيما يكتبه خير ما عنده، أو بالأصح معجزته الخاصة التي وصل إليها وحده، وقياسًا على هذا نتصوَّر نحن أن كل شيء فيه، مثل إنتاجه، معجزة هو الآخر ومن مجموع تلك المعجزات التي تُكوِّن شخصَه يتبدَّى لنا في صورة أسطورية تمامًا. بل إني لأذكر أني بعد أن أصبحت كاتبًا وصدر كتابي الأوَّل «أرخص ليالي» كنت مدعوًّا إلى حفل في إحدى السفارات، ووجدتُ ضمن المدعوِّين الدكتور طه حسين يَصطحبه سكرتيره الأستاذ فريد شحاتة، وكنت أعرف أن الدكتور طه حسين قد قرأ كتابي وأُعجب به تمامًا، وأنه أَوصى المرحوم الأستاذ سامي داود أن يُخبرني أنه يريد أن يَراني. وها هو ذا طه حسين أمامي لا تَفصلني عنه إلا بضع خطوات، وما عليَّ إلا أن أذهب إليه وأسلم عليه وأقول له اسمي، فلا حرج إذن ولا إحراج، ولا داعي للوجل والرجلُ هو الذي يَطلب لقائي، ومع هذا لم أستطع أن أخطوَ خطوة واحدة تجاه الأستاذ العميد الذي قرأت له «الأيام» و«المعذبون في الأرض» و«أديبٌ»، والذي كنت أضعه هو والأستاذ توفيق الحكيم في برج فني خاص أقول لنفسي إنني أبدًا لن أستطيع بلوغه. وهكذا مضت الحفلة وغادرها طه حسين ولم أُقابله إلا بعدها بعام حين اصطحبني المرحوم سامي داود بما يشبه الإرغام للقائه في فيللته بالزمالك في ذلك الحين.

تذكرتُ كل هذا وأنا في طريقي للقاء «فردريك دورينمات» أعظم كاتب مسرحي معاصر — في رأيي المُتواضع — ذلك أني حين دعتْني «البروحيلتسيا» وترجمتها «من أجل سويسرا»، وهي الهيئة التي تشرف وتشجع وترعى الأدب والفن السويسريَّين وكان رفيقي في الرحلة أستاذنا الدكتور لويس عوض، جعلوا لنا برنامجين مختلفين؛ فالدكتور لويس آثر أن يزور المتاحف والمكتبات والأماكن التاريخية، وأن يعتكف بعيدًا عن الخلق يتأمل كل ما قرأ عنه في تاريخ سويسرا وأماكنها المشهورة حتى الصخرة التي كتب الشاعر الإنجليزي بايرون قصيدة مشهورة بجوارها، بينما كان اهتمامي الأوَّل أن أتعرف على الناس: كُتَّابًا، وفنَّانين، ومسرحيِّين من مختلف أنحاء سويسرا.

وهكذا افترقنا.

وفي حفل عشاء صغير أقامه الكاتب السويسري «أدولف موشك» وزوجته الكاتبة لزوجتي ولي، وحضره عدد آخر من الكُتَّاب، أسرني ذلك الجو الأسري البسيط الذي يحيا فيه الكاتبان زوجة وزوج، ولم يخلُ الأمر من مداعبات أطلقتُها عن التناقض الكامن بطبيعته بين الحياة زوجًا وزوجةً وبين الزمالة في العمل؛ فكلاهما كاتب ناجح، وحين انتهينا من العشاء ورحنا نتحدث، جاءت سيرة «دورينمات»، وهنا وجدتُ حناجر الكُتَّاب والكاتبات المجلجلة بدا وكأنها ازدردت لقمة كبيرة أوقفت الكلمات في الحلوق، وحين استؤنف الحديث، استؤنف على هيئة كلمات مُتناثِرة عن «دورينمات» فمن قائل: لقد ماتت زوجته التي كان يَعبدها وتزوَّج بأخرى وهو عجوز هكذا. ومن قائل: إن وزنه قد زاد كثيرًا، وإنه قليل الحركة جِدًّا. ومن قائل: إنه يُعاني من السكَّر. أخبار محزنة على طول الخط، خاصةً وقد كنتُ أتمنى أن ألقاه في هذه الرحلة إلى سويسرا، ولم أجد بُدًّا من أن أبوح بأمنيَّتي تلك لهم. وجاءت الكلمات تترى تقول: إن «دورينمات» لا يقابل أحدًا. إنه «سوبر ستار» الآن، ولا يُقابل أحدًا. كثيرون من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء يحاولون لقاءه، ولكنه باستمرار يرفض. لقد أصبح مغرورًا تمامًا ويوشك غروره أن يقتله في بيته المنعزل في نيوشاتل. وابتسمت في سرِّي، لكأننا في القاهرة أو في أيَّة عاصمة عربية أخرى، لا رحنا ولا جينا. إن آراء الكُتَّاب في بعضهم البعض، وإن اتخذت طابع «الموضوعية» حين تُقال علنًا، إلا أنه حين يُصبح الأمر مسألة نميمة وآراء تُقال في دائرة مغلقة، فإن كل مستور من الآراء يظهر أو بالأصح كل مستور من الغيرة أو الحقد يطفو على السطح ويَنطِق به اللسان. و«دورينمات» كاتب موهوب جِدًّا بالنسبة لبلد أوروبي صغير كسويسرا، لم يُعرَف عنه إنتاج عباقرة الكتابة أو الموسيقى أو التصوير. وقد أخذ «دورينمات» طريقه إلى العالمية بسرعة شديدة؛ فهو يكتب بالألمانية ومن السهل ترجمته. فقد كتب أول

مسرحية له اسمها «الأعمى» عام ١٩٤٨ و«الشهاب» وبعد عشر سنوات بالضبط كانت مسرحيته الثانية «زواج مستر مسيسيبي» تُقدَّم في برودواي في نيويورك عام ٥٨، ناهيك عن مسرحيته المشهورة جِدًّا «زيارة السيدة العجوز» التي كتبها عام ٥٦ «وعمره وقتها ٣٥ عامًا» وقُدمت أيضًا في نيويورك وفي كل عواصم الدنيا تقريبًا وتُرجمت إلى العربية وقُدمت هنا عدة مرات كان آخرها في الصيف الماضي. وإنتاج «دورينمات» في المسرح ١٨ مسرحية، فقد كتب أيضًا «علماء الطبيعة»، وقُدمت في مصر من ترجمة الصديق الكبير أنيس منصور الذي زاره وكتب عنه في الستينيات، و«روميلوس العظيم» عن آخر أباطرة الدولة الرومانية، و«هرقل ينظف إصطبل أوجياس» و«فرانك الخامس»، و«آخر حرب الشتاء في التبت»، و«هكذا كتبت»، وأيضًا اقتبس مسرحيات لشكسبير وجوته وغيرهما. تسع مسرحيات للآن، كتبها «دورينمات» ولكنه أصبح بها أستاذ مسرح النصف الثاني من القرن العشرين؛ ذلك أن هذا الرجل يتمتَّع بموهبة القدرة على خلق الأسطورة الحديثة التي يُحرِّك بها الواقع الآسن ويجعل منه فنًّا عظيمًا «وسنأتي إلى هذه النقطة في الحوار معه».

و«دورينمات» كروائي يأتي من الدرجة الثانية من موهبته ككاتب مسرح، وقد كتب عدة روايات منها القاضي والمحكوم عليه (عام ٥٥)، والشك (٥٣)، والإغريقي يبحث عن الإغريقية (٥٥)، واللعبة الخطرة (٥٦)، والالتماس (٥٨).

أَجَلْ، ما بهرني في «دورينمات» وإني ككاتب مسرح هو قدرته على اختراع حدوتة مسرحية مُعاصرة، بينما العادة جرت في معظم كُتَّاب المسرح أن يلجئوا إلى الميثولوجيا الإغريقية مثل «أوديب» و«بيجمالون» و«ألكترا» و«الذباب»، يُعيدون كتابتَها برؤيا حديثة ومُبتكَرة، أمَّا أن «تخترع» أسطورة حديثة تمامًا، مُنتزعة من صميم عصرها ومُتناقضاته، فتلك لا بد موهبة من نوع فذ تمامًا.

ومن هنا يَختلِف «دورينمات» عن مُعاصريه من كُتَّاب المسرح العالميِّين مثل آرثر ميلر وتينيسي ويليامز وبيكيت ويونسكو وموروجيك وغيرهم.

إن لكل شيخ طريقته هذا صحيح، ولكن هذا الشيخ نسيج وحده.

لم يفعل الحديث الذي دار بعد العشاء، إلا أن ثبَّط همتي تمامًا في لقاء «دورينمات»، مع أني لم أكن شغوفًا جِدًّا بلقائه، فقد علمتني التجربة أن «سماعك بالمعيديِّ خير من أن تراه»، ثم إن خجلي الريفي الذي لم يُزاوِلني أبدًا فعل فعله فخفتُ أن أطلب من السيدة

«زايفل» المسئولة عن زيارتنا موعدًا مع «دورينمات» فتَعتذر، ولو بلباقة، كدأبها مع كل مَن يَطلب من الكُتَّاب الذين يَزورون سويسرا، هكذا قال لي الكُتَّاب والكاتبات في حفلة العشاء. صرفت النظر كما قلت.

ولكن أثناء زيارتنا — زوجتي وأنا — لمنطقة سان مورتيز ولقائنا بممثل البروهيلفسيا هناك، الذي اتَّضح أنه من الشعب الرومانشي الذي يَقطن في منطقة جبال الألب، والذي له لغة خاصة وأدب خاص وحركة فنية ثقافية خاصة، والذي لا يتجاوز عدده المليون. وبعد جولة في قمم جبال الألب اصطحبنا المسئول لزيارة صديقة له وصديق يعيشان في وادٍ صغير يقع بين جبلَين بالقرب من سان موتيز. والوادي صغير جِدًّا، والأرض والبيوت فيه غالية الثمن تمامًا، فلا يقلُّ ثمن البيت فيه عن مليون فرنك سويسري مع أنه لا يتعدَّى أي بيت من بيوت الفلاحين الذين كانوا يقطنون ذلك الوادي من زمن غير بعيد.

دخلنا المنزل، فهو بيت مثل بيوت الفلاحين في قُرانا، مصنوع من الخشب ومزوَّد بفرن للتدفئة ولإعداد الطعام، كل ما في الأمر أن الأسرة لا تنام فوق سطح الفرن كعادتنا في الأرياف، ولكنها تنام في الحجرة التي تقع أعلى الفرن مباشرة، والتي تتكفَّل حرارة الفرن بتدفئتها طوال الليل والنهار، وعلى كوب الشاي الذي أعدَّته ربة البيت، ورُحنا نرتشفه بنهم بعد الجولة الحافلة في المناطق الجبَلية الوعرة ذات الهواء البارد تمامًا، عرَّفَها المسئول بنا، وعرَّفَنا بها، وذكر لنا أن أخاها يُعتبر من أهم الناشرين في اللغة الألمانية بسويسرا. وهنا، وفي التو، قرنت بين الناشر وبين الكاتب، وسألتها إن كان قد نشر شيئًا لدورينمات. فقالت: أجل. قلت: إذن تعرفين دورينمات؟

– بالتأكيد!

– أأستطيع أن أعرف منك رقم تليفونه؟

– ها هو ذا، ولكن لماذا؟

وهنا ذكرتُ لها رغبتي في لقائه والحديث الذي ثبَّط همَّتي ... إلى آخر القصة.

ولمحت التردُّد على وجهها مخافة أن أطلب منها أن تُحدِّد لي موعدًا معه، فقلت لها على الفور: لا عليكِ يا سيدتي؛ أنا لن أُكلِّفكِ بالاتصال به، سأقوم أنا بهذا وأجرب حظي.

وحين عُدنا إلى الفندق في سان مورتيز، أخرجتُ الرقم وطلبته، ورد عليَّ صوت رجل يتحدث بالألماني، فسألته بالإنجليزية: مستر فريدريك دورينمات؟!

– يا ... يا (نعم بالألمانية).

– (مواصلًا بالإنجليزية) أنا اسمي فلان، وأنا كاتب مسرحي مصري وأودُّ لقاءك، ليس لحديث صحفي، ولكن لحوار حول قضايا مسرحية تَشغلُني وتشغل كُتَّاب المسرح المصري والعربي. أفهمتني يا مستر دورينمات؟

قال بإنجليزية متردِّدة جِدًّا: نعم نعم، فهمتك.

– متى أستطيع أن ألقاك؟

قال كلامًا بالألمانية، فناولت السماعة لمرافِقنا الرومانيشي مندوب البروهلفيا، وظل يقول: يا ... يا ... يا ...

وأخيرًا نحَّى السماعة جانبًا وأغلق فوهتها.

وقال بالإنجليزية طبعًا: إن مستر «دورينمات» يُرحِّب بلقائك يوم الثلاثاء القادم في منزله بنيوشاتل، وهو يترك لك حرية اللقاء حرية الغداء ١٢ ظهرًا أو على مشروب بعد الظهر في الثالثة، فما رأيك؟

– الثالثة يوم الثلاثاء إذن!

وقد كان.

وكان عجبي شديدًا أن تمَّ الأمر بهذه السهولة.

قامت مدام زويفل المسئولة عَنَّا بترتيب كل شيء، آلة تسجيل، كاميرا، مترجم يجيد الألمانية والإنجليزية واللغة العربية حتى، كان عليه أن يَلقانا في محطة نيوشاتل للقطارات في الساعة الثانية بعد الظهر.

ومن أعظم الأشياء الموجودة في سويسرا شبكة السكك الحديدية التي تَحملُك إلى أي بقعة من سويسرا رغم وعورة جبالها وكثرتها وتعدُّد أنواعها، نوع لصعود الجبال، ونوع للسهول، ونوع دولي يحملك إلى أي مكان في أوروبا، والأهم من هذا دقَّتها الشديدة. وقد كان علينا مرة أن نغادر سان مورتيز ونغيِّر القطار الذاهب إلى لوشيانو في محطة ما لا أذكر اسمها، وكنا وحدنا، وسألت مدام زويفل عبر التليفون: كيف سأعرف المحطة؟ قالت: انظر في ساعتك، حين تُصبح السابعة وثلاث دقائق استعدَّ للنزول؛ فالقطار يصل إلى المحطة في السابعة وأربع دقائق. وفعلًا، في السابعة وأربع دقائق كُنَّا نهبط من القطار على رصيف المحطة التي فشلتُ في تذكُّر اسمها، لكأنه نوع من التعرف على المكان بالزمان. إن صناعة الساعات لم تَنشأ في سويسرا عبثًا، وأنا شخصيًّا لديَّ ساعة سويسرية دقيقة لا أحتاج إليها كثيرًا في مصرنا الغالية، لم أحتجْها تمامًا إلا هناك، فخطأ في نصف دقيقة قد يكلفك قطارًا هامًّا يفوتك أو موعدًا لقيام طائرة.

في الثانية تمامًا كان المترجم هناك، بالضبط في بوفيه الدرجة الأولى واقفًا على الباب، ودون أن نتبادل كلمة كُنَّا قد تعارفنا.

كان المطر قد بدأ يتساقط، وما إن خرجنا من باب المحطة حتى أصبح سيولًا، وكان العثور على تاكسي في هذا الجو مسألة صعبة تمامًا، ووجدنا أن خير طريقة هي أن نَنتظر مسافرًا قادمًا بتاكسي لنأخذه، وأفلحت الطريقة، وسألنا السائق عن العنوان فأكَّد أنه يعرفه. وسار بنا في شوارع خلت من المارة تقريبًا إلى أن أصبحنا نَسير في شارع مُوازٍ لبحيرة نيوشاتل، وبدأ السائق يعدُّ أرقام البيوت، وبدأ يُبرطم، فكل الأرقام موجودة إلا رقم منزل «دورينمات». المطر، والبرد، والشارع المُنعرِج كالجبل الملاصق له لا تَلمح فيه أثرًا لإنسان أو لحياة، وتصوَّرت أن السائق سرعان ما يزهق وينفض يده ويعود بنا إلى المحطة حيث كُنَّا.

ولكن يبدو أن الرجل أخذها مسألة تَحدٍّ، فمضى يطرق الأبواب، بعضها يفتح له ويجيب بالتأسف، وبعضها يهزُّ رأسه علامة اللاعلم. ويَروح السائق ويجيء في الشارع المتعرج الطويل، وأخيرًا جِدًّا يَطرق بابًا نلمح من خلفه رأسًا يهتز بالمعرفة، ويعود السائق متهلِّلًا وكأنه «أرشميدس» يقول: وجدتها وجدتها. وبعد دقائق نكون أخيرًا أمام باب «دورينمات».

فتحَت لنا الباب سيدة شابة، حسبتُها أول الأمر زوجة دورينمات الجديدة، ولكن اتضح فيما بعد أنها «شغالة» البيت، ومن مَمرٍّ ضيق نفَذنا إلى حجرة واسعة منخفضة بضع درجات، وكان دورينمات جالسًا إلى مكتبه، قام وتقدَّم ناحيتنا مرحبًا ومسلمًا.

الرجل في تمام صحته، قصير القامة، في الخامسة والستين يبدو، نشط الحركة، ليس سمينًا أو زائد الوزن كما قالوا، ولا يَمشي على عكَّاز كما زعموا، أشيَبُ الشعر، يضع منظارًا وعلى وجهه آيات ترحيب صادقة، ترحيب مُتواضِع أشدَّ ما يكون التواضع.

ولم يكن «دورينمات» أول كاتب ملأت شُهرته الآفاق أقابله؛ فمِن قبله لقيت سارتر وإيليا أهرفيورج في النمسا، وآرثر ميللر وجون إبدايك وسل بيللو من أمريكا، وكل منهم كنت أحسُّ لديه بكمٍّ ما من الشعور المغتربة للذات وبالذات، إلا هذا الرجل الذي بدا لي شيخًا صغيرًا طيبًا، فيه من ملامح الطفولة أكثر مما فيه من ملامح الشيوخ.

كان حائط بأكمله من حجرته مصنوعًا من الزجاج ويطلُّ من علٍ على بحيرة نيوشاتل والجبل المنحدر إليها. مكان عمل جميل جِدًّا لفنان رسام وكاتب معًا.

رُحت أتأمل الرجل. هذا هو «دورينمات» إذًا الذي خلبَت أفكاره لبِّي، وجعلتني أتساءل عن كنه ذلك الكاتب المسرحي الذي «يَخترع» تلك الأفكار.

– أستاذ دورينمات، أنا شديد الإعجاب بمسرحك لسبب قد يُخالفني فيه الكثير من نُقَّادك، فنُقَّادُك يُشيدون بك لأنك أحللتَ الصدفة محلَّ القدر الإغريقي القديم، وجعلتَ التفكير العقلاني فكرة في أحيان كثيرة موجات من العبثية واللامفهومية. وفي مثل هذا الجو غير المعقول لا يُمكِن وجود الأبطال، ويقولون إنك حطمتَ النظرة المنمَّقة المرئية للعالم المُتمدْيِن بما أدخلته عليها من النظرة النسبية للحقائق، وفي مكان البناء السليم المتكامل والقوانين الأخلاقية المطلقة، في مكان هذا حلَّت بيروقراطية المجتمع الحديث لتصنع رؤيا عينية للكون حيث يستحيل فيه الإنسان ومأساته إلى سخرة «فارس» اجتماعية. نُقَّادك يُقدِّرونك لهذا ولكني معجب بك لسبب آخر تمامًا.

أجاب «دورينمات» بابتسامة ماكرة: أي سبب؟

قلت: لأنك كمسرحي، خالق لما أُسمِّيه الأسطورة الحديثة؛ فالواقع كما هو أنت تعرف وأنا أعرف لا يَصلُح بذاته كمادة مسرحية، لا بد من حيلة مسرحية يلجأ إليها كاتب المسرح ليجعل هذا الواقع إمَّا أن ينقلب رأسًا على عقب وإمَّا أن يَعتدِل إذا كان مقلوبًا لنستطيع أن نراه في ضوء جديد تمامًا وبرؤيا جديدة تمامًا؛ فمثلًا في مسرحية «زيارة السيدة العجوز» أنت تريد أن تتحدَّث عما يُحدِثه العامل المادي في النفوس البشرية وكيف يتسلَّط عليها ويغيرها، غيرك كان يلجأ لعرض هذا الموضوع في قالب درامي مهما بلغت درجة إتقانه فسوف يكون مباشرًا، أنت اخترعت قصة السيدة التي غادرت القرية منبوذة من حبيبها والتي عادت إليها بعد أن أصبحت غنية جِدًّا ورصدت مليون دولار لمن يَقتُل لها حبيبها السابق. هذه «الاختراعة» المسرحية جعلتْنا نرى الموضوع بطريقة مسرحية مُثلى، وجعلتنا نراه وكأننا لم نرَهُ من قبل، مع أننا نراه كل يوم. أردتُ لقاءك إذن ومناقشتك لأننا في العالم العربي نُعاني ككُتَّابِ مسرح (وأنا منهم) لخلق هذه الاختراعات المسرحية المصرية والعربية الحديثة لنرى واقعنا وواقع العالم اليومي على ضوئها.

قال: إنه لشيء غريب، ولكننا في خلقنا للأسطورة الحديثة، كما تُسمِّيها نجد أنفسنا في النهاية وقد عُدنا إلى أساطير الأقدمين، إلى الميثولوجيا الإغريقية مثلًا. إن النظرة الكونية الشاملة المتكاملة كانت منذ خمسين عامًا مضت لا يُمكن الوصول إليها على وجه الدقة، ولكننا الآن نستطيع أن نقول إننا نقف على أرضية نظرة كونية ثابتة. نحن لدينا اليوم فكرة شبه يقينية عن ماهية المادة.

قلت: إنني سعيد بسماع هذا؛ فأنا أحتاج وأنا أكتب مسرحياتي إلى أن أقف على أرضية كونية ثابتة، وحين كنت أكتبُ مسرحية لي اسمها «الفرافير» احتجتُ أن أعثر على قانون واحد يشمل كل مادة الكون من أصغر ذراتها وإلكتروناتها إلى أكبر مجراتها.

قال: وهل وصلت إليه؟

قلت: وصلت إلى ما تفضَّلتَ وأسمَيتَه أنت «شبه اليقين». فبإمعان التفكير وصلت إلى أن المادة في حالة نبض مستمر، تتجاذب مكوناتها، من مكونات الذرة، إلى مكونات المجرة، وتظل تتجاذب إلى أن تصل إلى ما أسميته المسافة الحَرِجة لتبدأ قوى التجاذب تتحول فجأة إلى قوى تنافر منفجر هائل، وهذا القانون يشمل حتى العلاقات البشرية من تقارب وحب ثم تنافر وتباعد، ومن العلاقات داخل المجتمعات، وبين الدول، وهكذا.

قال: وماذا دفعك للبحث عن ذلك القانون الجديد؟ أوَلم تكفِكَ القوانين الحالية لتفسير السلوك البشري؟

قلت: إن القوانين الحالية لعلم الطبيعة والكيمياء والبيولوجي والأنثروبولجي لم تكن لتُسعِفَني لتفسير العلاقة بين السيد والفرفور (وهنا تكفَّل المُترجم بتلخيص مسرحية الفرافير التي يعرفها ودرسها، وقد سعدتُ بهذا لأنني هنا أمام كاتب قد قرأتُ معظم وأهم أعماله بينما هو بالكاد لا يعرف إلا أني مجرد كاتب مسرحي مصري، فكان ضروريًّا أن يعرف شيئًا عن إنتاجي).

قال: أنا لا أستطيع أن أُناقشك في تصوُّرك عن هذا القانون الكوني الواحد، ولكني شخصيًّا أؤمن بقانون واحد آخر هو قانون الصدفة. إن العالم الذي نحيا فيه بما يحتويه من بشر ليس له قدر محتوم يَسير إليه ويَنتهي بنهايته. ولهذا نحن لا يمكن أن نتنبأ بما سيحدث لهذا العالم غدًا؛ لأن العالم يسير بطريق الصدفة العشوائية، ولا يمكن التنبؤ على وجه الدقة بما سوف يحدث؛ فالأمر متروك لقانون الصدفة المحضة.

قلت: هل تعتقد يا أستاذ دورينمات أن المسألة مجرَّد صدفة، حتى لو كانت قانونًا.

قال: نعم. أنا أعتقد أن الحتمية — حتى التاريخية منها — قد استبدلت بالاحتمالية، بمعنى أن هناك «احتمال» أن يحدث هذا الشيء أو ذاك.

قلت: ألا يُمكن أن تكون الاحتمالية طريقًا للحتمية أو بالأصح هل من المُمكِن أن تؤدي الاحتمالية إلى الحتمية؟ (سألت المترجم: هل سؤالي مفهوم؟) قال المترجم: لا.

قلت: بمعنى آخر: الاحتمالية مهما كَثُرت فلها حدود، فهل يُمكِن أن تؤدِّي الاحتمالية في النهاية إلى الحتمية؟

سألته هذا السؤال وفي خلفية تفكيري ما يقوله النُّقَّاد عنه من أنه نظرًا لما أصابه من إحباط نتيجة لانعدام العدالة الكونية، وثبوت أن الفلسفات كلها غير يقينية، أصبح يؤمن أن البطولة في العالم انحصرَت في تمرُّد المعزول ضد النبوءة الميئوس منها، وعلى هذا الأساس بنى عملًا من أعماله الفذة التي سنتحدَّث عنها فيما بعد وهو «التِّيه».

قال: لنَعُد إلى قانونك الذي تصوَّرته عن الكون (قانون النبض الكوني أو التجاذب للتنافر): أنا آخذ هذا القانون مأخذًا عِلميًّا جادًّا أو بالأصح افتراضًا علميًّا جادًّا، فمن المعروف أن الكون الآن في حالة تمدُّد (حسب نظرية أينشتين) أو ما تُسميه مرحلة التنافر، فهل هناك قوة داخلية فيه تستطيع أن تبدأ مرحلة التجاذب.

أسعدني أنه عاد ليُناقشني في افتراضي ويأخذه ذلك المأخذ الجاد.

قلت: إنه لا يتحدَّد — حسب افتراضي — من تلقاء نفسه، إنه يتحدد لأنه بالضرورة ينجذب أو تنجذب أطرافه إلى أكوان بعيدة أخرى، بمعنى أن المادة الكونية كلها — من الذرات إلى المجرات — تتجاذَب بنفس السرعة، بل وتقطع في انجذابها نفس النسبية من المسافة، إلى أن تصل إلى النقطة الحرجة فتَنفجِر مُتنافِرة ثم تعود لتتجاذَب وهكذا.

فالقوة أو القانون الأساسي ليس شيئًا من خارج الكون ولكنه كامن داخله، التجاذب للتنافر.

قال: إنه احتمال وارد، بل هو في الحقيقة تَفسيرنا نحن الكُتَّاب أو افتراضاتنا عما يجري داخل الكون ومادته. إن فكرة الكون نفسها هي تصوُّرنا نحن عن الكون. إن فكرة «جاليليو» عن الكون كانت صحيحة في عصرها تمامًا، ولكنه لم يكن يَملك الأدوات أو الأجهزة التي تُمكِّنه من إثباتها عمليًّا والتأكد من صحتها وصحة أن المادة تدور في حلقات وحول نفسها، ونحن الآن عائدون إلى تصورات أخرى عن الكون، وما الفن إلا تجسيد لتصورنا نحن عن هذا التصور.

قلت: لو أخذنا «دورينمات» حين بدأ يرسم ويكتب في أوائل بداياته عام ٤٣، ٤٤، ٤٥، وأخذنا تصوره للكون، هل تغيَّر هذا التصور؟

قال: أنا كنت أدرس الفلسفة، وكان اكتشافي للفيلسوف كانت نقطة تحول في حياتي؛ فقد كان صاحب نظرية التلقي Perception وصاحب نظرية التَّفرِقة بين التفكير والوجود، وصاحب الرأي القائل بأن الإنسان يفكر في الكون مُستعينًا بالمفردات البشرية التي يراها ويحيا بها وليس بالموجودات الحقيقية في الكون، بمعنى آخر هو لا يرى ولا يُدرك حقيقة الكون، ولكنه «يتصوَّره» على هيئة أشياء يراها من حوله. وهكذا وصل إلى أن التفكير الرياضي والحسابي هو أنقى أنواع التفكير في الكون، فهي مجردات وأرقام (والأرقام أيضًا مجرَّدات) لا تحتك بالحقيقة من قريب أو بعيد. إن حقائق الطبيعة لا يُمكِن تجسيدها إلا بالرموز الرياضية والرياضة فقط، وهذا في حد ذاته يُحدِّد تلك الحقائق الكونية تحديدًا كبيرًا.

وواصل «دورينمات» قائلًا: إنَّ الحرية الحقيقية هي في إدراك مَحدودية القدرة البشرية على فهم الكون.

قلت: نعم، فلقد جعلت الصراع في مسرحيتي بين رغبة الإنسان العارمة في التحرُّر من النظام الكوني «السيد» وبين قدرته المحدودة على الفكاك من أَسرِ هذا النظام نفسه؛ إذ لو فك منه تمامًا لفقد صفته البشرية ونظام وجوده.

قال: ولكن النظام ليس خارج الإنسان، إنه داخل الإنسان نفسه.

قلت: ولكن كنتُ أتحدَّث عن الوجود الإنساني في هيئة جماعة بشرية، فالإنسان لا يحيا بمفرده، ولا يوجد مكون بمفرده أبدًا، حتى الذرات توجد في مجتمعات ولا بد من نظام يحكم وجودها الجماعي.

قال: أنت تقول إن الإنسان لا يُمكن أن يعيش خارج نظامه الإنساني وإن النظام لا يُمكِن أن يعيش خارج الإنسان، فكيف عالجت هذه المعادلة المستحيلة.

قلت: بالصراع حول من يكون السيد: النظام، أم الإنسان؟

وضحكْنا، طويلًا، وكثيرًا.

حوار مع زوج مارلين مونرو

وليَعذرني القارئ لهذا العنوان؛ فـ «مارلين مونرو» أكثر شهرةً بكثير من زوجها عميد المسرح الأميركي المعاصر «آرثر ميللر»، وكنت وأنا سائر معه في الشارع الخامس بنيويورك، وهو طويل — أطول مما يَجب — وجهه ظاهر لأي عيان، وبالكاد يتعرف عليه أناس قلائل تمامًا، ودائمًا بعد أن نَمضي، أُقارن بيني وبين نفسي وأقول: لو كنت سائرًا مع مارلين مونرو، ألم يكن الشارع كله قد وقف تمامًا عن حركته؟ هكذا الكُتَّاب المساكين، دائمًا يعملون من وراء ستار — بل أحيانًا ستائر كثيفة — ودائمًا أسماؤهم أشهر من أَشخاصهم، وأدوارهم لا تعرف قيمتها الحقيقية إلا بعد ما يرحلون عن هذا العالم إلى الأبد.

وأنا لا أحب في العادة لقاء الكُتَّاب الأجانب أو المَشهورين حين أسافر؛ ذلك أني أعلم تمامًا أن الفنانين الأُصَلاء غالبًا ما يكونون منطوين على أنفسهم لا يُحبُّون أن يَفتحوا ذواتهم لأغراب، وأكثر ما يُضايقهم أنهم ما يكادون يلقون أحدًا إلا ويَنهال عليهم بأسئلة واستجوابات يَصطنعون من أجلها ابتسامات المجاملة التقليدية، وتدفعهم شدة أدبهم أحيانًا — معظمهم مؤدَّبون — إلى أن يضغطوا على أعصابهم كي يُجيبوا وأمرهم إلى الله. صحيح أني قابلت الكثير منهم، ومن الكبار أيضًا «سارتر» (ذلك الذي لم أُرِد أن أراه أبدًا في القاهرة حين جاء) قابلته بالصدفة المحضة في مطعم شبه شعبي في باريس، وقبل هذا قد قابلتُه أيضًا في فيينا في مؤتمر للسلام، وقابلت معه هناك «إيليا إهرنبورج»، و«سيمون دي بوفوار». قابلت بالصدفة أيضًا «أوسبورن وينتر» في إنجلترا، «وإيفنشنكو أوسيمونوف» «وناجيين» الذي كتب مقدمة لبعض كتبي التي تُرجمت إلى الروسية. قابلت

وصادفت «دورينمات» أعمق كاتب مسرحي معاصر. قابلت الكثيرين ربما لا أَذكُرُهم الآن في إيطاليا واليونان وتركيا واليابان، ولكن المهم، رغم رغبتي الشديدة أحيانًا في اللقاء، إلا أني أبدًا — وللسبب الذي ذكرته — لم أسعَ أبدًا للقاء، حتى كُتَّابنا المصريون الكبار لم أشأ أن ألقاهم إلا بعد أن أكتب وأنشر؛ فالمهم هو «كارت» الزيارة الحقيقي؛ الإنتاج، أمَّا شخصية الكاتب فربما لا تكون هي خير ما عنده. وربما لأجل هذا أيضًا كنت أتحاشى لقاء الكُتَّاب في أوروبا وأمريكا، فأنا أعرف إنتاجهم ولكنهم هم لا يعلمون إلا القليل جِدًّا عَنَّا وعما نكتب، ولهذا فسوف يكون الحوار دائمًا من جانب واحد، وهذا أمر يَدفعني دائمًا إلى الخجل.

ولكنها الصدف، وأحيانًا المؤتمرات، وشكرًا للندوة التي عقدها نادي القلم الدولي في نيويورك والذي دعيت لحضورها منذ بضعة أشهر، وكان يرأسها «أرثر ميللر» ويُديرها الروائي الأميركي — أو أهم روائي أميركي معاصر — «جون أبدايك». شكرًا للندوة فقد أتاحت لي — دون سعي — أن أقابل عددًا من الأسماء التي كنت أقرأ لها ولا أعرفها، وفي نفس الوقت أتحْتُ للندوة أن تعرف شيئًا عن الأدب العربي والكُتَّاب العرب لم تكن تعرفه.

وفي الحقيقة كان لقائي «بميللر» عاصفًا، هكذا شاءت الظروف؛ فقد ألقى «ميللر» في كلمة الافتتاح خطابًا قصيرًا كاد يملؤني بالغضب؛ فقد كان تساؤلًا غريبًا عن أهمية ودور الكلمة في عالمنا المعاصر كاد يَنتهي فيها إلى أن الكلمة لم يَعُد لها دور، أو إذا كان لها دور فهو ثانوي تمامًا وبلا أي فاعلية. وبالصدف المحضة كنت قبل سفري قد كتبت في بابي المفكرة بعنوان: لماذا لا نزال نكتب؟ كانت انطباعًا كله إيمان بأنه لم يَعُد حقيقيًّا في هذا العالم إلا الكلمة الصادقة الطيبة، الكلمة التي تُغيِّر لأنها تصدر عن مُتغيِّر، التي تؤثر لأنها تصدر عن متأثِّر، التي تميت وتحيي لأنها صادرة من إنسان يأخذ قضية قولها وكتابتها مسألة حياة أو موت.

كنت قد أعددت كلمة في الافتتاح، ولكن حين جاء دوري نحَّيت الكلمة جانبًا، ورددت من وحي اللحظة على «ميللر»، ولا أدري لماذا تحمس الحاضرون كثيرًا لما قلته، حتى إن الجرائد في اليوم التالي نشرت المسألة وكأنها مشكلة. كل ما في الأمر أن الظروف كانت تُخبِّئ لي مفاجأة، فقد كان مفروضًا أن نتناول الغداء — بعد الافتتاح — في نادٍ لا أذكر اسمه الآن. وجاءت جلستي بالصدفة بين «أرثر ميللر» والروائي «جون أبدايك». وتحدثت

مع «أبدايك» إذ كان قد زار القاهرة وكتب عنها قصة حاولت أن أناقشه فيها، فبدا عليه بعض الانزعاج وقال لي: إنها قصة «غريبة»، وهو استعمال مخفَّف لما تحويه القصة من تصوير لجو خاص شاذ لم أكن أعرف أن له وجودًا في قاهرتنا العزيزة. وتدخَّلَ «ميللر» في الحديث مُبديًا رغبة قديمة أن يرى القاهرة. وهكذا نشأ حوار ثلاثي عن الموضوع الذي أُثير في الصباح عن دور الكلمة. ودعاني «ميللر» لزيارته في مزرعته التي تبعد عن نيويورك ثلاث أو أربع ساعات، ولكنه كان كريمًا في اليوم التالي ودقَّ لي تليفونًا يطلب فيه أن يكون اللقاء في مكتب ناشره في نيويورك حتى لا يكبدني مشقة الانتقال إلى بيته البعيد. كان شاعرنا العربي «أدونيس» حاضرًا، فاتفقنا أن نذهب معًا.

وكما قُلت قبلًا فإن حماسي للفكرة لم يكن كبيرًا؛ ذلك أني لا أُومِن بإجراء هذه الأحاديث الكتابية أو الصحفية، وخاصة إذا كانت من جانب واحد. إني أقرأ الكاتب وأحاسبه على ما يقوله هو إنتاجًا ومن تلقاء نفسه، وليس بناءً على إلحاح أو سؤال. ولكن ثمة حب استطلاع كان يَدفعني لهذا اللقاء، أو بالأصح، حب استطلاعَين أحدهما كبير ولكنه غير مهم وهو مناقشة المشكلة المسرحية في العالم الآن، والآخر صغير ولكن هام بالنسبة لي كرجل وهو أن أعرف «أرثر ميللر» من قرب، وأعرف بالذات كيف اختارته «مارلين مونرو» — رمز الجنس في القرن العشرين — لتتزوجه، تلك التي صاحبَت دون جوانات، ورؤساء جمهوريات، وسناتورات، ماذا أغراها في هذا الكاتب المسرحي حتى لو كان «ميللر» لتختاره وتُعاشره؟ مشكلات المسرح أعرفها ولي رأي فيها، ولا أعتقد أن رأي «ميللر» سيغير من رأيي كثيرًا. ولكن هذا ولكن هذا الاختيار محيِّر لي تمامًا، حيَّرني حين قرأتُ عنه، وحيَّرني وأنا أتابع حياتهما معًا، ثم انفصالهما، ثم هذه المسرحية التي كتبها «ميللر» عن تلك العلاقة وأسماها «بعد السقوط».

يقع المكتب؛ مكتب الناشر أو بمعنى أصح الوكيل — حبذا لو أصبح لنا في بلادنا العربية وكلاء يتولَّون عن الكُتَّاب والفنانين كل المهام التي لا يجيدها أبدًا أي كاتب أو فنان ومهمة الطبع والنشر والاتفاق والمطالبة بالحقوق — يقع المكتب في الدور الخمسين ربما من عمارة هائلة الارتفاع في قلب نيويورك.

وفي غرفة اجتماعات تقليدية، كراسي عالية الظهور، حاول «ميللر» أن يستعمل فرنسيته مع «أدونيس» الذي لا يتكلَّم الإنجليزية، وسألني عن إنجليزيتي وأين تعلمتها، واستغرب تمامًا أن أكون قد أجدتها على أيدي مدرسين مصريِّين. وشكرًا لجهاز التسجيل

الذي سجل المحاورة وإلا لكانت قد ضاعت من الذاكرة تمامًا، وبما أن المسألة كانت إلقاء حوار فقد وجدت أن عليَّ أن أمثل صفة السائل، وها أنا ذا أورد نص الحوار:

أنا: اعذرني يا مستر «ميللر»، ولكن ظاهرة الكتابة للمسرح تُحيِّرني دائمًا، أنا أعرف أن من يُحبُّ المسرح يُحب بالدرجة الأولى أن «يُمثِّل» ويتقمص، أو على وجه أصح «يظهر» على خشبة المسرح. ولكن هذا الكاتب أو ذاك لماذا يحب أن يكتب للمسرح وهو دائمًا خلف ستار أو داخل «كمبوشته» الخاصة، بمعنى آخر أن تَكتشِفَ نفسك ككاتب شيء، أمَّا أن تكتشف أنك تريد الكتابة للمسرح فتلك قضية أخرى. متى حدث لك هذا وكيف؟

بصوته العريض الأجش، وبقامته المنتصبة فوق الكرسي ذي المسند العالي، وبطريقته التي تُشبه طريقة الفلاحين الصرحاء الأقوياء، قال ميللر: أستطيع أن أخبرك كيف حدث هذا؛ كنتُ طالبًا في جامعة متشجان في سنة ١٩٣٠ أو ٣٥، أي منذ مائة عام (قالها دون أن يَضحك، وضحكنا نحن). كانت لدينا إجازة لمدة أسبوع، وفي ذلك الوقت تكون الجامعة كلها في إجازة وكنتُ في السنة الأولى في الجامعة، ولكني قبل الالتحاق بها كنت قد اشتغلت كعامل في نيويورك، ثم كسائق تراكتور، وأيضًا في مصنع صغير، وكجرسون في مطعم، فقد كان عليَّ أن أُوفِّر النقود التي تُمكِّنُني من دخول الجامعة، وحين جاءت الإجازة قررت لسبب مادي محض أن أجرب كتابة مسرحية؛ ذلك أن جامعة متشجان كانت تعقد في ذلك الوقت مسابقة سنوية في القصة القصيرة والمسرحية، ويُعطون للفائز مبلغًا من المال. في تلك الأيام كانت أمريكا تمر بأزمة اقتصادية شديدة وكان الحصول على النقود أمرًا صعبًا للغاية.

– ولكن لماذا اخترت الدخول في مسابقة المسرحية بالذات؟

ميللر: لا أستطيع الآن أن أُحدِّد بالضبط، ولكن ربما اعتقدت أنها الأسهل في نظري مع أنه لم تكن لديَّ أي فكرة عن كتابة المسرحية. ربما اخترتها اختيارًا غريزيًّا، فلم أكن قد دخلت المسرح أكثر من ثلاث مرات في حياتي كلها، ولم أكن قد عرفتُ أو قابلتُ ممثِّلًا أو أحدًا ممَّن يعملون بالمسرح، بل حتى لم أكن أعرف ما هو طول الزمن الذي تستغرقه أي مسرحية ولكن لأنه كان أمام مسكن الطلاب في الجامعة شخص يقوم بصنع الملابس لمسرح الجامعة ومسرحياته، فقد ظللتُ أكتب لمدة يومين أو ثلاثة ثم ذهبت إليه لأسأله: ما هو الوقت الذي تستغرقه أي مسرحية؟ قال لي: حوالي ساعتَين. وهكذا عدت إلى حجرتي وأحضرت ساعة ورحت أقرأ ما كتبته فوجدته تقريبًا حوالي ساعتَين. وهكذا قدمت المسرحية في المسابقة، ولم أحصل على الجائزة الجامعية عنها فقط، ولكني حصلت على أكثر من خمس جوائز أخرى أيضًا.

– للنقود أيضًا.

ميللر: وأيضًا للمُتعة؛ فقد كانت الكتابة أيامها شيئًا عظيمًا ومُمتعة مثل الذهاب إلى صالة الجمنزيوم.

– هل طبعتها بعد هذا؟

ميللر: لا، ولكن أعجبتني المسألة فَرُحت أكتب لكل عام مسرحية.

– وهل مُثِّلت بعض هذه المسرحيات؟

ميللر: أجل. في متشجان.

– وكيف كان إحساسك بكلماتك وهي تخرج من أفواه المُمثِّلين تحمل معانيك وجملك؟

ميللر: كان انفعالي هائلًا؛ فقد أعجبتني الطريقة، طريقة أن أكتب الخطبة.

– الخطبة؟

ميللر: أجل! إن الكتابة للمسرح هي فن كتابة الخطب الرنانة الجوفاء، وإنها الفن المخطوب. فالكتابة للمسرح هي أساسًا فن شفوي للأذن وليس للعين.

– ولكنهم الآن يُحاوِلون أن يجعلوها فنًّا للعين أيضًا.

ميللر: ولكن هذا خطأ.

– سنأتي لهذا بعد بُرهة.

ميللر: معك حق، هو فن للعين أيضًا ولكنه أساسًا للأذن. إن شكسبير هو الموسيقى، يُمكنك أن تقرأ الموسيقى ولكن الأروع دائمًا أن تسمعها.

– أتسمح لي أن نَقفز قفزة صغيرة؟ كُتَّاب المسرح دائمًا محبون للاستطلاع فيما يختص بتجارب الآخرين في كتابة المسرح، دعنا نأخذ مسرحيتك «وفاة بائع متجول» بالطبع إن مسرحيتك الأولى «كل أولادي» تتبع حقبة زمنية لاحقة، ولكن في وفاة بائع متجول تغيير في الشكل المسرحي. هل أحسستَ بحاجتِكَ الملحَّة إلى هذا التغيير في الشكل؟

ميللر: بالطبع وبوعي أيضًا.

– لماذا؟

ميللر: لأن لي غريزة الاهتمام بالماضي، وكنت أريد أن أجعل الماضي حيًّا في نفس اللحظة التي نحيا فيها الحاضر. مشكلة تداخل الزمن كما تعرف، لكي أحيل كل شيء يقع في نفس الوقت بحيث يُصبح الجمهور بالتدريج يُدركُ أحداث أربعين عامًا مضت في نفس الوقت الذي يُدرِك فيه الأحداث التي تقع أمامه مباشرة. وهكذا اكتشفت تلك

الطريقة لكي أحل هذا الإشكال الزمني، إني حينما أرى الرجال الكبار أراهم أيضًا حين كانوا أطفالًا. وحين أرى الأطفال أحاول أن أراهم أيضًا وفي نفس الوقت حين يُصبحون كبارًا. إن التاريخ مُهمٌّ جِدًّا، تاريخ البلاد، تاريخ الإنسان.

– نعم، ولكني أعتقد أن هذا راجع إلى الفلسفة الجدلية التي كنتَ ترى بها الإنسان.

ميللر: تستطيع أن تقول هذا أيضًا؛ فأنت لا تستطيع أبدًا أن تفهم أمريكا مثلًا إلا إذا عرفتَ تاريخها، وهكذا بالنسبة لي أو لك أو لأي إنسان. إن المجتمع الحاضر هو في الحقيقة التعبير الآتي عن تاريخ هذا المجتمع. لا يُمكِن أن تعرف ما يحدث الآن إلا إذا عرفت ما حدث منذ عشر سنوات مثلًا أو عشرين سنة.

وليس ما حاولت عمله جديدًا على أية حال؛ فقد حاول «إبسن» أن يفعل نفس الشيء، «وشكسبير» حاول. ولكنَّ هناك طرقًا متعددة للوصول إلى الهدف. لقد حاولت أنا أن أجعله يحدث أمامك وليس أن أرويَه أو «أتكلم» عنه. كله فعل درامي أمامك «الآن».

– ولكني أعتقد أن هذا لا بد أن يستتبعه أداء مسرحي خاص؛ فالممثلون دائمًا يؤدون الدور كما هو حادث «الآن» وليس بما لهذه الأدوار من تاريخ حي واقع.

ميللر: إنه مثل عزف «لسترافسكي». يكون هنا وهناك في نفس الوقت. كل الآلات تعزف في نفس الوقت. إنَّ تركيز الممثل لا بد أن يكون فائقًا جِدًّا. وبمناسبة الأوركسترا أتعرف أن حلمي الأكبر كان أن أصبح مُغنيًا. إني أملك صوتًا جميلًا جِدًّا كما ترى «ولسوء الحظ لم أكن أرى».

ميللر: كان الغناء يتطلب عملًا كثيرًا جِدًّا، وأيضًا كان لدينا مُغنُّون كثيرون، وكانوا — وهذا اعتراف — أحسن مني.

– مستر ميللر أتعرف أن حسًّا كوميديًّا تُخبِّئه دائمًا في تراجيدياتك مثل «كلهم أولادي» و«وفاة البائع المتجوِّل»، ولكنه بدأ يظهر أخيرًا في إنتاجك.

ميللر: هذا صحيح! أتعرف أن أول شيء كتبتُه في حياتي كان قطعة ساخرة كتبتها في سن الخامسة عشرة؟ كنت في ذلك الوقت أقيم مع والدي وكنت في المدرسة الثانوية. لم يكن التليفزيون هناك بعد وكانت وسيلة التسلية الأولى هي الراديو، وفي إذاعات تلك الأيام كان هناك معلِّق سياسي أخباري يَجوب بتعليقاته العالم كله بزمانه وبلاده المختلفة، وكان كل الناس يُصغون إليه باهتمام بالغ؛ فقد كان يتحدث بطريقة خطابية جادة تُرغمك على الإصغاء باحترام، ولكني أنا كنت أراه عبيطًا تمامًا، وكان يَجعلني أحس أني أود كلما سمعته أن أنفجر ضاحكًا. في نيويورك في تلك الأيام كانت هناك الأزمة الاقتصادية

الطاحنة كما ذكرت لك، وكان في برامج الراديو ركن للهواة كل أسبوع يَحدُث فيه تنافس بين الهواة من عازفين ومُغنِّين وكتاب برامج، وكان الفائز يربح بضعة دولارات، ولقد دفعتني الحاجة أن أجرب حظي فكتبتُ قطعة أسخر فيها من هذه المعلق. وذهبت إلى المسئولين عن البرنامج وأعطيتهم القطعة فأخذوها وقالوا لي سنتَّصل بك. ولكنني لم أسمع عنهم أبدًا، غير أني ذات ليلة بعد شهرين أو ثلاثة فتحت الراديو ففوجئت بمُمثِّل كوميدي مشهور جِدًّا في ذلك الوقت يؤدِّي شيئًا، وفجأة أدركت أن الكلمات كلماتي وأنها هي نفسها القطعة التي أخذوها مني في ركن الهواة، لقد سرقوها.

وهكذا كان أول لقاء لي مع الحركة الفنية في نيويورك، إنهم سرقوني، وربما لا يَزالون.

– دعنا نقفز قفزة أخرى أكبر هذه المرة يا مستر «ميللر». لقد بدأتَ ككاتب ملتزم تمامًا في «كلهم أولادي» و«وفاة بائع متجول»، فما هو موقفك الآن؟ ألا تزال ملتزمًا؟ وما هو بالضبط كنه التزامك الآن، وقبل من؟ أم هل عدلت عنه؟

ميللر: بالطبع الآن المسائل تبدو أكثر تعقيدًا مما كانت تبدو في تلك الأيام. المجتمع الآن معقد جِدًّا، والمشكلة الأساسية هي أن تجد بعض الأمل وبعض الرمز للأمل. في شبابي كان هناك خطر النازية والفاشية وكان هذا يُجسِّد الشر في رمز واضح وصريح، الآن من الصعب أن ترمز للشر برمز واحد. وهكذا من الصعب أن نقول في جملة واحدة ما هي المشكلة الآن، فالمشاكل كثيرة جِدًّا. إن بلادنا الآن «أمريكا» تجتاز مرحلة تطور هائل وتتغير بسرعة شديدة.

ملحوظة: أحسستُ أن الفلاح العجوز ذا الصحة الجيدة تمامًا يحاول أن يزوغ من الإجابة الصريحة الواضحة، وحاولت بحُسنِ نية شديدة أن أتتبعه.

– تتطور إلى ماذا يا مستر ميللر؟

ميللر: لا أحد يستطيع الجزم إلى أين، وأي إنسان يزعم لنفسه أنه يستطيع فهو ساذج جِدًّا. أنت لا تستطيع الجزم إلى أين. أحيانًا نستطيع أن نقول إننا نسير إلى اليمين بشدة، وأحيانًا أخرى أشعر أننا أصبحنا أكثر حرية من أي فترة أخرى من فترات تاريخنا. حقيقة عندنا الآن كم كبير من الحرية.

– أتعتقد حقًّا أن هناك الآن حرية فعلًا في أمريكا؟

ميللر: بالتأكيد نعم. هناك حرية أكثر من الماضي، وفي نفس الوقت «الكاتب المسرحي يلعب الآن»؛ فإن المؤسسات الهائلة والمال الكثير نفوذهما أيضًا يَتعاظم.

– حسن جِدًّا. كما في الدراما، لقد حدَّدنا الآن طرفَي الصراع؛ الحرية، أكثر ونفوذ المؤسسات أعظم، فما هي محصلة القوى في رأيك؟ وإلى أين تتجه الريح ويتجه المستقبل، هل إلى مزيد من نفوذ المؤسسات أم مزيد من الحرية للمواطن؟

ميللر: هذه هي المشكلة، بالضبط كما حددتها هذه هي المشكلة، إن من الصعب تمامًا على المواطن الآن أن يكون مستقلًّا تمامًا عن هذه المؤسسات مثلما كان باستطاعته أن يفعل في السنين الماضية. المحلات الصغيرة تُغلق، أصحابها يتحوَّلون إلى عُمال وموظَّفين في المؤسسات. الاستقلال حلم صعب المنال، ولكن في نفس الوقت فإن أوجهًا كثيرةً قد تحرَّرت من ذي قبل، إنهم لا يُطيعون الآن بسرعة ولا يَخضعون بسهولة ويَميلون إلى التشكُّك في مصدر الأقوال والأفعال، باختصار لا يُصدِّقون إلا كل شيء يُقال لهم بسهولة.

بصعوبة ونعومة كان «ميللر» يقود الحديث إلى خارج منطقة المواجَهة المباشرة والاحتكاك. ولكنني كنت لا أزال مُصرًّا أن أعرف رأي هذا الكاتب العملاق «قيمةً وجسدًا» في بلده وموقفه منه اليوم، والموقف بالنسبة لي صعب؛ فاللعبة بالحوار أصبحت أسخن، ونحن أصبحنا أكثر اندماجًا، ثم لا نَنسى أنه «ميللر»، ذلك الذي كان مِن أوائل من قرأتُ له عن المسرحيِّين، ومِن بُعدِ ستة آلاف كيلو كنتُ أتحمَّس له وأتخيله، ناهيك عن موضوع «مارلين مونرو».

كاتب بلاد الغنى والضياع

كنتُ قد وصلت في نقاشي مع «أرثر ميللر» إلى نقطة دقيقة وحرجة في حياة كل كاتب، هي أن الكاتب أو الفنان — في نواحٍ كثيرة منه — ظاهرة فردية مُتمرِّدة. وفي أمريكا يُسمون الحكومة والشركات الكبرى والكوربوريشنز «المؤسسة» أو ذلك الإسمنت المسلح المبنية فوقَه يُسمُّونه «الدولة» برجالها الكبار وشيوخها وأجهزتها وأنظمتها. والمؤسسة كانت شيئًا مرفوضًا تمامًا من الشباب بالذات، وكانوا يُسمُّون مَن يعمل بها أو من «تحتويه» بأنه «خان» المبادئ! أية مبادئ؟ لا أحد يعرف بالضبط؛ فاليساريون قليلون جِدًّا، والشيوعيون أقل، ولكن «التمرد» كثير، وما حركة الهيبز والبيتلز، وإلى حد ما حركة التحرر النسائية — حتى التحرر من الرجل والاستغناء عنه بالمرة جنسيًّا أيضًا — كل هذا كان يُمثِّل ظاهرة التمرُّد ضد المؤسسة، تلك التي بلغت أشدها في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، والآن آبت إلى نوع من الهدوء ربما سببه انفجار بركان تمرُّدي زنجي آخر، فالآن زنوج أمريكا لم يعودوا هم هؤلاء الوادعون المستنجدون بالله وبالدعوات وبـ «مارتن لوثر كنج» والمسيحية في طيبتِها وتسامُحِها ليردُّوا على قسوة البيض والكلوكس كلان والاحتقار الكامن لدى الرجل الأبيض، إنهم الآن يردُّون عنفًا بعنف أشد، بل أحيانًا بإجرام رهيب.

ولكن التمرد ضد «المؤسسة» — وإن كان قد آبَ إلى نوع من الاعتدال — لا يزال قائمًا موجودًا. و«آرثر ميللر» نشأ في ظل هذا التمرُّد، وكانت مسرحياته الأولى مسرحيات تمرد كبير. إنه تمرُّد «الرجل العادي» ضد «المؤسسة»، وما تؤدِّي إليه المؤسسة الاجتماعية السياسية من مآسٍ حتى على المستوى الفردي. فماذا حدث لهذا «الذئب العجوز» الآن؟ هل تولت المؤسسة — بما أفاضته عليه من مجدٍ ومالٍ وشهرة وقامة هائلة الطول في مجتمعه — عملية «تطويعه» أو على الأقل «تهجينه»؟

وعُدت إلى النقاش.

– مستر ميللر، تقول إن هناك حرية أكثر الآن في أمريكا، ولكن دور المؤسسات — بالطبع يقصد «المؤسسة» — يتعاظَم هو الآخر، وهذه هي المشكلة أليس كذلك؟

ميللر: بالضبط هذه هي المشكلة. إن من الصعب تمامًا على المُواطن الآن أن يكون مستقلًّا تمامًا عن هذه المؤسسات مثلما كان باستطاعته أن يفعل في السنين التي مضت. الآن هم يتحكَّمون أكثر، ولكن في أوجه كثيرة قد تحرَّر أكثر. قاطعته قائلًا وقد بتُّ أحسُّ أنه صار ديبلوماسيًّا.

– بصراحة، بالنسبة لعنصر الالتزام، أعتقد أنك مُلتزِم، على الأقل بالنسبة للبشرية ككل، أو أنك لا تزال ملتزمًا بقضايا الشعب الأميركي؟

ميللر: نعم.

– ولكنك تقول إن الأعداء في الماضي كانوا واضحين جِدًّا، أمَّا الآن فمن الصعب تحديدهم.

ميللر: إن عندنا موجةً من اليأس في الغرب. إن الكتابة لا معنى لها ولا فائدة، وكأن ليس هناك فائدة أو أمل، وأعتقد شخصيًّا أن هذا صحيح إلى حدٍّ ما، ولكني لا أستطيع قوله، ولهذا فلا بد لي أن أفحص الإنسان لأجد أين تَكمُن قدرته على المقاومة — المقاومة الحيوية — وهذه معجزة. إن الجنس البشري لا يزال يُصرُّ على أن يعيش، وعزل هذه المعجزة ومعرفتها مسألة هامة.

– لنَعُد إلى قضية المسرح، عندي إحساس أن المسرح في العالم يموت الآن، فهذه الآلات التي ذكرتها تَلتهم المسرح من دراما وصورة وموسيقى، ولكنها في نفس الوقت تلتهم المسرح كرُوح وكجمهور حاضر، وتَقتُل ما أُسميه أنا بلغة «التمسرح».

ميللر: هذه زوجي «أنجي». هذا يوسف إدريس، وهذا «أدونيس». اجلسي يا أنجي.

أنجي: أنا فقط أردتُ أن أعرف.

ميللر: لماذا لا تجلسين؟ أنجي قضَتْ وقتًا طويلًا في الشرق الأوسط، إنها تعمل كمصوِّرة صحفية.

– يُسعدني جِدًّا أن أدعوكِ ومستر «ميللر» لزيارة مصر.

أنجي: أنا مستعدَّة للذهاب فورًا.

ميللر: كي نعود إلى النقطة التي أثرتها، أقول لك إني حين بدأت الكتابة للمسرح لم يكن هناك مسرح خارج نيويورك، وكان بالضبط مسرح بردواي المُحترف التجاري،

وكانت هناك روايات أكثر مما هو موجود الآن؛ وهكذا كان على الكاتب المبتدئ أن يبتدئ محترمًا مباشرةً. والآن هناك مسارح في كل مكان ولكن عدد المسرحيات أقل، غير أن هناك أماكن كثيرة لعرضها. هناك مسرحيات مُحترِفِين أقل، ولكن هناك مسارح هُواة كثيرة في شيكاغو ولوس أنجلوس وسانت لويس.

– إني أتكلم عن المسرح في العالم في الحقيقة، فهناك عددٌ أقلُّ من كُتَّاب المسرح.

كان المسرح وسيلة التعبير في العشرينيات والثلاثينيات، ولكن هذه الآلات الجهنمية كما ذكرت قد استنفدت مواهبَ مسرحية «وتلفزَتْها» أو «سَينمَتْها»، في الماضي كان هناك المسرح فقط.

ميللر: هذا هو الحادث فعلًا. ولكن بالنسبة لي شخصيًّا فإن استمراري كمسرحي راجع إلى أني أحب المسرح بالدرجة الأولى، ولكن بالإضافة لهذا فإنه في النهاية أبسط وسائل التعبير. لا توجد آلات، هناك الكاتب، والمُمثل والجمهور، وهذا كل شيء. أعتقد أن هذا شيء لا بد من المحافظة عليه، وهو مناسب جِدًّا لمجتمعات الطلبة والهواة الذين لا يَملِكُون نقودًا لشراء آلات أو استوديوهات. أقول من خبرتي إن المسرح حين يحتوي موضوعًا هامًّا يجذب جمهورًا كبيرًا جِدًّا.

– هذا يقودنا إلى مشكلة المسرح الطليعي والتجريبي. هل أن هذه التجارب الجديدة تقتل روح المسرح الحقيقي أم تُنشِّطه؟

ميللر: الاثنان! أنا أكره أن أعطيك إجابة بسيطة؛ لأنه لا توجد إجابة بسيطة. أنا أعتقد أن الدراما العظيمة جاءت في الأجواء الديمقراطية العظمى في حياة الحضارة مثل الإغريق القديمة وعصر «إليزابيث» في إنجلترا. كان المسرح آنذاك لجميع الناس ولم يكن للمثقفين والمتعلمين فقط، لم يكن للأغنياء والبورجوازيِّين فقط، كان هناك الفلاح واللورد وكل الناس. والمسرح الطليعي مشكلته أنه يبدأ بفكرة لا تُخاطِب إلا «الخلاصة» فقط. وهذا شيء يُسيء لفن المسرح. السبب أن الكاتب الفنان لا يُصارِع كثيرًا ليجعل فكرته المجردة تلك ومشاعره المعقدة بسيطة إلى درجة يفهمها الناس أجمعون. إنَّ أعظم مشاهد شكسبير في حقيقتها بسيطة إلى درجة غريبة، إنها تعالج مشكلة إنسان هجر الآخر، أو إنسان يريد أن يَنتقِمَ من الآخر، أو شخص طموح، أو شخص خائف، أو شخص سعيد، في النهاية موقف بسيط جِدًّا للناس البسطاء. وحين نصل بالطليعة إلى المراحل المجرَّدة في السلوك الإنساني تختل ولا يستطيع أحد أن يتعرَّفَ على الشخصية أو الموقف بسهولة، ويُصبِح حينئذٍ الموقف المسرحي لغزًا قد يكون مثيرًا لهؤلاء بحل الألغاز، ولكنه ليس مثيرًا

بالنسبة إلى الجمهور البسيط العام. إنَّ دور الفنان ليس أن يُعقِّد الأشياء المعقدة، وهذا صعب، ولكنه يأخذ جهدًا خارقًا وموهبةً فذَّة وإيمانًا كبيرًا أيضًا بصراع الفنان مع نفسه لتجسيد القيم والأفكار المجرَّدة وتحويلها إلى الحقائق الإنسانية البسيطة.

– ولكنك كنت طليعيًّا بطريقتك الخاصة، فكيف تفسر موقفك الآن من الطليعة؟

ميللر: أعتقد أن الطليعة هي أن تفهم هذه «الكارثة» الكبرى، الطليعية.

– وما رأيك في التكنيك المسرحي الذي استخدمته في مسرحيتك الجديدة «سقف البابا»؟ هل هي تعمَّدت تكنيكًا خاصًّا أم أنك تركتَ نفسك لسجيتها؟

ميللر: إن التكنيك بالنسبة إليَّ لا يأتي من المسرح أو النُّقَّاد، ولكنه يأتي من طبيعة «الجنَّة السرية» التي تُحاول الوصول إليها في هذه المسرحية أو تلك. ولهذا فمسرحياتي مختلفة الشكل والتكنيك؛ ففي «الجنَّة السرية» كلٌّ منهما مختلف عن المسرحية الجديدة؛ مثلًا «سقف البابا» مختلفة، فقد كنت أحاول فيها أن أعثر على هذا الصوت الخفي لـ «اللجنة السرية» الخاصة بها، وهذا يتطلَّب منك أحيانًا أن تكون تجريديًّا تمامًا وأحيانًا أخرى يتطلب منك أن تكون واقعيًّا جِدًّا. ولماذا لا؟ خلال مائة عام من الآن إذا كان المسرح لا يزال قائمًا وموجودًا حينذاك، فإنهم حين يُمثِّلون مسرحية فإنهم سيفعلون هذا لأنها «ستتحدث» إليهم حتى في ذلك العصر القادم البعيد. إن بعض مسرحياتي عمرها ٢٥ سنة وهذا ربع قرن أي منذ زمن طويل، ومع هذا فهي لا تزال تُمثَّل، ربما الناس قد سئموا تمامًا من «وفاة بائع متجول». قد كتبت بطريقة جديدة، ولكنهم فيما أعتقد يقدمونها لأنها لا تزال تقول لهم شيئًا. إنها لم تخترع جديدًا؛ فلست «أديسون» أو «جراهام بل»، ولكنها اخترعت شيئًا فيما أعتقد.

– ربما لما حوتْه من موضوع جديد فيما أعتقد.

ميللر: ولكن التكنيك أيضًا كان جديدًا. ألست معي؟

– لماذا درج الكُتَّاب الشُّبَّان على إهمال الالتزام تمامًا هنا؟ ماذا حدث؟

ميللر: لأن كل ما كانوا مُلتزمين به قد «انفجر».

كل ما كانوا ملتزمين به قد دخلته المساومة بطريقة أو بأخرى. أنا أعتقد أن هذا ليس التزامًا أو عدم التزام. أعتقد أنه عدم فهم حقيقي لدَورهم ككُتَّاب.

– إذن يا عزيزي مستر «ميللر»، أنت تُوقِع نفسك في تناقُض الآن.

ميللر: ربما، وعلى العموم إن الرؤية لا تبدو واضحة تمامًا؛ ففي الأدب الأميركي والإنجليزي هناك انفصال بين الحياة السياسية والاقتصادية والفنية، وكأن لا شيء يمتُّ

إلى الآخر؛ ولهذا حين يعالج الكُتَّاب موقفًا سياسيًّا؛ فهم يشكُّون في أنه لا يقول الحقيقة، مع أن الناس طول الوقت غارقون لآذانهم في السياسة والاقتصاد.

– ألا تعتقد أن هذا سببه أن الكُتَّاب أنفسهم لم يقوموا بدورهم كما يجب؟ أي لم يُعمِّقوا إحساس الناس بما فيه الكفاية إلى درجة أن يدركوا صلتهم بالأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية؟ لم يقوموا بدور القيادة كما ينبغي ولهذا لم يَتجاوَب الناس معهم بما فيه الكفاية.

ميللر: هذا يعتمد على المكان الذي ترى فيه الكاتب. حين كنت ناشئًا كانت هناك أزمة أميركية اقتصادية كبرى، وكان السؤال هو: هل تُصبِح أمريكا فاشية أم اشتراكية أم بينَ بين؟ وكان لا بد من الاختيار فورًا. ولكن الآن هذا التحديد لم يَعُد قاطعًا، لقد سار النظام بدون حاجة إلى اختيارات راديكالية. عندنا نسبة بطالة تصل إلى ١٥٪ وهذا صحيح ولكنهم هادئون.

– ألا تَعتقِد أنه لا تزال هناك مأساة أميركية في حياة الولايات المتحدة الآن؟

ميللر: بالطبع.

– ما هي؟

ميللر: الضياع؛ ضياع الوقت، ضياع الناس، ضياع الحياة في القلق، ضياع العقاقير، ضياع القدرة، هذه مأساة، وأحيانًا تجد أفرادًا يُدرِكون هذا، حتى مدمنو العقاقير يدركون هذا، ولكنهم لا يستطيعون شيئًا.

– أتعتقد أن هذا نتيجة لدراما شخصية أو هو نتيجة لأوضاع عامة؟

ميللر: أعتقد أن هذا سببه أنه لا توجد أهداف عليا موحَّدة بالمجتمع الأميركي. هناك مثلًا إحساس أنهم ضد الحرب وضد الكوارث الاقتصادية، ولكنهم ليسوا «مع» أهداف عليا محدَّدة.

وكنتُ أريد أن أسأل كيف؟ ولماذا تزوجَتْه مارلين مونرو؟ ولكن زوجته كانت موجودة، وكان اليوم عيد ميلادها، ولم أشأ أن نكون قليلي الذوق. كل ما في الأمر أنني أحسستُ أن «مارلين» اختارت هذا الرجل بالذات لأنه يُعطي الإحساس الغريب بحضور الأب أو بالأخ الأكبر الفَرِح المثقَّف الذي يمكن الاعتماد عليه والثقة به، وأنه رجل. ولقد كانت «مارلين مونرو» امرأة حقًّا.


هنداوي